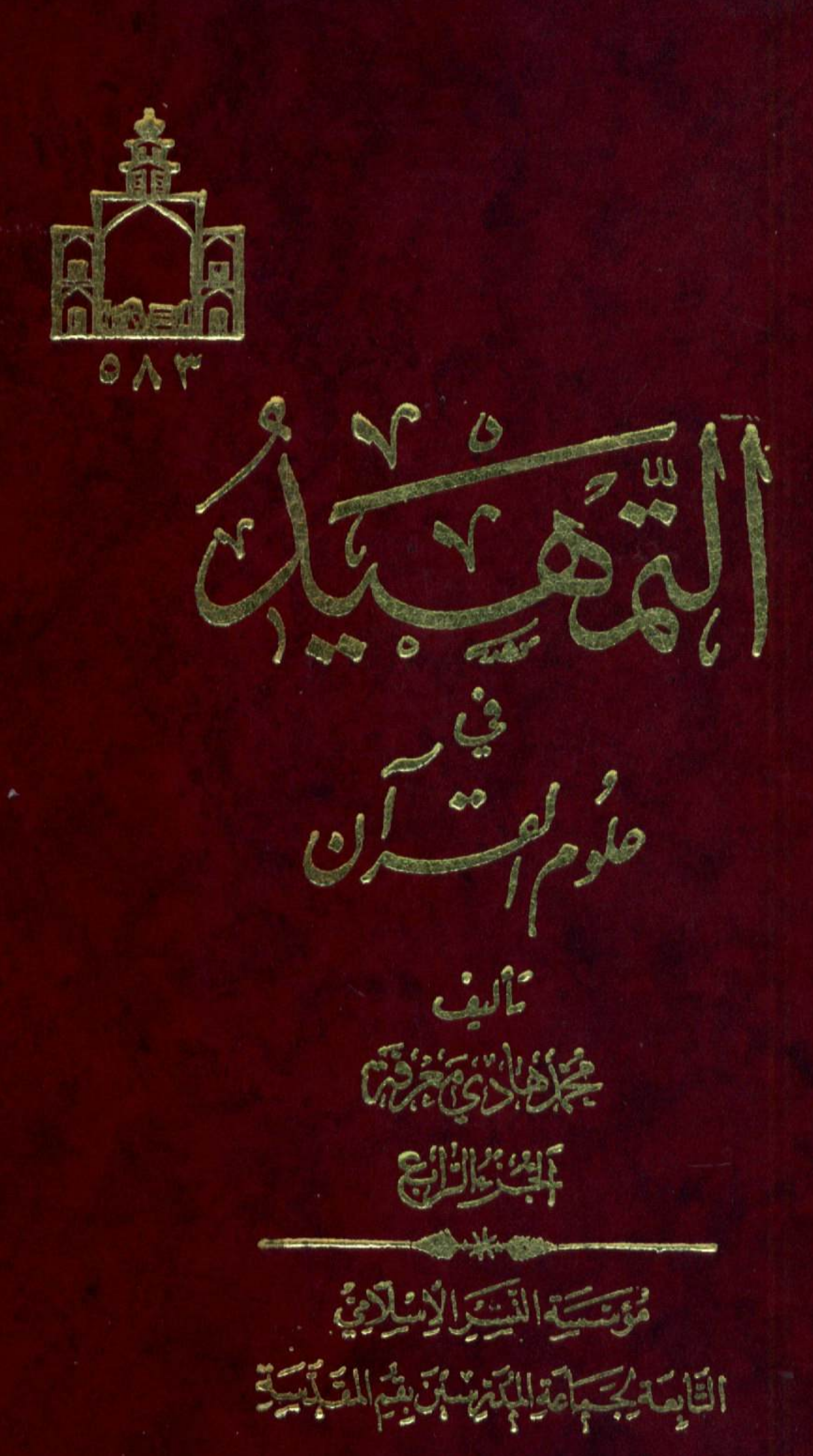
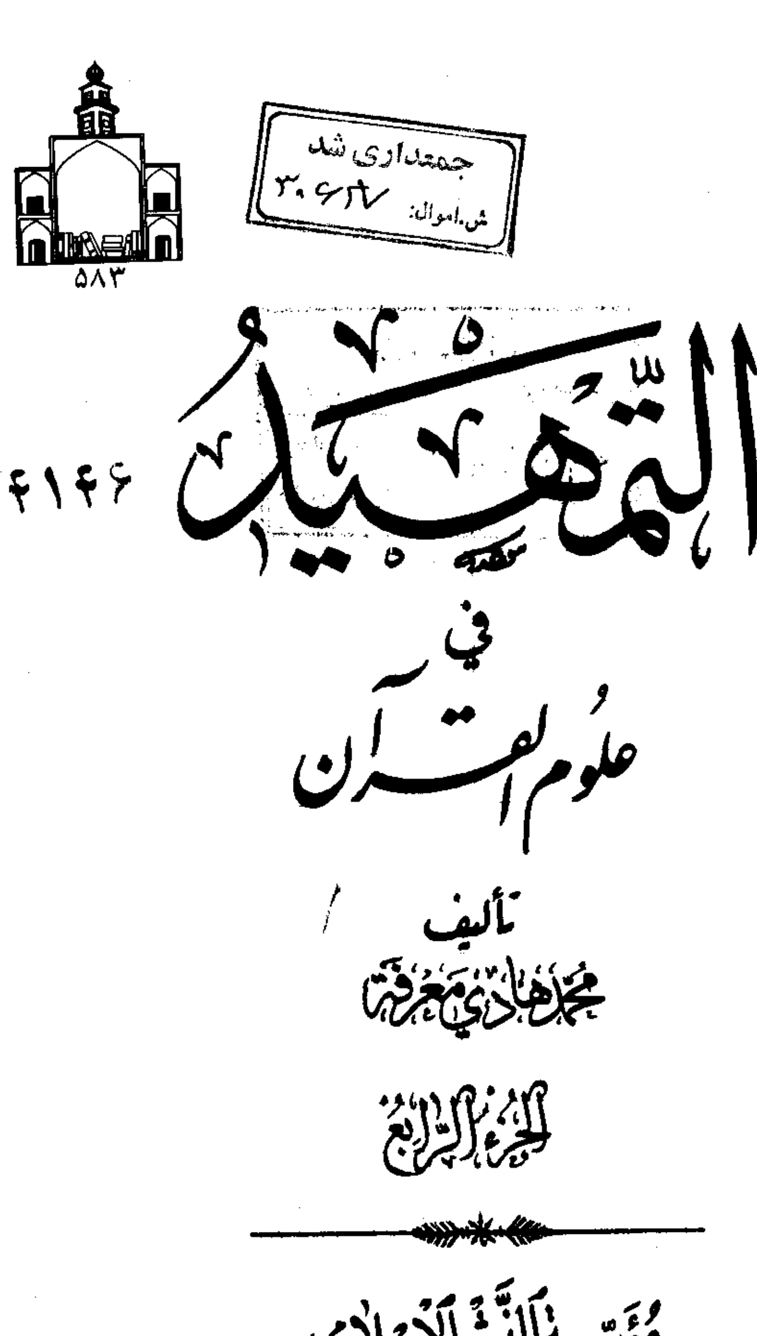

٥٨٣
التمهيد
في
علوم القرآن
تأليف
محمد هادي معرفة
الجزء الرابع
مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة



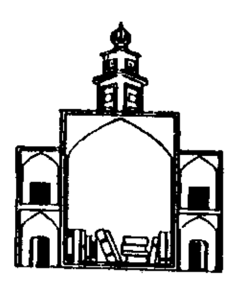
التمهيد

في علوم القرآن

تأليف
محمد هادي معرفة

الجزء الرابع

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة



التمهيد

(ج٤)

■ المؤلف: الاستاذ المحقّق الشيخ محمّد هادي معرفة □

■ الموضوع: علوم القرآن □

■ تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي □

■ عدد الصفحات: ٤١٨ □

■ المطبوع: □

■ الطبعة: الثانية □

■ التاريخ: □

مؤسّسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

اليك يا ولدى ويا فلذة كبدي ، بل وكلّ أملى في الحياة ومُرتجاىَ في مسيرة الوجود..

اليك أُهدى هذه البقية من ثمرات هذا المجهود.. فقد فُزتَ بدرجة الشّهادة في غُضُون فوزك برفيع منزلة العلم والكمال.. فَجَمعت بين الفضيلتين وحُزْتَ قَصَبَ السبق في كلا المضمارين.. واستوجبت لنفسك الهناء بهذا المتواضع من الحباء...

انّك عِشْتَ عيشتك القصيرة في سعادة، واستشهدت في كرامة، وفزت فوزاً عظيماً...

انك رغم جهودك المتواصلة في طلب العلم، واجتهادك الملّح في اقتناء شرف الكمال، اخترت الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمة الله في الأرض.. حيث رأيت ضرورة القيام بواجب الدفاع عن حريم

الاسلام والذبّ عن كرامة القرآن... فكان حظّك الأوفى ونصيبك الأوفر من عندالله تعالى، هوالفوز بدرجة الشهادة، فضيلة مافوقها فضيلة.. فهنيئاً لك من سعادة ابديّة وشرفٍ تليد، حباك الله به عن ارادتك واختيارك وهو فوز عظيم..

والدك

* * *

قطفة من حياة راحلنا الشهيد

ورأينا من المناسب أن نذكر لمحة مختصرة عن حياة شهيدنا الغالي سائلين الله جلّ شأنه أن يحشره وايّانا مع الائمة الطاهرين.

وُلد شهيدنا الغالي في كربلاء المقدسة (ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الأغرّ سنة الف وثلاثمائةوستّ وثمانين هجرية قمرية = ١٣٤٤/٤/٢٠هـ ش) واستشهد في واقعة كربلاء الخامسة في جزيرة «بوارين» (شلمچة- خوزستان) (في العشرين من جمادى الاولى سنة ١٤٠٧ = ١٣٦٥/١١/١هـ ش) وهو من غريب المناسبة بين موضع الولادة ويوم الاستشهاد..!

قضى ايام طفولته في النجف الأشرف حتى عام هجرتنا الكبرى الى مدينة قم المقدسة سنة (١٣٥٠ هـ ش) فهناك كانت دراسته الابتدائية والثانوية والاحراز على شهادة «دبلوم» ليحوز بعده على قبولية الدخول في عدة جامعات في طهران وغيرها، غير انه رفض سوى الالتحاق بالحوزة العلمية ومواصلة دروسها الدينية عن فهم غريب، وكان موفقاً مرضيّاً في جميع هذه المراحل.. مضافاً الى عدم تغافله عن كسب الاخلاق الفاضلة وتهذيب النفس بمابلغ به مرتبة قل من كان يوجد على مثل سنه المبكّر في مثل تلكم الفضائل والآداب والسلوك بما جعله محبّباً محموداً في اهله وذويه وفي جميع الاوساط التي كان يتراودها، أضف الى ذلك شدة محافظته على شعائر الدين ومباني الشريعة، وعلاقته الوثيقة بعرى الاسلام، من ذلك علقته الوفيرة باصول النهضة المباركة

التي قام بها سيدنا الامام الكبير الامام الخميني -قدس سرّه الشريف- .. وما ان قامت الحرب الشعواء المفروضة على جمهوريتنا الفتيّة، أغارتها أيادي الاستعمار الكافر المتمثّلة في سفلة العرب الأدنين .! .. إلّا وسرعان ما تطوّع شهيدنا في الالتحاق بالجيش الشعبي الباسل المقاوم ضدّ جنود إبليس ... وكانت العمليات الدفاعية التي كان يقوم بها جنود الاسلام حينذاك تُسمّى بوقائع كربلاء تحت ارقام متسلسلة، وكانت النجدة تتلاحقها من ابناء الاسلام الغيارى بقيادة إمام الامة العظيم .. من جملتها واقعة كربلاء الرابعة ثم الخامسة بجزيرة (بُوارين- شَلَمْچة) التي إلتحق بها شهيدنا عن سابقة تدريب واستعداد للجهاد .. وقد كان الموقف حرجاً آنذاك ، ومن ثمّ ترك مواصلة دروسه الحوزويّة في بحبوحة نشاطها المتداوم، لمّا ان أحس بغربة الاسلام واستنجاده بابناءه الغيارى تجاه هجمات العدوّ اللدود. وعندما استجازني- وكانت اجازتي على الفور- ذكّرته التروي في الأمر ريثما يكون ذهابه الى الجهاد عن فكر ورويّة وانتداب حرّ لايشوبه كدر الهوسات لاسيّما وهو جاهد في تحصيل العلوم الاسلامية الذي لايقل عزّة عن عزّة القتال في سبيل الله، وقد كنت آمل في وجوده، وبفضل نبوغه، تصاعداً في مدارج الكمال العلمي الفائق .. لكنه رغم ذلك كله رجّح نصرة الدين من هذا السبيل لضرورة الموقف، وقال اني ذاهب الى ربيّ سيهدين .. فباركته على رأيه وعلى اختياره الذي كان عن بصيرة وفكر واستعداد ..

وقد كان حينما ذهب الى الجهاد قد بلغ مرتبة سامية من العلوم الاسلامية، من جملتها علوم القرآن التي كنت اباشر تدريسها في الحوزة، وكان يشترك في محاضراتي عن استعداد واهلية كنت اباهي به وارجوله الكمال البالغ .. الامر الذي دعا بي ان اهدى الى روحه الطيّبة هذه البقية من موسوعتي في علوم القرآن وارجو من الله ان يجعلها موضع ترويح لخاطره العاطر تحت ظلّه الوارف بفضله وكرمه ...

وينبؤك عن كماله النفسي وعرفانه البالغ بمواضع الاسلام في الحركة والجهاد، تلك وصيّته المباركة وقد كتبها ليلة ذهابه الى جبهة القتال.. (٤/ج ١/١٤٠٧ = ١٣٦٥/١٠/١٥) جاء فيها ـ بعد البسملة ـ:

.. «يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة. فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الاقليل. إلّا تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كلّ شيء قدير...

قال علي عليه السلام: ان الجهاد باب من ابواب الجنّة فتحه الله لخاصّة اوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجُنّته الوثيقة..

هذا يوم يمتحن الله فيه قلوبنا نحن المسلمين ولاسيّما الموالين لاهل البيت عليهم السلام وكان شعارنا: يا ليتنا كنا معكم . آسفين على مصائبهم السالفة..

الانسان عند ما يستمع الى قولة الامام اميرالمؤمنين عليه السلام مؤنباً لاصحابه تقاعسهم عن القتال: «يا اشباه الرجال ولارجال، لوددت أني لم اركم.. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً..» .. ليحقّ ان يموت دون ان يشمله عموم هذا التأنيب.!

نعم انما تتحقق مباني الاسلام الركينة بأمرين: قيادة حكيمة، ووجود اعوان مخلصين. وقد كان الامام اميرالمؤمنين عليه السلام يعوزه الامر الثاني، فكان مآل الأمر ما كان...

والآن وهذا إمامنا القائد، الذي وقف نفسه على حراسة الاسلام، وكان موفقاً مؤيداً بعناية مولانا الامام الحجة المنتظر عجل الله فرجه.. يجب تلبية ندائه والقيام باوامره في الدفاع عن حريم الاسلام.. وآلا فقد شملنا ذلك التأنيب العنيف الذي تأسف عليه الامام مولانا اميرالمؤمنين عليه السلام..

فلو كنت موالياً للامام اميرالمؤمنين، فالواجب هو سلوك الطريقة التي

رسمها لنا، وليس الآن سوى الجهاد في سبيل الله..

لوكنا نتدبّر قليلاً لرأينا منذ واقعة الطف لم تحن الفرصة للمسلمين ان يجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وقد حرموا هذا الفيض الفائض بالبركات.. والآن وقد فتح الله هذا الباب امامنا.. وعلينا انتهاز هذه الفرصة السانحة والاستفاضة من فيوضها.. فلو رزقنا الشهادة في هذا السبيل فهو الفوزالعظيم.. والبشارة الكبرى: ان فتح الله لنا باب الجهاد وجعلنا من خاصة اوليائه.. والاّ فالذي يبقى بعده نحن وهذه الحياة الدنيا والجدال العنيف القائم على زخارفها.. فهل نتوفّق في مبارزات هذه الحياة.. وهل نتخلص من براثن ابليس.. وهل نصبح من عباد الله المخلصين.. وهل لايكون المخلصون على خطر عظيم؟! ماالذي يضمن لنا النجاح والفوز في هذه الحياة عند ذاك؟!

وعليه.. فانى قد اخترتُ سبيل الجهاد عن قلب واع مطمئن، بل هي الوظيفة الشرعية قُمتُ بها عن واجب ديني لامحيص عنه.. وارجو منه تعالى التوفيق بعنايته، وان يرزقني صلاح الجهاد والشهادة في سبيله، عسى ان اكون باهداء هذه المزجاة من دمي قد رويت شجرالاسلام وبذلك كنت قد ادركت السعادة الابدية ان شاءالله...».

قلت: وقد استجاب الله دعاءه ورزقه الشهادة اذ وجده اهلاً لذلك وصالحاً للنيل الى درجات القدس عند ربه فهنيئاً له من سعادة ابدية كانت امنيّته في الحياة.. اللّهم اجعله لنا شافعاً مشفّعاً وارزقه المقام المحمود، في زمرة اوليائه محمد وآله الطيّبين..

* * *

وقد رثاه الشعراء والادباء في حفلات تأبينيّة كانت ولا تزال تقام لذكراه سنويّاً.. وممن رثاه في قصيدة عصماء وارّخ شهادته في اخرى هو الشاعر المجيد المفوّه الشيخ محمدباقر الايرواني المعروف باجادة القريض وحسن الالقاء، قال فيها ـ وكان الحفل منعقداً في الأيام الفاطمية ـ:

يا آل معرفةٍ لمعرفتي بكم — في كل يوم حبّكم يتجدّد
جئنا لتقديم التعازي عندكم — بمصاب فاطم للعزاء نردّد
ثم التعازي في مصاب شهيد كم — وعليّ معرفةٍ شهيد اسعد
عشق الشهادة والشهادة سُلَّمٌ — يرقى الشهيد الى الخلود ويصعد
وكرامة الشهداء عنوان به — شرف السعادة والسعادة تشهد
يا آل معرفةٍ عرفنا مجدكم — برجالكم والكل منكم أمجد

.... الخ..

وفي قصيدة اخرى جاءت مادة التاريخ هكذا:

أرّخت: (من ألم الفراق مناديا — سعدالشهيدعليّ نجل الهادي)

١٠٦+٤١٢+٧١+٩٠ — ٥١+٨٣+١١٠+٣٥٠+١٣٤

=(١٤٠٧) هـ ق

المدخل

الى دراسة الإعجاز القرآني.

تمهيدات اصوليّة قبل الورود على دلائل الاعجاز:

١- الإعجاز في مفهومه..

٢- التحدي في خطوات..

٣- سرّ الإعجاز...

٤- الإعجاز في دراسات السابقين..

٥- الإعجاز في دراسات اللاحقين..

٦- حقيقة القول بالصرفة..

٧- شهادات وافادات..

٨- جذبات وجذوات..

٩- قرعات وقمعات..

١٠- محاججات ومخاصمات..

١١- مفاخرات ومساجلات..

١٢- سخافات وخرافات..

١٣- محاكاة وتقاليد صبيانيّة..

١٤- مصطنعات وتلفيقات هزيلة..

١٥- مقارنة عابرة..

١٦- اجواء مفعمة بالأدب الرفيع..

(شعراء مخضرمون)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله، وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فإنّ مسألة «الإعجاز القرآني» كانت ولا تزال تشكّل الأهمّ من مسائل أصول العقيدة التي بُنيت عليها رواسيها ودارت عليها رحى الاسلام، فكان جديراً بمن حاول التحقيق من مباني الشريعة، والبحث عن أُسسها الأُولى القويمة، أن يدرس من جوانب المسألة ويمعن النظر فيها إمعاناً، بعد أن لم تكن المسألة تقليديّة ولا تغني المتابعة العمياء من غير معرفة أو علم يقين.

أمّا عرب الجاهلية الأُولى فقد كانت تدرك جانب هذا الإعجاز البيانيّ، بحسّها البدائيّ المُرهَف وذوقها الفطريّ السليم في سهولة ويسر، إذ كان القرآن نزل بلغتهم وعلى أساليب كلامهم، سوى كونه في مرتبة عُليا وعلى درجة أرقى، كانوا يُدركونه فهماً ولايكاد يبلغونه في مثله أداءً وتعبيراً.

كان عصر نزول القرآن أزهى عصور البيان العربي، وقد بلغت العرب من العناية بلغتها والإشادة بمبانيها، مبلغ الكمال بمالم تبلغه في أيّ عصر من العصور. كانت لهم أندية وأسواق(١) يجتمع إليها فصحاؤهم، خطباءً وشعراءً،

(١) كانت على مقربة الطائف سوق تجتمع إليها العرب في الأشهرالحرم -حيث الأمان المؤقّت- فينصبون خيامهم بين نخيله في مكان يسمى بعكاظ وكانت العرب تقصدها في طريقها الى الحجّ، فيجتمعون منه في مكان يقال له (الابتداء) وقد اتخذتها العرب سوقاً بعد عام الفيل ←

يعرضون فيها أنفس بضائعهم وأجود صنائعهم، ألاوهي بضاعة الكلام وصناعة الشعر والبيان. كانوا يتبارون فيها، وينقدون ويتفاخرون، ويتنافسون فيها أشدّ التنافس.

... حتى إذا ظهرت فيهم الدعوة ونزل القرآن.. فما أن تليت عليهم آياته إلّا والأسواق قد تعطّلت والأندية قد انفضّت، وقد خلت الديار إلّا من رنّة صوت القرآن. وقد زحفهم ببراعته وهزمهم بصولته، فلم يستطيعوا مباراته ولم يقدروا على مجاراته، ففضّلوا الفرار على القرار واستغشوا على رؤوسهم ثوب العار. ذلك على أنّه لم يسدّ عليهم باب المعارضة، ولم يمانعهم التنافس فيه، صارخاً ومتحدّياً لهم أفراداً وجماعات: لو يأتوا بحديث مثله!

وقد عرض عليهم هذا التحدّي الصارخ في جرأة خارقة وصراحة بالغة، مكرّراً عليهم ومتهكّماً بهم: أنّهم أعجز من أن تقوم قائمتهم تجاه صوت القرآن

بخمس عشرة سنة، أي قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وآله) بخمس وعشرين عاماً (سنة ٥٤٠ للميلاد) وكانت وفود العرب تتوافد إليها من كل صوب. وزادت قريش بواعث الاجتماع إليها أنّهم جعلوها مسرحاً للأدب والشعر، تتسابق فيه القبائل لإظهار نوابغها من شعراء وخطباء، فيتناشدون ويتفاخرون وكانوا يعرضون فيها نخب قصائدهم على نقدة القريض والكلام، ويكون لذلك احتفال حاشد يشهده جماهير العرب، فتشيع قصائدهم ويترنّم بها الركبان في كلّ صقع. وبقيت سوق عكاظ بعدالاسلام معرضاً يتبادل فيه السلع، حتى نهبها الخوارج الحروريّة حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف سنة (١٢٩هـ).

وكانت لهم أسواق أخر تبلغ العشرة كانت تقام في فواصل معيّنة من السنة في أمكنة متعدّدة، وكانت تحت خفارات منتظمة في حمايات معيّنة، ذكر تفصيلها اليعقوبي في تاريخه: ج ١ ص ٢٣٩.

وكانت لهم أيضاً مجالس يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والبحث عن بعض شؤونهم العامة، وكانوا يسمّون تلك المجالس (الأندية) ومنها نادي قريش ودارالندوة بجوارالكعبة. وكان لكلّ بيت من بيوت الأشراف فناء بين يديه للاجتماع، ولكلّ قوم مجتمع عامّ في المضارب. على أنّهم كانوا حيثما اجتمعوا تناشدوا وتفاخروا وتبادلوا سلع الكلام وصناعات القريض والبيان. انظر: تاريخ الآداب العربية: ج ١ ص ١٩٥، وتاريخ التمدّن الاسلامي: ج ١ ص ٣٧ كلا هما لجرجي زيدان. ودائرةالمعارف لفريد وجدي: ج ٦ ص ٥٣٥.

المدوّي المدهش، وقد تنازل معهم الى الأخق فالأخف، تبييناً لموقف عجزهم وضعف مقدرتهم:

أوّلاً: «فَلْيأْتُوا بِحَديثٍ مِثْلِه»[1].ثانياً: «فأْتُوا بِعشرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ»[2].ثالثاً: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ»[3]،و أخيراً أجهز عليهم بحكمه الباتّ: «فَإن لَمْ تَفعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارة»[4] فقد أنذرهم بالنار وساوى بينهم و بين الأحجار!

هذا.. ولم يكن العرب يومذاك أهل كسل وملل في الكلام والخصام، وقد تربّوا في أحصان الخصومة وكانوا أهل لدد وجدل، كما وصفهم تعالى: «وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً»[5]،وقال: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»[6]. فلوكانت فيهم قدرة على المعارضة أو لسان لم يخرسه العجز والعيّ، لماصمتوا على ذلّ العار أوسكتوا على شنارالصّغار، وقد أصاب منهم موضع عزّهم ومحلّ فخارهم، وهزمهم بذات سلاحهم، ولم تكن الهزيمة الشنعاء إلّا لأنّهم وجدوا من أنفسهم ضآلة وحقارة، تجاه عظمة القرآن وهيمنته وكبريائه، «فَمَا اسْطاعُوا أنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتطاعُوا لَهُ نَقْباً»[7][8]

* * *

(١) الطور: ٣٤. (٢) هود: ١٣. (٣) يونس: ٣٨. (٤) البقره: ٢٤.
(٥) مريم: ٩٧. (٦) الزخرف: ٥٨. (٧) الكهف: ٩٧.
(٨) إنّهم حاولوا معارضته ومقابلة فصيح كلامه، غيرأنّ الحظّ لم يساعدهم ولم يرافقهم التوفيق، فقد أعوزتهم الكفاءة وتقاعست عنه هممهم لمّارأوا شموخ طوده الرفيع. قال ابن رشيق في العمدة:ج ١ ص ٢١١: «ولما أرادت قريش معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك، على لباب البرّ وسلاف الخمرولحوم الضأن والخلوة الى أن بلغوا مجهودهم، فلمّا سمعوا قول الله عزّوجلّ: «وَقِيلَ ياأرْضِ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُأقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَاءُ، وَقُضِيَ الأمْرُ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيْلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمينَ» هود:٤٤،يئسوا ممّا طمعوا فيه، وعلموا أنّه ليس بكلام مخلوق». وراجع مجمع البيان:ج ٥ ص ١٤٥.

هـذا الوليدبن المغيرة المخزومي ـ كبير قريش ورائدهـم وقائدهم ـ استأمروه بشأن هذا الـكلام الذي جاء بـه نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) فلم يستطع سوى الاعتـراف بأنّه فوق مـقدور البشر: «فوالله ماهو بشـعر ولا بسحر ولا بهذي جـنـون، وإنّ قوله مـن كـلام الله...»[١]،وهوالقائـل: «و والله إنّ لـقوله الذي يقول لحلاوة، وإنَّ علـيه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله. وإنّه ليعلو وما يُعلى»[٢]. وهذا إنذار من رأس الكفر بأن الغلب سوف يكون مع القرآن!

وقد حاولوا الممانعـة دون صيته والحؤول دون شياعـه، وقالوا: «لاَ تسْمَعـُوا لِهَذَا القُـرآن وَالْغَوْا فِـيهِ لَعَلَّـكُمْ تَغْلِـبُونَ»[٣]. وكانوا يستغشون ثـيابهم ويضعون أصابعهم في آذانهم خشيـة سماعه، أو يحشون مسامع الـوفود بالخرق والكراسف لئلّا يستمعوا الى حـديثه، لماذا؟ إنّهم أدركوا هـيمنته ولمسوا من واقـعه الناصع، فهابوه وخافوا سطوتـه، فقد أعجزتهم مقـابلته بالكلام وألجـأتهم أخيراً الى ركوب الصعب من مطايا الحتـوف بمقارعة الأسنّة والسيوف. لكن «وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِوَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ»[٤].

* * *

والآية الأغـرب، والمعجزة الأعجـب، ذلك حكمه الباتّ على أنهم لن يأتوا بمثله «وَلَـنْ تَـفْعَلُوا» أبـداً. إنّـه إعجاز في صراحـة وجـرأة يفوق سائر الإعـجاز، وإخبار عن غـيب محتّـم، لايصدر إلّا عن علّام الغيوب، ولا يجرأ على النطق به أحد من البشر مهما أُوتي من علم وقدرة وهيمنة.

بل وحكمه العـام الشـامل لكـافّة طـبقات الأُمم عبـرالخلود، لايستطيـعون جـميعاً أن يأتوا بمثله «ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً»[٥].

---

(١) تفسير الطبري: ج ٢٩ ص ٩٨.

(٢) مستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٥٠.

(٣) فصّلت: ٢٦.

(٤) يونس: ٨٢. (٥) الاسراء: ٨٨.

وهذه ركب البشرية وفيهم الجفاة والعتاة ممّن مارسوا لغة الضاد، قد اخرسوا جميعاً عن معارضته وإمكان مقابلته، وليس عن رحمة ولين عريكة، وإنّما هو عجز وعيّ وضعف، صار دليلاً على إعجازه وبرهاناً على خلوده!

* * *

وقد بحث العلماء قديماً وفي العصر القريب، عن سرّ هذا الإعجاز وعن سبب خلوده، وحاولوا قصارى جهدهم لكشف النقاب عن وجهه ولمس اعتابه، فكانت ابحاثاً جللاً وآراء ونظرات قيّمة، سجلتها صحائف التاريخ في سطور مضيئة وكلمات مشرقة، كان تراثنا الثمين في هذا المضمار ورصيدنا الوفير في هذا العرض (أحسن الله جزاءهم). ونحن إذ نسير على منهجهم لا نألو جهداً في سبر أغواره والتحقيق من مبانيه، جرياً مع التطوّر في الأفكار والأنظار، عساه أن يكون خدمة صالحة لمباني الدين القويم والترويج من شريعة سيّد المرسلين، عليه وعلى آله الأطيبين صلوات ربّ العالمين.

قم ـ محمد هادي معرفة
غرة ربيع الأغر ١٤٠٨

الإعجاز القرآني

الإعجاز في مفهومه:

الإعجاز: مصدر مزيد فيه من (عجز) إذا لم يستطع أمراً، ضد (قدر) إذا تمكّن منه. يقال: أعجزه الأمر، إذا حاول القيام به فلم تسعه قدرته وأعجزتُ فلاناً: إذا وجدتّه عاجزاً أو جعلتّه عاجزاً.

والـمُعجزة ـ في مصطلحهم ـ تطلق على كلّ أمر خارق للعادة، إذا قرن بالتحدّي وسلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه ليكون دليلاً على صدق رسالتهم[1].

وهي تتنوع حسب تنوع الأُمم المرسل إليهم في المواهب والمعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد الى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود الى دقيق بعيد الآفاق. وهكذا كلّما تقادمت الأُمم في الثقافة والحضارة فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قِبَل الأنبياء

---

(١) الاعجاز ضرورة دفاعية قبل أن تكون ضرورة دعائية... إنّ رسالة الأنبياء على وضح من الحقّ الصريح، ولاحاجة الى إقامة برهان،له دعوة الحقّ. وبالحقّ أنزلناه وبالحق نزل. ذلك الكتاب لاريب فيه. يا أيها الناس قدجاءكم الحقّ من ربّكم. ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربّك هوالحقّ. وليعلم الذين أُوتوا العلم أنّه الحقّ من ربّك فيؤمنوا به... نعم، وأكثرهم للحقّ كارهون. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً..

ومن ثمّ وقفوا في سبيل الدعوة إما معارضة بالوساوس والدسائس وعرقلة الطريق، فدعت الضرورة الى الدليل المعجز استيقاناودفعاللشبهة، أو مكافحة بالسيف فدعت الحاجة الى القتال والجهاد..

(عليهم السلام) ترقّ وتلطف، وكانت آخر المعاجز رقّة ولطفاً هي أرقاها نمطاً وأعلاها اسلوباً، ألا وهي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشريّة جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت وتصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الاسلام.

ولقد صعب على العرب ـ يومذاك وهم على البداوة الأُولى ـ تحمّل عبء القرآن الثقيل، فلم يطيقوه. ومن ثم تمنّوا لو يُبدَّل الى قرآن غير هذا، ومعجزة اخرى لا تكون من قبيل الكلام: «قَالَ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْبَدِّلْه قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تلقاءِ نفْسي إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحَى إلَيَّ»[1]. إنّها لم تكن معجزة للعرب فقط، وإنّما هي معجزة للبشرية عبر الخلود، لكن أنّى لأُمة جهلاء أن تلمس تلك الحقيقة وأن تُدرك تلك الواقعيّة سوى أنّها اقترحت عن سفه: أن يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل وعنب ويفجّر الانهار خلالها تفجيراً، أو يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء، ولايؤمنوا لرقيّه حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه... وقد عجب النبيّ (صلى الله عليه وآله) من مقترحهم ذلك التافه الساقط، ممّا يتناسب ومستواهم الجاهلي، ومن ثم رفض اقتراحهم ذاك «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلَّا بَشَراً رَسُولاً»[2]. أي ليس هذا من شأنكم وإنّما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

قال الراغب الاصفهاني: المعجزات التي أتى بها الانبياء (عليهم السلام) ضربان: حسّي وعقلي:

فالحسّي: ما يدرك بالبصر، كناقة صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم، وعصا موسى (عليهم السلام).

---

(١) يونس: ١٥.

(٢) الاسراء: ٩٣.

والعقلي: ما يدرك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم.

فأما الحسي: فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامّة، وآخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم، إلّا أنه لايكاد يفرق ـ بين ما يكون معجزة في الحقيقة، وبين مايكون كهانة أو شعبذة أو سحراً، أو سبباً اتفاقياً، أو مواطأة، أو احتيالاً هندسياً، أو تمويهاً وافتعالاً ـ إلّا ذوسعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء.

وأما العقلي: فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، والروية المتناهية، الذين يغنيهم، إدراك الحق.

وجعل تعالى أكثر معجزات بني اسرائيل حسيّاً لبلادتهم، وقلّة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأُمّة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

«كادت أُمتي تكون أنبياء»[١].

ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرّضة للنسخ، وكانت العقليات باقية غير متبدلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية. وما أتى به النبي (صلى الله عليه وآله) من معجزاته الحسيّة، كتسبيح الحصا في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاها أصحاب الحديث.

وأما العقليات: فمن تفكر فيما أورده (عليه السلام) من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأُمم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة.

ومما خصه الله تعالى به من المعجزات القرآن: وهو آية حسيّة عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر مبثوثة في الأرض، ولذلك قال تعالى: « وقالوا لَولا أُنزِلَ عليه آيات مِن رَبّه قُل إنّما الآياتُ عِندَالله وإنّما أنا نَذيرٌ مُبين. أوَ لَم يَكْفِهِم أنّا

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ٢٩٦.

أنزلنا عليكَ الكِتابَ يُتلىٰ عَليهم»[١] ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أُولي بسطة في البيان إلى معارضته، بنحو قوله «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله .وادعوا شهداءكم من دون الله»[٢] وفي موضع آخر: «وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[٣] وقال: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[٤]

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما أقصروا ، إذقد بذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوافيه» [٥] وتارة يقولون: «لونشاء لقلنا مثل هذا» [٦]، وتارة يصفونه بأنه «أساطير الأولين» [٧] وتارة يقولون «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» [٨] وتارة يقولون: «إئت بقرآن غير هذا أو بدله» [٩] كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه، ومحال أن يقال: إنه عورض فلم ينقل فالنفوس مهتزّة لنقل مادقّ وجلّ. وقدرأينا كتباً كثيرة صنّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت[١٠].

* * *

ويمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنّه يضمّ الى جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قُرن التشريع بإعجاز ووُحدّ بينهما، فكانت دعوة يرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

قال العلامة ابن خلدون: اعلم أنّ أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها

---

(١) العنكبوت: ٥٠ـ ٥١.
(٢) البقرة: ٢٣.
(٣) يونس: ٣٨.
(٤) الاسراء ٨٨.
(٥) فصلت: ٢٦.
(٦) الأنفال: ٣١.
(٧) النحل: ٢٤.
(٨) الفرقان: ٣٢.
(٩) يونس: ١٥.
(١٠) عن مقدمته على التفسير: ص١٠٢ ـ ١٠٤.

دلالةالقرآن الكريم المنزل على نبيّنا محمد (صلى الله عليه وآله).. فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبيّ ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى، وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولايفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لا تّحاد الدليل والمدلول فيه.

قال: وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وآله): «ما من نبيّ من الأنبياء إلّا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتيته وحياً أُوحي اليّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوّة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدّق المؤمن وهو التابع والأمّة [1].

* * *

وقال الجاحظ: بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله) أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشدّ ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجّة، فلمّا قطع العذر وازال الشبهة وصارالذي يمنعهم من الإقرار، الهوى والحميّة دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من عليّهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً الى أن يعارضوه إن كان كاذباً، بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلّما ازداد تحدّياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشّف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهرمنه ما كان خفيّاً، فحين لم يجدوا حيلة ولاحجّة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأُمم مالا نعرف، فلذلك يمكنك مالا يمكننا. قال: فهاتوها مفتريات، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلّفه، ولو تكلّفه لظهر

---

(١) المقدمة (السادسة): ص ٩٥.

ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدلّ ذلك العاقل على عجزالقوم، مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أُمّته، لأنّ سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق اتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال.

وهذا من جليل التدبير الذي لايخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور، ثمّ تحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمع هؤلاء كلّهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدّ الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيّد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة (مدة رسالته صلى الله عليه وآله) على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه[1].

التحدّي في خطوات:

لقد تحدّى القرآن عامة العرب، مذ نشأبين ظهرانيهم، وهم لمسوه بأناملهم فوجدوه صعباً على سهولته وممتنعا على يسره، فحاولوا معارضته ولكن

---

(١) الإتقان: ج ٤ ص ٥-٦. وله كلام تفصيلي آخر في إثبات إعجاز القرآن، ذكره في رسالته (حجج النبوّة): ص ١٤٤ فما بعدها. وقد نقله صاحب الإعجاز في دراسات السابقين: ص ١٥٨ - ١٦٢.

لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم عن مقابلته بالبيان.

وربّما كانوا بادئ ذي بدء استقلّوا من شأنه، حيث قالوا: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرِ الأَوَّلِينَ»[١] وقالوا: «إِنْ هَذا إلّا قَوْلُ الْبَشَر»[٢].

وقالوا: «إنّما يُعَلِّمُهُ بَشرٌ»[٣] وقالوا: «ما أنزَلَ الله علىٰ بشرٍ مِن شَيءٍ»[٤] إلىٰ امثالها من تعابير تنم عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ماتراجعت العرب على أعقابها، فانقلبوا صاغرين، وقد ملكتهم روعة هذا الكلام وطغت عليهم سطوته، متهكّماً بموقفهم هذا الفاشل، ومتحدّياً في مواضع.

«أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لايُؤْمنون. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إن كَانُوا صادقينَ»[٥]. وحدّد لهم لو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فيما كانوا يزعمون «أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُل فأْتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مفترياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ الله إن كُنْتُمْ صادقين فإنْ لَم يَستَجيبُوا لكمْ فَاعْلَمُوْا أَنَّما انْزِلَ بِعِلْمِ الله»[٦].

وتصاغراً من شأنهم تنازل أنْ لواستطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: «أَمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِن دون الله إن كُنتمْ صادقينَ. بَلْ كَذَّبُوْا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكِ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»[٧].

وأخيراً حكم عليهم حكمه الباتّ «فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»[٨] أن ليس باستطاعتهم ذلك مهما حاولوه وأعدّوا له من حول وقوّة، لأنه كلام يفوق كلام البشر كافّة.

والآن وقد حان إعلان التحدّي بصورته العامّة، متوجّهاً به الى البشرية

---

(١) الانفال: ٣١. (٢) المدثر: ٢٥. (٣) النحل: ١٠٣.
(٤) الأنعام: ٩١. (٥) الطور: ٣٣-٣٤. (٦) هود: ١٣-١٤.
(٧) يونس: ٣٨-٣٩. (٨) البقرة: ٢٤.

جمعاء، تحدّيا مستمراً عبر الأجيال: «قُل لئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْكَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»[١]

* * *

وهل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز، أم كان يخصّ جانب فصاحته وبلاغته وبديع نظمه وعجيب اسلوبه فحسب؟

ولعلّه يختلف حسب اختلاف الخطاب.. فحيث كان التحدّي متوجّهاً الى العرب خاصة، ولاسيّما ذلك العهد، الذي كانت مهنة العرب فيه خاصة بجانب البيان وطلاقة اللسان... فلاجرم كان التحدّي حينذاك أيضاً خاصّاً بهذا الجانب في ظاهرالخطاب...

أمّا وبعد أن توجّه النداء العامّ الى كافة البشريّة على الإطلاق، فإنّه لابدّ أن يقع التحدّي بمجموعة وجوه الإعجاز من حيث المجموع.. حيث اختلاف الاستعدادات والقابليّات... والقرآن معجزة الإسلام، لجميع الادوار وعامّة الأجيال، ولمختلف طبقات الناس، في الفنون والمعارف، والعلوم والثقافات..

التحدّي في شموله:

وهذاالتحدّي فيعمومه يشمل كلّ الأُمم وكلّ أدوار التأريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخرة حتى الأبد. اللفظ عامّ والخطاب شامل[٢] ولأنّ التحدّي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخصّ لغة العرب، وإنّما هو بمجموعته من كيفيّة الأداء والبيان والمحتوى جميعاً. كما أنّه

---

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) وبتعبير اصطلاحي أُصولي: أنّ هذا الخطاب يضمّ الى جانب عمومه الأفرادي إطلاقاً احوالياً وإطلاقاً زمانياً معاً، إذن فللخطاب شمول من النواحي الثلاث: الأفراد الموجودين والأقوام الذين يأتون من بعد. واياً كانت حالتهم وعلى أيّ صفةٍ كانوا...

لم يخصّ جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأوّل، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أنّ الفصاحةوالبلاغة لم تختصّ بلغة دون أُخرى ولا بأُمّة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدّي بالعهد الأوّل وإن كان الإعجاز باقياً مع الخلود زعماً بأنّ عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطي، قالت: مناط التحدي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، وأمّا حجة إعجازه فلا تخصّ عصراً دون عصر وتعمّ العرب والعجم، وكان عجز البلغاء من العصر الأوّل وهم أصل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضية التحدّي ...[1].

قلت: ولعلّها في ذهابها هذا المذهب، خشيت أن لوقلنا بأنّ التحدّي قائم ولايزال، أن سوف ينبري نائرة الكفر والإلحاد، ممّن لايقلّ عددهم في الناطقين بالضاد، فيأتي بحديث مثله، وبذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام!

لكنّها فلتطمئن أنّ هذا لن يقع ولن يكون، لأنّ القرآن وُضع على أُسلوب لايدانيه كلام بشر البتة ،ولن يتمكن أحد أن يجاريه لا تعبيراً وأداءً ولاسبكاً واسلوباً، مادام الإعجاز قائما بمجموعة اللفظ والمعنى، رفعة وشموخ في المحتوى، وجمال وبهاء في اللفظ والتعبير، فأيّ متكلّم أو ناطق يمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشريّة وفي هكذا قالب جميل! اللهمّ إلّا أن يفضح نفسه.

وفي التأريخ عِبَرٌ تؤثر عن أُناس حاولوا معارضة القرآن، لكنّهم أتوا بكلام لا يشبه القرآن ولايشبه كلام انفسهم، بل نزلوا الى ضرب من السخف والتفاهة، بادٍ عواره، باقٍ عاره وشناره، فمن حدّثته نفسه أن يعيد هذه التجربة،

(١) الإعجاز البياني: ص٦٥ ـ ٦٨.

فلينظر في تلك العبر، ومن لم يستحِ فليصنع ماشاء.

وتلك شهادات من أهل صناعة الأدب، اعترفوا ـ عبر العصور ـ بأنّ القرآن فذّ في أُسلوبه لايمكن لأحد من الناس أن يقاربه فضلاً عن أن يماثله.

قال الدكتور عبدالله دراز: من كانت عنده شبهة، زاعماً أنّ في الناس من يقدر على الإتيان بمثله، فليرجع الى أدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فإن قالوا: نعم، لونشاء لقلنا مثل هذا، فليقل لهم: هاتوا برهانكم. وإن قالوا: لاطاقة لنا به. فليقل لهم: أيّ شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز. ثم ليرجع الى التأريخ فليسأله مابال القرون الأُولى؟ ينبئك التأريخ أنّ أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، وأنّ بضعة النفر الذين انغضوا رؤوسهم اليه، باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان[1].

التحدّي بفضيلة الكلام:

قد يقول قائل: إنّ صناعة البيان ليست في الناس بدرجة واحدة، وهي تختلف حسب اختلاف القرائح والـمُعطَيات، ولكلّ إنسان مواهبه ومعطياته. وكلّ متكلّم أو كاتب إنّما يضع في بيانه قطعة من عقله ومواهبه، ومن ثم يختلف الناس في طرق التعبير والأداء، ولا يمكن أن يتشابه اثنان في منطقهما وفي تعبيرهما، اللهمّ إلّا إذا كان عن تقليد باهت.

إذن فكيف جاز تحدّي الناس لو يأتوا بحديث في مثل القرآن، وهم عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟!

لكن غير خفي أنّ لشرف الكلام وضعته مقاييس، بها يعرف ارتفاع شأن الكلام وانحطاطه وقد فصّلها علماء البيان، وبها تتفاوت درجات الكلام ويقع

---

(١) النبأ العظيم: ص٧٥.

بها التفاضل بين انحائه من رفيع او وضيع، نعم وإن كانت القرائح والمعطيات هي المادّة الأُولى لهذا التفاوت، ولانماري أن يكون كلام كلّ متكلّم هي وليدة فطرته وحصيلة مواهبه ومعطياته، بحيث لايمكن مشاركة أي أحدفيما تمليه عليه ذهنيّته الخاصّة، لكن ذلك لايوهن حجّتنا في التحدّي بالقرآن، لأنّا لانطالبهم أن يأتوا بمثل صورته الكلاميّة، كلّا، وإنّما نطلب كلاماً ـ أيّاً كان نمطه واسلوبه ـ بحيث إذا قيس مع القرآن، بمقياس الفضيلة البيانيّة، حاذاه أو قاربه، على شاكلة مايقاس كلمات البلغاء بعضهم مع بعض، وهذا هوالقدر الذي يتنافس فيه الأُدباء، ويتماثلون أو يتقاربون، لا شيء سواه.

وقد أشار السّكاكي الى طرف من تلك المقاييس التي هي المعيار لارتفاع شأن الكلام وانحطاطه، قال ـ بعد أن ذكر أن مقامات الكلام متفاوتة، ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حدّ ينتهي إليه الكلام مقام ـ: وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك، بحسب مصادفة الكلام لما يليق به.

قال: فحسن الكلام تحلّيه بشيء من هذه المناسبات والاعتبارات بحسب المقتضى، ضعفاً وقوّةً على وجه من الوجوه (التي يفصّلها في فني المعاني والبيان)

ويقول ـ بعد ذلك ـ: وإذ قد تقرّر أنّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال والاعتبار المناسب، وعلى لا انطباقه، وجب عليك ـ أيّها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك، المتفحّص عن تفاصيل المزايا التي بهايقع التفاضل، وينعقد بين البلغاء في شأنها التسابق والتناضل ـ أن ترجع الى فكرك الصائب، وذهنك الثاقب، وخاطرك اليقظان، وانتباهك العجيب الشأن، ناظراً بنور عقلك، وعين بصيرتك، في التصفّح لمقتضيات الأحوال، في إيراد المسند إليه على كيفيّات مختلفة، وصور متنافية، حتى يتأتّى بروزه عندك لكلّ منزلة في معرضها، فهو الرهان الذي يجرّب به الجياد، والنضال الذي يعرف به الأيدي الشداد فتعرف أيّما حال

يقتضي كذا... وأيّما حال يقتضي خلافه... الخ[١].

وعليه فتزداد قوّة الكلام وصلابته وكذاروعة البيان وصولته، كلّما ازدادت العناية بجوانبه اللفظية والمعنويّة من الاعتبارات المناسبة، ورعاية مقتضيات الأحوال والاوضاع، وملاحظة مستدعيات المقامات المتفاوتة، على مافصّله القوم. وقلّ من يتوفّق لذلك بالنحو الأتمّ أوالأفضل، بل الأكثر، مادام الإنسان حليف النسيان. أمّا بلوغ الأقصى والكمال الأوفى، الذي حدّ الإعجاز، فهو خاصّ بذي الجلال المحيط بكلّ الأحوال.

وفي ذلك يقول السكّاكي: «البلاغة تتزايد الى أن تبلغ حدّ الإعجاز، وهو الطرف الأعلى ومايقرب منه»[٢]. ومنه أخذ الخطيب القزويني: «وللبلاغة في الكلام طرفان، أعلى وهو حدّ الاعجاز ومايقرب منه. وأسفل وهو ما إذا غيّرالكلام الى مادونه التحق عندالبلغاء بأصوات الحيوانات»[٣].

إذن فالطرف الأعلى ومايقرب منه، كلاهما حدّ الإعجاز، على ماحدّده السّكاكي، وبذلك يكون اختلاف مراتب آيات القرآن في الفصاحة والبيان، كلّه داخلاً في حدّ الإعجاز الذي لا يبلغه البشر. وهذا هو الصحيح، على ماسنبيّن.

وبعد، فالمتلخّص من هذا البيان: أن التفاضل بين كلامين أو التماثل بينهما إنّما يتحقّق بهذه الاعتبارات ـ التي هي مقاييس لدرجة فضيلة الكلام ـ وهي من قبيل المعنى أكثر من كونها من قبيل اللفظ، فليس المقصود بالتحدّي، المعارضة في التشاكل اللفظي والتماثل في صورة الكلام فحسب، كما حسبه مسيلمة الكذّاب ومن حذا حذوه من أغبياء القوم.

---

(١) مفتاح العلوم: ص ٨٠ـ ٨١ وص ٨٤.

(٢) مفتاح العلوم: ص١٩٦ـ ١٩٩.

(٣) المطول للتفتازاني: ص٣١ (ط استنبول).

سرّ الإعجاز

وجوه الإعجاز في مختلف الآراء والنظرات:

اختلفت أنظار العلماء في وجه إعجاز القرآن، بين من أنهاه الى عدّة وجوه ومن اقتصر على وجه واحد، ولا يزال البحث مستمرّاً عن هذا السرّ الذي هو دليل الاسلام:

١ـ ذهب أرباب الأدب والبيان الى أنها الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقة، إن في بديع نظمه أو في عجيب رصفه، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل..

قد نُضّدت عباراته نضداً مؤتلفاً، ونظمت فرائده نظماً متلائماً، وُضعت كلّ لفظة منه في موضعها اللائق بها، ورصفت كلّ كلمة منه الى كلمات تناسبها وتوائمها، وضعاً دقيقاً ورصفاً تامّاً، يجمع بين أناقة التعبير وسلاسة البيان، وجزالة اللفظ وفخامة الكلام، حلواً رشيقاً وعذباً سائغاً، يستلذّه الذّوق ويستطيبه الطبع... ممّا يستشفّ عن إحاطة واسعة ومعرفة كاملة بأوضاع اللّغة ومزايا الألفاظ والكلمات والتعابير... ويقصر دونه طوق البشر المحدود!

قالوا في دقة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة ثم أُدير بها لغة العرب كلّها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاصّ، لم توجد البتة..

٢ـ وزادوا: جانب أُسلوبه البديع وسبكه الجديد على العرب، لا هو شعر كشعرهم، ولا هو نثر كنثرهم، ولا فيه تكلّف أهل الكهانة والسجع. قد جَمَعَ

مزايا أنواع الكلام: فيه اناقة الشعر، وطلاقة النثر، وجزالة السجع الرصين، في حلاوة وطلاوة وزهو وجمال: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة ... وانه يعلو وما يُعلى. كلام قاله عظيم العرب وفريدها الوليد ....

أو كما قال الراغب: القرآن حاوٍ لمحاسن أنواع الكلام بنظم ليس هو نظم شيء منها.

٣- وتوسّع المحدّثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب:

أنغام وألحان تبهر العقول وتُذهل النفوس، نظّمت كلماته على أنظمة صوتية دقيقة، ورصفت ألفاظه وعباراته على ترصيفات موسيقيّة رقيقة، متناسبات الأجراس، متناسقات التواقيع، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنّة وجذبة شعريّة عجيبة، واستهواء سحريّ غريب!

٤- واضاف المحقّقون جانب اشتماله على معارف سامية وتعاليم راقية تنبئك عن لطيف سرّ الخليقة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وجمال وعظمة وكبرياء، بما يترفّع كثيراً عمّا راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواءٌ في أوساط أهل الكتاب أم الوثنيّين.

٥- وهكذا تشريعاته جاءت حكيمة ومتينة، متوافقة مع الفطرة ومتوائمة مع العقل السليم... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في النشأتين.

٦- وكانت براهينه ساطعة ودلائله ناصعة، واضحة ولائحة، قامت على صدق الدعوة وإثبات الرسالة... في بيان رصين ومنطقٍ رزين وفصل خطاب.

٧- واشتمالُه على أنباء غيبيّة، إمّا سالفة كانت محرّفة سقيمة، فجاءت محرّرة سليمة في القرآن الكريم، أو إخبار عمّا يأتي، تحقّق صدقها بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.

٨- الى جنب إشارات علميّه، عابرة، الى أسرار من هذا الكون الفسيح،

والماعات خاطفة الى حقائق من خفايا الوجود، ممّا لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان العائش يومذاك .

٩ - وأخيراً استقامته في البيان، وسلامته من أيّ تناقض أو اختلاف، في طول نزوله، وكثرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كل مشتمل على مزيّة ذات حكمة لا توجد في أختها. وكذا خلّوه عن الأباطيل وعمّا لا طائل تحتها.

تلك روائع آراء نتجتها أنظار الأُدباء، وبدائع أسرار وصلت إليها أفكار العلماء، كانت من وجوه إعجاز القرآن ومزاياه الوسيمة، سوف نسرد عليك تفاصيلها في مجالها الآتي إن شاء الله.

١٠ـ لكن هناك وجه آخر يجعل من الإعجاز أمراً خارجيّاً عن جوهر القرآن بعيداً عن ذاته، وإنّما هو لعجز أحدثه الله في أنفس العرب والناس جميعاً، ومنعهم دون القيام بمعارضته قهراً عليهم. وهوالقول بالصرفة، الذي عليه بعض المتكلّمين الأوائل ومن لفّ لفّهم من الكتّاب الأُدباء.

وسنتعرض لتفنيده وتزييفه على منصّة البحث والاختبار، بعونه تعالى.

وبعد، فإليك تفصيل آراء ونظرات حول إعجاز القرآن، من القدماء والمحدثين، لها قيمتها في عالم الاعتبار.

آراء ونظرات عن إعجاز القرآن

أوّلاً: في دراسات السابقين:

هناك للعلماء ـ سلفاً وخلفاً ـ بحوث ودراسات وافية حول مسألة إعجاز القرآن، منذ مطالع القرون الأُولىٰ فإلى هذا الدور، ولهم كلمات ومقالات ضافية عن وجه هذا الإعجاز المتحدّي به من أوّل يومه، ولا يزال مستمرّاً عبر الخلود. ولهذه الأبحاث والدراسات قيمتها ووزنها العلمي النظري في كلّ عصر وفي كل دور، وأنّ الفضل يرجع الى الأسبق ممّن فتح هذا الباب وأسّس أساس هذا البنيان، فكان من يأتي من بعد، إنّما يجري على منواله ويضرب على ذات وتره، مهما تغيّر اللون أو تنوّع الاسلوب ... ونحن نقدّم من آراء من سلف الأهم منها فالأهم، ثم نعقبها بطرف من آراء المتأخّرين ممّن قاربنا عصره، واليك:

١ ـ رأي أبي سليمان البُستي:

يرى أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابي البُستي[1] (توفي سنة ٣٨٨ هـ) في رسالته الوجيزة التي وضعها في بيان إعجاز القرآن ـ قيل: هو أسبق من

---

(١) نسبة الى بُست ـ بضمّ الباء الموحّدة ـ مدينة من بلاد كابل كان محلّ اقامته. وينتهي نسبه الى زيد بن الخطّاب أخي عمر بن الخطّاب، أديب لغويّ ومحدّث كبير. قيل: هو أوّل من كتب في الإعجاز.. لكنهم ذكروا لأبي عبيدة معمّر بن المثنى (توفّي سنة ٢٠٩ هـ) كتاباً في جزءين في إعجاز القرآن كما ذكروا لأبي عبيد القاسم بن سلام (توفّي سنة ٢٢٤ هـ) كتاباً في إعجاز القرآن. (راجع مقدّمة ثلاث رسائل في الإعجاز. والتمهيد ج١ ص٨). وذكر ابن النديم لمحمّد بن زيد الواسطي (توفي سنة ٣٠٧ هـ) ـ وهو من جلّة المتكلّمين وكبارهم صاحب كتاب «الإمامة» كتاباً في إعجاز القرآن. ويقال: إنّه أوّل من فصّل الكلام في هذا المجال. (راجع: الفهرست: عند كلام عن الكتب المؤلّفة في علوم القرآن ص٦٣ وعند كلامه عن المتكلّمين على مذهب الاعتزال ص٢٥٩، والذريعة: ج٢
←

توسّع في هذا البحث فأفاد وأجاد ـ: أنّ الإعجاز قائم بنظمه ذلك المتّسق البديع ورصفه ذلك المؤتلف العجيب، قد وضعت كلّ كلمة في موضعها اللائق بدقة فائقة، ممّا يستدعي إحاطة شاملة تعوزها البشريّة على الإطلاق، الأمر الذي أبهر وأعجب، قال:

قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول وما وجدناهم بعد صدروا عن ريٍّ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيّته. فأمّا أن يكون قد نقبت في النفوس نقبة[1] بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله على حال، فلا موضع لها. والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج الى أن ندلّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله الى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قد تحدّى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقي (صلّى الله عليه وآله) يطالبهم به مدّة عشرين سنة، مظهراً لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفّهاً آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال..

.. ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلّفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة[2] ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، الى الحزن الوعر من الفعل[3].

هذا مالا يفعله عاقل ولا يختاره ذولبّ. وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء

ص٢٣٢ رقم ٩١٧).

(١) اي ألقيت في النفوس إلقاء. وهو قول قريب من القول بالصرفة، ومن ثمّ رفضه.

(٢) الفاقرة: الداهية. والإبارة: الإهلاك.

(٣) الدماثة: السهولة. يقال: أرض دمث أي ذلول، ضد الحزونة والوعورة.

المصاقع والشعراء المفلّقون[١] وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد، فقال سبحانه: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»[٢]. وقال سبحانه: «وتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً»[٣] فكيف كان يجوز ـ على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة ـ أن يغفلوه ولايهتبلوا الفرصة فيه[٤] وأن يضربوا عنه صفحاً، ولا يجوزوا الفلح والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه.

قال: وهذا ـ من وجوه ما قيل فيه ـ أبيَنُها دلالةً وأيسرها مؤونةً. وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفيّة وجه الإعجاز فيه[٥].

* * *

ثمّ أخذ في بيان مذاهب أُخر في بيان وجه الإعجاز، قال: وذهب قوم الى أنّ العلّة في إعجازه الصّرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، غير معجوز عنها، إلّا أنّ العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات... قال: وهذا أيضاً وجه قريب، الّا أنّ دلالة الآية تشهد بخلافه، قال سبحانه: «قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِن عَلَى أن يَأتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآن لاَيَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْكَانَ بَعْضهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»[٦] فأشار في ذلك الى أمر طريقه التكلّف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصّرفة التي وصفوها لايلائم هذه الصفة، فدلّ على أنّ المراد غيرها، والله أعلم.

* * *

قال: وزعمت طائفة أنّ إعجازه إنّما هو فيما يتضمّنه من الاخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، نحو قوله سبحانه: «وهم مِن بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

---

(١) المصقع: البليغ. وشاعر مفلّق ـ بزنة اسم الفاعل ـ مبدع. (٢) الزخرف: ٥٨.

(٣) مريم: ٩٧. (٤) اهتبال الفرصة: اغتنامها.

(٥) اي وهذا أيسر الوجوه لمن اراد الإقتناع النفسي ولو تقليداً وليس تحقيقاً. (٦) الاسراء: ٨٨.

فِي بِضْعِ سِنِين»[١] وكقوله سبحانه: «قُل لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَاسٍ شَدِيدٍ»[٢] ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها... قلت: ولايشك في أنّ هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه،ولكنّه ليس بالأمر العامّ الموجود في كلّ سورة من سورالقرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كلّ سورة أن تكون معجزة بنفسها، لايقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»[٣]. من غير تعيين، فدلّ على أنّ المعنى فيه غير ماذهبوا إليه.

وزعم آخرون أنّ إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيّتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال. ووجدت عامّة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة القرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظنّ دون التحقيق له وإحاطة العلم به. ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميّز به عن سائر انواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنّه لايمكننا تصويره ولاتحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام. قالوا: قد يخفى سببه (سبب التفاضل بين كلامين) عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به.

قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علّة..

.. قلت: وهذا لايقنع في مثل هذا العلم، ولايشفي من داء الجهل به، وإنّما هو إشكال أُحيل به على إبهام.

---

(١) الروم: ٣. (٢) الفتح: ١٦. (٣) البقرة: ٢٣.

وبذلك ينتهي الى إبداء رأيه الأخير في وجه الإعجاز، قائلاً:

فأمّا من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلّة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فإنّه يقول: إنّ الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه، ومايتحلّى به من الرونق والبهجة، التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح من أجله الألسن على أنّه كلام لايشبهه كلام، وتحصر الاقوال عن معارضته، وتنقطع به الاطماع عنها، أمرٌ لابدّ له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحقّ هذا الوصف.

قال: وقد استقرأنا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس، ويطرد على المعايير. فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه، فدلّ النظر وشاهد العبر على أنّ السبب له والعلّة فيه: انّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون الهجين المذموم، الذي لايوجد في القرآن شيء منه البتة.

فالقسم الأوّل أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والقسم الثاني أوسطه وأقصده. والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصةً، وأخذت من كلّ نوع من أنواعها شعبةً، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الإنفراد في نعوتها كالمتضادّين، لأنّ العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبوّ كلّ

واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ بها القرآن.

* * *

قال: وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأمور، منها: أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربيّة وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الاشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لا ستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصّلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، الى أن يأتوا بكلام مثله.

.. وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً و اشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

.. وأمّا المعاني فلاخفاء على ذي عقل، أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقّي الى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام، فأمّا أن توجد مجموعة في نوع منه، فلم توجد إلّا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكلّ شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

* * *

قال: فتفهّم الآن وأعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمّناً أصحّ المعاني، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء الى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم وحظروإباحةٍ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد الى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كلّ شيء منها موضعه الذي لايرى شيء أولى منه، ولايرى في صورة العقل أمر أليق منه. مودعاً أخبار القرون الماضية ومانزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن

الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجّة والمحتجّ له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

.. ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتّسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله. ثم صار المعاندون له يقولون مرة: انّه شعر، لمّا رأوه كلاماً منظوماً، ومرّةً سحر، إذرأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه، وقدكانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس، يريبهم ويحيّرهم فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف.

.. وكيفما كانت الحال ودارت القصّة، فقد حصل باعترافهم قولاً، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً، أنّه معجز. وفي ذلك قيام الحجّة وثبوت المعجزة، والحمدلله[١].

* * *

وأضاف ـ قائلاً ـ إعلم أنّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، غير أنّ الأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأنّ لكلّ لفظة منها خاصيّة تتميّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها... ومن هنا تهيّب كثير من السلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه، حذراً أن يزلّوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللسان،

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرسالةالأولى للخطابي: ص٢١ - ٢٩.

فقهاء في الدين.

.. فإذ قد عرفت هذه الأُصول، تبيّنت أنّ القوم إنّما كاعوا[١] وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعّدهم منه، وقد كانوا بطباعهم يتبيّنون مواضع تلك الاُمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها، ويعلمون أنّهم لايبلغون شأوها[٢] فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم، فكان حظّهم ممّا فرّوا إليه حظّهم ممّا فزعوا منه، فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين، والحمدلله ربّ العالمين[٣].

* * *

وقال ـ في خاتمة الرسالة ـ: في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلايكاد يعرفه إلّا الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فانّك لاتسمع كلاماً غيرالقرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق. تقشعرّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوّ للرسول (صلّى الله عليه وآله) من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأوّل، وأن يركنوا الى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً.

بعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليواقفوه على امور أرسلوه بها فقرأ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) آيات من حم

---

(١) كاع عن الشيء: هابه وخاف عن مقابلته.

(٢) الشأو: الأمد، الغاية.

(٣) المصدر: ص ٢٩ ـ ٣٥.

السجدة، فلّما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش، قالوا: أقبل أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به[١].

ولـمّا قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا الى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلّا وفيه قرآن[٢]. وقد روي عن بعضهم أنّه قال: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن.

ولما سمعته الجنّ لم تتمالك أن قالت: «إنّا سَمِعْنا قرآناً عجباً. يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ»[٣].

ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: «لَوْ أنْزَلْنا هَذا القرآن عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله»[٤].

وفي قوله: «اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتشابهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ الله»[٥].

وقال سبحانه: «أوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكتاب يُتْلَى عَلَيْهِمْ»[٦].

وقال سبحانه: «وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَاناً»[٧].

وقال سبحانه: «وَإذا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ»[٨].

في آي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. وهو من عظيم آياته ودلائل معجزاته[٩]...

٢ـ اختيار ابن عطيّة:

ولأبي محمد عبدالحقّ بن غالب المحاربي الغرناطي، الفقيه المفسّر (توفي سنة

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٤.
(٢) المصدر: ج٢ ص٧٠.
(٣) الجنّ: ١ـ٢.
(٤) الحشر: ٢١.
(٥) الزمر: ٢٣.
(٦) العنكبوت: ٥١
(٧) الأنفال: ٢.
(٨) المائدة: ٨٣.
(٩) ثلاث رسائل في الإعجاز: ص ٧٠ـ ٧١.

٥٤٢) اختيار يشبه اختيار أبي سليمان البُستي، ولعلّه اختزال منه، ذكره في مقدّمة تفسيره (المحرّر) ونقله الإمام بدرالدين الزركشي، مع تصرّف واختصار..

قال ابن عطيّة: إنّ الذي عليه الجمهور والحذّاق، وهو الصحيح في نفسه، أنّ التحدّي إنّما وقع بنظمه، وصحّة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه علماً، فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن علم ـ بإحاطته ـ أيّ لفظة تصلح أن تلي الأُولى، ويتبيّن المعنى دون المعنى، ثمّ كذلك من أوّل القرآن الى آخره. والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورةً أنّ بشراً لم يكن قطّ محيطاً، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إنّ العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فلمّا جاءهم محمّد (صلى الله عليه وآله) صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه! والصحيح أنّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر، في أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لايزال ينقّحها حولاً كاملاً، ثم تعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدّل فيها وينقّح، ثمّ لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله سبحانه لونزعت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد، ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام.

قال: وقامت الحجة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة وفطنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطبّاء، وفي معجزة موسى بالسحرة، فإنّ الله تعالى إنّما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع مايكون في زمن النبيّ الذي أراد اظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى الى

غايته، وكذلك الطبّ في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد(صلى الله عليه وآله)[١].

٣ـ رأي عبدالقاهر الجرجاني:

يرى الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني (توفي سنة ٤٧١ هـ) ـ وهو الواضع الأوّل لأُسس علمَي المعاني والبيان ـ: أنّ إعجاز القرآن الذي تحدّى به العرب قائم بجانب فصاحته البالغة وبلاغته الخارقة، وباسلوب بيانه ذلك البديع، ممّا هو شأن نظم الكلام وتأليفه في ذلك التناسق والتلاؤم العجيب. الأمر الذي لايمسّ شيئاً من معاني القرآن وحِكَمه وتشريعاته، وهي كانت موجودة من ذي قبل في كتب السالفين، وقد أطلق لهم المعاني من أيّ نمط كانت.

وقد وضع كتابيه (أسرارالبلاغة) و(دلائل الإعجاز) تمهيداً لبيان وجوه إعجاز القرآن لمن مارس أسرار هذا العلم. وثلّثهما برسالته (الشافية) التي خصّصها بالكلام حول إعجاز القرآن والإجابة على أسئلة دارت حول الموضوع.

قال ـ في مقدمة كتابه دلائل الإعجاز، بعد أن أشاد بشأن النظم في الكلام وتأليفه وتنسيقه ـ :وإذا كان ذلك كذلك ، فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الاُمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم، موجودة على حقائقها وعلى الصّحة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه، ورأيناهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها وكملوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدل ولا يختلف بها الحال، إذ لايكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخر..

.. فما هذا الإعجاز الذي تجدّد بالقرآن من عظيم مزيّة، وباهر الفضل،

---

(١) المحرّر الوجيز المقدمة ج ١ ص ٧١ ـ ٧٢ وراجع الزركشي في البرهان ج ٢ ص ٩٧.

والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبةً، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقدر، وقيّد الخواطر والفكر، حتى خرست الشقاشق[١] وعدم نطق الناطق وحتى لم يجر لسان، ولم يبن بيان، ولم يساعد إمكان، ولم ينقدح لأحد منهم زند، ولم يمض له حدّ، وحتى أسال الوادي عليهم عجزاً، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً؟

.. أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نطبّ لدائه، ونزيل الفساد عن رائه[٢]؟ فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه (يريد نفس كتاب دلائل الإعجاز) ويستقصي التأمّل لما أودعناه...[٣].

وكرّ في الكتاب قائلاً: وإنّه كما يفضل النظم النظم، والتأليف التأليف، والنسج النسج، والصياغة الصياغة، ثم يعظم الفضل، وتكثر المزيّة، حتى يفوق الشيء نظيره، والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدّم منه الشيء الشيء، ثمّ يزداد من فضله ذلك، ويترقّى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرقباً بعد مرقب ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي الى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى وتستوي الاقدام في العجز...[٤].

ثم قال: واعلم أنّه لاسبيل الى أن تعرف صحّة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي الى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك، إلّا أنّ هاهنا نكتة، إن أنت تأمّلتها تأمّل المتثبّت، ونظرت فيها نظر

---

(١) الشقاشق: جمع شقشقة ـ بكسر الشين ـ وهي لهاة البعير أو شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج ويقال للفصيح: هدرت شقاشقه، يريدون الانطلاق في القول وقوّة البيان ويقال في مقابل ذلك: خرست شقاشقه.

(٢) الراء: الرأي.

(٣) في مقدمة دلائل الإعجاز: ص (ف ـ ص). (٤) دلائل الإعجاز: ص ٢٥ ـ ٢٦.

المتأنّي، رجوت أن يحسن ظنك، وأن تنشط للإصغاء الى ما أورده عليك، وهي: إنّا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنّهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدّوا الى معارضته، سمعوا كلاما لم يسمعوا قط مثله، وأنّهم قد رازوا أنفسهم[١] فأحسّوا بالعجز على أن يأتوا بمايوازيه أو يدانيه، أو يقع قريباً منه، لكان محالاً أن يدّعوا معارضته وقد تحدّوا إليه، وقرعوا فيه، وطولبوا به، وأن يتعرضوا لشبا الأسنّة[٢] ويقتحموا موارد الموت...

فقيل لنا: قد سمعنا ماقلتم، فخبّرونا عنهم، عمّاذا عجزوا، أعَن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟.. فإن قلتم: عن الألفاظ، فماذا أعجزهم من اللفظ، أم بهرهم منه؟..

فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجة و برهان، وصفة وتبيان وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبوبها مكانها ولفظة ينكر شأنها، أويرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهرالعقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم لوحك بيافوخه السماء[٣] موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول وخلدت القروم[٤]. فلم تملك أن تصول...[٥].

---

(١) يقال: راز الحجر أي وزنه ليعرف ثقله: وراز الرجل: جرّب ماعنده ليختبره.

(٢) الشبا: جمع شبوة، وهي ابرة العقرب، وحدّ كلّ شيء.

(٣) اليافوخ: مقدّمة الدماغ في الرأس وهو مثل يضرب لمن يستعلي و يتكبّر.

(٤) القرم ـ بالفتح ـ: الفحل إذا ترك عن الركوب والعمل.

(٥) دلائل الاعجاز: ص ٢٧ ـ ٢٨.

ويعقب ذلك بأنّ هذه كانت دلائل إعجاز القرآن، ومزايا ظهرت في نظمه وسياقه، بهرت العرب الأوائل، فهل ينبغي للفتى الذكي العاقل أن يكون مقلّداً في ذلك، أم يكون باحثاً ومتتبعاً كي يعلم ذلك بيقين؟

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حقّقوا لم يحقّقوا[١]

ومن ثمّ وضع كتابه الحاضر (دلائل الإعجاز) ليدلّ الناشدين على ضالّتهم، ويضع يدهم على مواقع الإعجاز من القرآن، ويدعم مدعاه في ذلك بالحجة والبرهان. والرائد لا يكذب أهله. قال: وبذلك قد قطعت عذر المتهاون، ودللت على ما أضاع من حظّه، وهدايته لرشده...[٢].

وقال ـ في رسالته الشافية ـ: كيف يجوز أن يظهر في صميم العرب وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية والأنفة والحمية من يدّعي النبوّة ويقول: وحجّتي أنّ الله قد أنزل عليّ كتاباً تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه، إلّا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولابعشر سوَر منه ولابسورة واحدة، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجنّ والإنس. ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبيّنوا سرفه في دعواه، لو كان ممكناً لهم، وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته حدّاً تركوا معه أحلامهم وخرجوا عن طاعة عقولهم، حتى واجهوه بكلّ قبيح ولقوه بكلّ أذىً ومكروه ووقفوا له بكلّ طريق. وهل سمع قطّ بذي عقل استطاع أن يخرس خصمه بكلمة يجيبه بها، فيترك ذلك الى أُمور ينسب معها الى ضيق الذرع وأنّه مغلوب قد أعوَزته الحيلة وعزّ عليه المخلص، وهل مثل هذا إلّا مثل رجل عرض له خصم فادّعى عليه دعوى خطيرة وأقام على دعواه بيّنة، وكان عند المدّعى عليه ما يبطل تلك البيّنة أو يعارضها، فيترك إظهار ذلك ويضرب عنه الصفح جملة، ليصير الحال بينهما الى جدال عنيف وإخطار بالمهج والنفوس .... قال: هذه شهادة الأحوال، وأما شهادة الأقوال فكثيرة...[٣].

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي. (٢) دلائل الاعجاز: ص٢٩.

(٣) الشافية، المطبوعة ضمن ثلاث رسائل: ص١٢٠-١٢٢.

ثم قال ـ في وجه التحدّي ـ: لم يكن التحدّي الى أن يعبّروا عن معاني القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه ونظم يوازي نظمه، هذا تقدير باطل. فإنّ التحدّي كان الى أن يجيئوا، في أيّ معنى شاؤوا من المعاني، بنظم يبلغ نظم القرآن، في الشرف أو يقرب منه. يدلّ على ذلك قوله تعالى: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مفتريات»[1] أي مثله في النظم، وليكن المعنى مفترىً لما قلتم. فلا الى المعنى دعيتم، ولكن الى النظم...[2].

قال: ويجزم القول بأنهم تحدّوا الى أن يجيئوا في أيّ معنى أرادوا مطلقاً غير مقيّد، وموسّعاً عليهم غير مضيّق، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك[3].

٤ ـ رأي السكاكي:

يرى أبو يعقوب، يوسف بن محمد بن علي السكاكي، صاحب مفتاح العلوم، (توفي سنة ٥٦٧)، أنّ الإعجاز في القرآن أمر يمكن دركه ولا يمكن وصفه، والمدرك هو الذوق، الحاصل من ممارسة علمَي الفصاحة والبلاغة وطول خدمتهما لا غير. فقد جعل للبلاغة طرفين، أعلى وأسفل وبينهما مراتب لا تحصى. والدرجة السفلى هي التي إذا هبط الكلام عنها شيئاً التحق بأصوات الحيوانات، ثم تتزايد درجة درجة متصاعدة، حتى تبلغ قمّتها وهو حدّ الإعجاز، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه... فقد جعل من الدرجة القصوى وما يقرب منها كليهما من حدّ الإعجاز.

ثم قال بشأن الإعجاز: واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة. ومدرك الإعجاز ـ عندي ـ هو الذوق ليس إلّا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العِلمين (المعاني والبيان)...

---

(١) هود: ١٣.

(٢) و(٣) الشافية: ص١٤١ و١٤٤.

ثمّ أخذ في تحديد البلاغة وإماطة اللثام عن وجوهها المحتجبة، وكذا الفصاحة بقسميها اللفظيّ والمعنويّ، وضرب لذلك مثلاً بآية «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ...»[١] وبيان جهاتها الأربع من جهتي المعاني والبيان، وهما مرجعا البلاغة، ومن جهتي الفصاحة المعنويّة واللفظيّة وأسهب في الكلام عن ذلك، وقال ـ أخيراً ـ: ولله درّ التنزيل، لا يتأمّل العالم آية من آياته، إلّا أدرك لطائف لا تسع الحصر[٢].

وغرضه من ذلك: أنّ لحدّ الإعجاز ذروة لا يبلغها الوصف، ولكن يمكن فهمها ودرك سنامها، بسبب الإحاطة بأسرار هذين العلمين، فهي حقيقة تدرك ولا توصف.

٥ـ رأي الراغب الإصفهاني:

لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الإصفهاني (توفي سنة ٥٠٢) صاحب كتاب المفردات، رأي في إعجاز القرآن يخصّه، أنّه يرى من الإعجاز قائماً بسبكه الخاصّ الذي لم يألفه العرب لحدّ ذاك، فلا هو نثر كنثرهم المعهود، لأنّ فيه الوزن والقافية وأجراس النغم. ولا هو شعر، لأنّه لم يجر مجرى سائر أشعار العرب ولا على أوزانها المعروفة وإن كانت له خاصّية الشعر، من التأثير في النفس بلحنه الشعريّ النغميّ الغريب.

قال ـ بعد كلام له في وصف إعجاز القرآن قدّمناه آنفاً ـ:

وهذه الجملة المذكورة، وإن كانت دالّة على كون القرآن معجزاً، فليس بمقنع إلّا بتبيين فصلين:

أحدهما: أن يبين ما الذي هو معجز: اللفظ أم المعنى أم النظم؟ أم ثلاثتها؟ فإن كل كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة.

---

(١) هود: ٤٤ وسنذكرها في ج٥ ص٧٦.

(٢) مفتاح العلوم: ص١٩٦ـ ١٩٩.

والثاني: أن المعجز: هو ماكان نوعه غير داخل تحت الإمكان، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام.

فأما ماكان نوعه مقدوراً، فحلّه محل الأفضل وماكان من باب الأفضل في النوع فإنه لايحسم نسبة مادونه إليه. وإن تباعدت النسبية حتى صارت جزءً من ألف، فإن النجار الحاذق وإن لم يبلغ شأوه لايكون معجزاً إذا استطاع غيره جنسَ فِعْلِه، فنقول وبالله التوفيق:

إن الإعجاز في القرآن على وجهين: أحدهما: إعجاز متعلق بفصاحته، والثاني: بصرف الناس عن معارضته.

فأما الإعجاز المتعلّق: بالفصاحة: فليس يتعلّق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى، وذاك أنّ ألفاظه ألفاظهم، ولذلك قال تعالى: «قُرآناً عَربياً»[1] وقال: «الم ذٰلكَ الكِتابُ»[2] تنبيهاً أن هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التي هي مادّة الكلام.

ولا يتعلّق أيضاً بمعانيه، فإن كثيراً منها موجود في (الكتب المتقدمة) ولذلك قال تعالى: «وإنّهُ لَفي زُبُرِ الأوّلين»[3] وقال: «أوَلَم تأتِهم بيّنةما في الصُّحفِ الأُولىٰ»[4]. وما هو معجز فيه من جهة المعنى، كالإخبار بالغيب، فاعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن، بل هو لكونه خبراً بالغيب، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره، وسواء كان موردأ بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أُخرى، أو بإشارة أو بعبارة.

فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً، والخطبة خطبة.

فالنظم صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لابعنصره، كالخاتم والقرط والخلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها

---

(١) يوسف: ٢. (٢) البقرة: ١-٢. (٣) الشعراء: ١٩٦. (٤) طه: ١٣٣.

باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة فإذا ثبت هذا ثبت أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص.

وبيان كونه معجزاً هو أن نبين نظم الكلام، ثم نبيّن أن هذا النظم مخالف لنظم سائره، فنقول: لتأليف الكلام خمس مراتب:

الاولى: النظم: وهو ضمّ حروف التهجّي بعضها الى بعض، حتى يتركب منها الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف.

والثانية: أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها الجمل المفيدة وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام.

والثالثة: أن يضم بعض ذلك إلىٰ بعض ضمّاً له مبادٍ ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم.

والرابعة: أن يجعل له: في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له: المسجّع.

والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص، ويقال له: الشعر. وقد انتهى.

وبالحق صار كذلك: فإن الكلام إما منثور فقط، أو مع النثر نظم، أو مع النظم سجع، أو مع السجع وزن.

والمنظوم: إما محاورة، ويقال له: الخطابة، أو مكاتبة، ويقال لها: الرسالة، وأنواع الكلام لاتخرج عن هذه الجملة. ولكل من ذلك نظم مخصوص.

والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنه لايصح أن يقال:

القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصح أن يقال: هو كلام، ومن قرَع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم. ولهذا قال تعالى: «وإنّه لكِتاب عزيزٌ.لايأتِيهِ

الباطلُ مِن بينِ يَديهِ ولا مِن خَلْفِه»[١] تنبيهاً أن تأليفه ليس على هيأة نظم يتعاطاه البشر، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأُخر.

فإن قيل: ولم لم يبلغ بنظم القرآن الوزن الذي هو الشعر، وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة أعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون، إذ كلّ موزون منظوم وليس كلّ منظوم موزوناً؟

قيل: إنما جنّب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصيّة في الشعر منافية للحكمة الإلهيّة، فإن القرآن هو مقر الصدق، ومعدن الحق. وقصوى الشاعر: تصوير الباطل في صورة الحق، وتجاوز الحدّ في المدح والذم دون استعمال الحق في تحرّي الصدق، حتى إن الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق إلّا بالعرض. ولهذا يقال: من كانت قوّته الخيالية فيه أكثر كان على قرض الشعر أقدر. ومن كانت قوّته العاقلة فيه أكثر كان في قرضة أقصر. ولاجل كون الشعر مقرّ الكذب، نزّه الله نبيّه (عليه السلام) عنه لما كان مرشحاً لصدق المقال، وواسطة بين الله وبين العباد، فقال تعالى: «وما عَلّمناهُ الشِّعرَ وماينبغي لَه»[٢] فنفى ابتغاءه له. وقال: «وما هو بقول شاعر»[٣] أي: ليس بقول كاذب. ولم يعن أن ذلك ليس بشعر فإن وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج إلى أن ينفي عنه. ولأجل شهرة الشعر بالكذب، سميّ أصحاب البراهين الأقيسة المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية، وما وقع في القرآن من ألفاظ متزنة فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه.

وأمّا الإعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته: فظاهر أيضاً إذا اعتبر، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أومذمومة، الّا وبينها وبين قوم مناسبات خفية، واتفاقات إلهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب،

---

(١) فصلت: ٤١-٤٢ (٢) يس: ٦٩. (٣) الحاقة: ٤١.

ويتعاطاها بانشراح صدر، وقد تضمن ذلك قوله تعالى: «لكلٍّ جَعلنا مِنكم شِرعةً ومِنهاجاً»[١] وقول النبي (صلّى الله عليه وآله) «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[٢].

فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الا تيان بمثله، وليس تهتزّ غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي لب أن صارفاً الهياً يصرفهم عن ذلك. وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيّرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك. وما أليقهم بإنشاد ما قال ابوتمام:

فإنْ نكُ اهْمِلْنا فَأضْعِفْ بِسَعْينا ... وإنْ نَكُ اجْبِرْنا فَفِيمَ نُتَعْتِعُ

والله ولي التوفيق والعصمة[٣]

٦ـ رأي الامام الرازي:

ولأبي عبدالله محمدبن عمربن حسين فخرالدين الرازي (توفي سنة ٦٠٦) المفسّر المتكلّم الأُصولي الكبير، رأي في إعجاز القرآن طريف، وهو جمعه بين أمور شتّى، كانت تستدعي هبوطاً في فصاحة الكلام، لوكان أحد من البشر حاول القيام بها أجمع، لولا أنّ القرآن كلام الله الخارق لمألوف الناس، فقد جمع بين أفنان الكلام، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في الفصاحة، وتسنّم الذروة من البلاغة، وهذا أمر عجيب!

قال: اعلم أنّ كونه (القرآن) معجزاً يمكن بيانه من طريقين:

الأوّل أن يقال: إنّ هذا القرآن لايخلو حاله من أحد وجوه ثلا ثة: إمّا أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء، أوزائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) مسند احمد ج ٤ ص ٦٧.

(٣) عن مقدمته على التفسير: ١٠٤ـ١٠٩.

لا ينقض العادة، أو زائد أعليه بقدر ينقض. والقسمان الأوّلان باطلان فتعيّن الثالث.

وإنّما قلنا: إنّهما باطلان، لأنّه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين او منفردين، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول، فالشهود والحكام يزيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج، لأنّهم كانوا في معرفة اللغة والاطّلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبّة إبطال أمره في الغاية، حتى بذلوا النفوس، والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحميّة والأنفة على حدّ لا يقبلون الحقّ فكيف الباطل. وكلّ ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله، والمعارضة أقوى القوادح. فلمّا لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أنّ القرآن لا يماثل قولهم، وأنّ التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة، فوجب أن يكون معجزاً.

.. واعلم أنّه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنّه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها فدل ذلك على كونه معجزاً.

أحدها: أنّ فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم.

وثانيها: أنّه تعالى راعىٰ فيه طريقة الصدق وتنزّه عن الكذب في جميعه، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيّداً، الأ ترى أنّ لبيد بن ربيعة وحسّان بن ثابت لـمّا أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلاميّ في الجودة كشعرهما الجاهلي. وأنّ الله تعالى مع ما تنزّه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحاً كما ترى.

وثالثها: أنّ الكلام الفصيح والشعر الفصيح، إنّما يتّفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كذلك. وليس كذلك القرآن، لأنّه كلّه فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: أنّ كلّ من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنّه إذا كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأوّل: وفي القرآن التكرارالكثير،ومع ذلك ، كلّ واحدمنها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً.

وخامسها: أنّه اقتصرعلى ايجاب العبادات وتحريم القبائح والحثّ على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيارالآخرة، وأمثالُ هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة.

وسادسها: أنّهم قالوا في شعر امرئ القيس: يحسن عندالطرب وذكرالنساء وصفة الخيل. وشعرالنابغة عندالخوف. وشعرالأعشى عند الطلب ووصف الخمر. وشعر زهير عند الرغبة والرجاء. وبالجملة فكلّ شاعر يحسن كلامه في فنّ، فإنّه يضعف كلامه في غير ذلك الفنّ. أمّا القرآن فإنّه جاء فصيحاً في كلّ الفنون على غاية الفصاحة:

ألا ترى أنّه سبحانه وتعالى قال في الترغيب: «فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»(١) وقال تعالى: «وَفِيهَا ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وتَلَذُّ الأَعْيُنُ»(٢).

وقال في الترهيب: «أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ»(٣).

وقال: «أَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أن يَخْسِفَ بِكُم الأَرْضَ فَإذا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُم»(٤).

وقال: «وَخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ-الى قوله-ويَأْتِيهِ الْمَوتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ»(٥).

وقال في الزجر مالا يبلغه وهم البشر، وهو قوله: «فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ- الى قوله- ومِنْهُمْ مَنْ أغرقنا»(٦).

وقال في الوعظ ما لامزيد عليه: «أَفَرأَيْتَ إنْ مَتَّعْناهُم سِنين»(٧).

وقال في الإلهيّات: «اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ انثىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرحامُ وَمَا تَزْدَادُ»(٨).

---

(١) السجدة: ١٧. (٢) الزخرف: ٧١. (٣) الإسراء: ٦٨. (٤) الملك: ١٦-١٧.
(٥) إبراهيم: ١٥-١٧. (٦) العنكبوت: ٤٠. (٧) الشعراء: ٢٠٥. (٨) الرعد: ٨.

وسابعها: أنّ القرآن أصل العلوم كلّها، فعلم الكلام كلّه في القرآن، وعلم الفقه كلّه مأخوذ من القرآن، وكذلك علم اصول الفقه وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق.

ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز[١] علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة الى النهاية القصوى.

الطريق الثاني: أن نقول: إنّ القرآن لايخلو إما أن يقال أنّه كان بالغاً في الفصاحة الى حدّ الإعجاز، أولم يكن كذلك، فإن كان الأوّل ثبت أنّه معجز. وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفّر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزاً، فثبت أنّ القرآن معجز على جميع الوجوه.

وهذا الطريق عندنا أقرب الى الصواب[٢].

وكلامه هذا الأخير لعلّه ترجيح للقول بالصرفة!

٧ـ كلام القاضي عبدالجبّار:

لقاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد (له مكانته السامية في عالم الاعتزال توفي سنة ٤١٥) كلام تحقيقي اصولي حول إعجاز القرآن، بحث فيه بحثاً وافياً عن وجه هذا الإعجاز ومبلغ دلالته على نبوّة نبيّ الاسلام على مدى الزمان، اقتضبنا منه مايلي:

قال: فإن قيل: وما المعجز الذي ظهر على محمد؟ قلنا: معجزات كثيرة، من جملتها القرآن.

فإن قيل: وماوجه الإعجاز في القرآن؟ قلنا: هو أنّه تحدّى بمعارضة العرب،

---

(١) المسمّى بـ ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ـ ط سنة ١٩٨٥ بيروت.

(٢) التفسير الكبير ج٢ ص١١٥ ـ ١١٦ ذيل الآية رقم ٢٣ من سورة البقرة.

مع أنهم كانوا هم الغاية في الفصاحة، والمشار إليهم في الطلاقة والذلاقة، وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله، فلم يعارضوه وعدلوا عنه، لالوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله.

ولا يمكنك أن تعرف صحّة هذه الجملة إلّا إذا عرفت وجود محمد (صلى الله عليه وآله) وأنه قد ادعى النبوّة، وظهر عليه القرآن، وسمع منه ولم يسمع من غيره، وأنّه تحدّى العرب بمعارضته وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يأتوا به، لالوجه سوى عجزهم وقصورهم عن الإتيان بمثله.

فمتى عرفت هذه الوجوه كلّها كنت عارفاً بنبوّة محمد (صلّى الله عليه وآله).

أمّا وجوده، وادعاء النبوّة، وانّ القرآن ظهر عليه، وسمع منه ولم يسمع من غيره، فمعلوم ضرورة، ولا مانع يمنع من حصول العلم بهذه الأشياء وما جانسها اضطراراً، فإنّ العلم بالملوك والبلدان ويكون المصنّفات منسوبة الى مصنّفها ضرورة.

وأمّا تحديه العرب بمعارضة القرآن، وتقريعه إيّاهم بالعجز عن ذلك، ففي أصحابنا من جعل العلم به ضروريّاً، ومن جعله مكتسباً. ومن جعله مكتسباً قال: ليس المرجع بالتحدّي إلّا أن يعتقد أنّ له مزيّة على غيره بسبب مامعه، وهذا كان حال النبي (عليه السلام) مع القوم، فكان يعتقد أنّه خير الناس لمكان ماجاء به من القرآن، فكيف يمكن إنكار أنّه لم يتحدّاهم بمعارضته ولم يقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله؟

وأيضاً فكتاب الله تعالى مشحون بآيات التحدّي، وهي مسموعة الآن والتحدّي قائم على وجه الدهر، وفي الفصحاء كثرة في هذه الأزمان، فيجب أن يأتوا بمثله. ومتى قالوا: أنّ الفصاحة تناقصت الآن كالشعر، قلنا: إن أمكن أن يقال ذلك في الشعر فلا يمكن في الفصاحة، ففي خطباء هذه الأزمنة من لايداني كلامه كلام أفصح فصيح في ذلك الزمان. فهذا واصل بن عطاء ربّما تفي خطبة من خطبه بكثير من كلام فصحاء أُولئك العرب. وهذا أبوعثمان

عمرو بن عبيد، ففصل من كلامه ربّما يزيد على كلام أبينهم كلاماً وأجزلهم لفظاً وأفصحهم لساناً، فكيف يصحّ ماذكرتموه؟

وأمّا ترك العرب معارضة القرآن، وعدولهم عنه الى المقاتلة، فظاهر أيضاً، فإنّهم حين أحسّوا من أنفسهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن، تركوه الى المقاتلة، وذلك يؤذن بعجزهم عن ذلك، وإلّا فالعاقل إذا أمكنه دفع خصومه بأيسر الأمرين لايعدل عنه الى أصعبهما.

فإن قيل: ومن أين أنّهم تركوا المعارضة ولم يعارضوه البتة؟ قيل له: إنّهم لوعارضوه لكان يجب أن ينقل إلينا معارضتهم، فإنّه لايجوز في حادثتين عظيمتين تحدثان معاً، وكان الداعي الى نقل احداهما كالداعي الى نقل الأُخرى، أن تخصّ احداهما بالنقل، بل الواجب أن تنقلا جميعاً أو لا تنقلا، فأمّا أن تنقل احداهما دون الأُخرى فلا.

ولا يمكن إنكار ماقلناه من أنّ الداعي الى نقل أحدالحادثين كالداعي الى نقل الآخر، بل لوقيل: أنّ الداعي الى نقل المعارضة أقوى لكان أولى، إذ المعارضة ممّا ينقلها المخالف والموافق. المخالف ينقله ليرى الناس أنّ فيه ابطال حجّة محمد (صلى الله عليه وآله) والموافق ينقله ليتكلّم عليه ويبيّن أن ذلك ليس من المعارضة في شيء.

ويزيد ما ذكرنا وضوحاً، أنّهم نقلوا من المعارضات ماهي ركيكة كمعارضة مسيلمة وغيره، فلولا أنّ دواعيهم كانت متوفّرة الى ذلك، كان لاينقل إلينا هذه المعارضة على ركّتها.

قال: وبعدُ، فإنّ المعارضة لوكانت لكانت هي الحجّة، ولكان القرآن هوالشبهة، والله تعالى لايجوز أن يسلّط علينا الشبهة على وجه لاسبيل لنا الى حلّها، ويمكن من إخفاء الحجّة على حدّ لايمكن الظفر بها، بل كان يجب أن يقوي الدواعي الى نقل المعارضة أن لووقعت، فلمّا لم يفعل، دلّنا ذلك على أنّها

لم تقع البتة، وأنّ ذلك تمنّ.

فإن قيل: إنّ ما ذكرتموه يبنى على أنّ العرب كانوا حريصين على ابطال أمره وتوهين شأنه، وكان لم يمكنهم إلّا بالمعارضة، ونحن لا نسلّم ذلك.

قيل له: إنَّ ذلك معلوم بالاضطرار، فمعلوم أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) ادعى منزلة رفيعة عليهم، وهم كانوا في غاية الأنفة والحميّة والإباء، فكيف لم يحرصوا والحال هذه على ابطال أمره ورفع حجّته أن لوقدروا!

فإن قيل: لعلّ القوم لم يعلموا طريقة المعارضة والحجاج، ولوعلموا ذلك، فلعلّهم لم يعلموا أنّ أمره يبطل بالمعارضة!

قيل له: أمّا الأوّل فلا يصحّ، لأنّ المعارضة كانت عادتهم، ولهذا لم يأت شاعر بقصيدة فيما بينهم إلّا وشاعر آخر يعارضه أو رام معارضته، وهذا معلوم من حال شعرائهم، نحو امرئ القيس وعلقمة واشباههما.

وأمّا الثاني، فباطل أيضا، لأنّ كل أحد يعلم أنّ خصمه إذا أتاه بأمر، وادعى لمكانه منزلة عظيمة عليه، وتحدّاه بمعارضته، فإنّه متى عارضه فقد أبطل دعواه، وهذا ممّا لا يخفى على الصبيان في مباراتهم بأمثال الطفرة واشالة الحجر ونحوهما، فكيف على دهاة العرب!

فإن قيل: إنّهم أرادوا استئصاله بالمقاتلة. قلنا: لولا عجزهم عن المعارضة لما أرادوا استئصاله، لأنّهم لوقدروا على المعارضة كانت أسهل عليهم في استئصاله وإسقاطه من مكانه في العرب المكان الذي كان. ولايليق بالعاقل العدول عن الأمر السهل الى الأمر الصعب، وقد كانت المعارضة التي كانت عندهم -بزعمهم- بمنزلة الأكل والشرب والقيام والقعود.

فإن قيل: لعلّهم إنّما قاموا بالمقاتلة دون المعارضة، لإبطال دعواه وحسم مادّته، إذربّما لا تنقطع مادّته بالمعارضة، وأنّ الخلاف يبقى، ويكون الناس بين رجلين: رجل له ورجل عليه، فتطول المنازعة ولا تنقطع.

قيل لهم: إنَّ هذا لو كان صارفاً عن معارضة القرآن، فليكن صارفاً عن سائر المعارضات الشعرية التي كانت متداولة عندهم، إذ يكون الناس بين متعصّب لهذا ومتعصّب لذاك، فليمسكوا عن المعارضة رأساً!

فإن قيل: لعلّهم أخطؤوا في العدول الى المحاربة، كما أخطؤوا في عبادة الأصنام عن عبادة الله تعالى.

قيل له: إنّما أخطأتم أنتم في القياس، لأنّ ذلك أمر نظري يستدرك بطريقة الاستدلال والاستنباط، ممّا يمكن فيه الخطأ. وليس حال المعارضة كذلك، فإنّه ضروري لايتصوّر فيه الخطأ فإن قيل: إنّما تركوا المعارضة، لاشتمال القرآن على قصص كانوا يجهلون أمثالها.

قيل له: القرآن مشتمل على كثير من أنواع الكلام، فلوكانت المعارضة ممكنة لهم لأتوا بسائر أنواع الكلام وجعلوها معارضة للقرآن. على أنّه كان بامكانهم أن يصنعوا من عندهم قصصاً ويكسونها من العبارات الجيّدة العظيمة اجزلة ما يقارب القرآن في الفصاحة ويدانيه فيلتبس الحال فيه.

وأيضاً فإنّ القرآن قد تحدّى اليهود أيضاً، وفيهم العلماء بالأخبار والعارفون بالأقاصيص كما أنّ العرب كانوا قدبعثوا الى الفرس يطلبون منهم القصص، نحو قصة رستم واسفنديار، وجمعوا من ذلك شيئاً كثيراً لكنّهم عجزوا في النهاية أن يجعلوه معارضة للقرآن.

فإن قيل: عجز العرب عن معارضته، لعلّه كان من جهة أن القرآن كان من كلام محمد (صلى الله عليه وآله) وكان متقدّماً في الفصاحة على جميع العرب، ولهذا قال: «أنا أفصح العرب».

قيل له: ليس الأمر على ما ظننت، فإنّه يستحيل فيمن نشأ بين جماعة يتعاطون البلاغة ويتباهون بالفصاحة، أن يتعلّمها ويأخذها منهم، ثم يبلغ فيها حدّاً لايوجد في كلام واحد منهم، بل في كلام جماعتهم، فصل يساوي كلامه

في الفصاحة أويدانية أو يقرب منه أو يشتبه الحال فيه!

فإن قيل: هب أنّ القرآن معجزة، وأنّ العرب علموا إعجازه، لعلمهم بأنّه قد تناهى في الفصاحة حدّاً. وأنتم فبأيّ طريق علمتم معناً فيه، يا معشر العجم!

قلنا: إنّ العلم بذلك على وجهين: أحدهما علم تفصيل، والآخر علم جملة، والعرب علموا ذلك على سبيل التفصيل، ونحن فقد علمناه على سبيل الجملة. وطريقته: هو أنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) تحدّى العرب بمعارضته، فلم يمكنهم الإتيان بمثله فلولا كونه معجزاً دالّاً على نبوّته، وإلّا لما كان ذلك كذلك[1].

٨ـ كلام الشيخ الطوسي:

وللشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، شيخ الطائفة، (توفي سنة ٤٦٠) تحقيق مستوفٍ بشأن إعجاز القرآن، أورده في كتابه (الاقتصاد) الذي وضعه على اسس علم الكلام وحقّق فيه اصول العقيدة على مباني الإسلام، نذكر منه ما ملخّصه:

قال: الاستدلال على صدق النبوّة بالقرآن يتمّ بعد بيان خمسة امور:

١ـ إنّه ظهر بمكة وادعى النبوّة.

٢ـ إنّه تحدّى العرب بهذا القرآن.

٣ـ إنّه لم يعارضوه في وقت من الأوقات.

٤ـ وكان ذلك لعجزهم عن المعارضة.

٥ـ وإنّ هذا كان لتعذّر خرق العادة. فإذا ثبت ذلك أجمع دلّ على أنّ القرآن معجز، سواء كان لفصاحته البالغة أم لانّ الله صرفهم عن ذلك. وأيّ الأمرين ثبت ثبتت نبوّته عليه السلام.

(١) شرح الأُصول الخمسة، للقاضي عبدالجبار: ص٥٨٦ـ ٥٩٤.

أمّا ظهوره بمكة وادعاؤه النبوّة فضروري. وكذا ظهور القرآن على يده وتحدّيه للعرب أن يأتوا بمثله، لأنّه صريح القرآن في مواضع عديدة.

وأمّا أنّه لم يعارض فلأنّه لوكان عُورض لوجب أن يُنقل، ولو نُقِلَ لَعُلِمَ، لأنّ الدواعي متوفّرة الى نقله، ولأنّ المعارض لوكان لكان هوالحجّة دون القرآن، ونقل الحجّة أولى من نقل الشبهة.

والذي يدعو الى المعارضة ـ لو امكنت ـ ونَقْلِها هو طلب التخليص ممّا ألزموا به من ترك أديانهم ومفارقة عاداتهم وبطلان ما ألفوه من الرئاسات، ولذلك نقلوا كلام مسيلمة والأسود العَنَسي وطليحة مع ركاكته وسخافته وبعده عن دخول الشبهة فيه.

ولا يمكن دعوى الخوف من أنصاره وأتباعه، إذ لاموجب للخوف مع ضعف المسلمين بمكة وعلى فرضه فلايمنع نقله استسراراً، أو في سائر البلاد النائية كالروم والحبشة وغيرهما، كما نقل هجاؤهم وسبّهم وكان أفحش وكان أدعى للخوف إن كان.

وإذاثبت أنّهم لم يعارضوه، فإنّما لم يعارضوه للعجز، لأنّ كلّ فعل لم يقع مع توفّر الدواعي لفاعله وشدّة تداعيه عليه، قطعنا على أنّه لم يفعل للتعذّر. وقد توفّرت دواعي العرب الى معارضته فلم يفعلوها، وقد تكلّفوا المشاقّ من أجله، فقد بذلوا النفوس والأموال وركبوا الحروب العظام ودخلوا الفتن، طلباً لإبطال أمره، فلوكانت المعارضة ممكنة لهم لما أختاروا الصعب على السهل، لأنّ العاقل لايترك الطريق السهل، ويسلك الطريق الوعر الذي لايبلغ معه الغرض، إلّا أن يختلّ عقله أو يسفه رأيه، والقوم لم يكونوا بهذه الصفة.

وليس لأحد أن يقول: إنّهم اعتقدوا أنّ الحرب أنجح من المعارضة فلذلك عدلوا إليها. وذلك أنّ النبي (عليه السلام) لم يدّع النبوّة فيهم بالغلبة والقهر، وإنّما ادعى معارضة مثل القرآن، ولم يكن احتمال حرب إذ ذاك . ثمّ مع قيام

الحرب كانوا في الأغلب مغلوبين مقهورين، فكان يجب أن يقوموا بالمعارضة، فإن انجعت والّا عدلوا الى الحرب.

فإن قالوا: خافوا أن يلتبس الأمر فيظنّ قوم أنّه ليس مثله. قيل: قد حصل المطلوب، لأنّ الاختلاف حينذاك يوجب الشبهة، فكان أولى من الترك الذي يقوى معه شبهة العجز.

وليس لهم أن يقولوا: لم تتوفر دواعيهم الى ذلك. لأنّهم تحمّلوا المشاق، والعاقل لا يتكلّف ذلك إذا لم تتوفّر دواعيه الى إبطال دعوى خصمه.

فإن قالوا: إنّما لم يعارضوه، لأنّ في كلامهم ماهو مثله أومقاربه. قلنا: هذا غير مسلّم. وعلى فرض التسليم فان التحدّي وقع لعجزهم فيما يأتي، فلوكان في كلامهم مثله فهو أبلغ لعجزهم في تحقّق التحدّي بالعجز عن الإتيان بمثله في المستقبل.

فإن قيل: واطأه قوم من الفصحاء. قيل: هذا باطل، لأنّه كان ينبغي أن يعارضه من لم يواطئه، فإنّهم وإن كانوا أدون منهم في الفصاحة، كانوا يقدرون على مايقاربه -على الفرض- لأنّ التفاوت بين الفصحاء لاينتهي الى حدّ يخرق العادة. على أنّ الفصحاء المعروفين والبلغاء المشهورين في وقته، كلّهم كانوا منحرفين عنه، كالأعشى الكبير الذي في الطبقة الأُولى ومن أشبهه مات على كفره، وكعب بن زهير، أسلم في آخرالأمر، وهو في الطبقة الثانية، وكان من أعدى الناس له (عليه السلام) ولبيدبن ربيعة، والنابغة الجعدي من الطبقة الثالثة، أسلما بعد زمان طويل، ومع ذلك لم يحظيا في الإسلام بطائل. على أنّه لوكان لكان ينبغي أن يوافقوه على ذلك ويقولون له: الفصحاء المبرزون واطؤوك ووافقوك، فإنّ الفصحاء في كلّ زمان لايخفون على أهل الصناعة.

فان قيل: لم لايكون النبيّ (عليه السلام) وهو أفصح العرب، قد تأتّى منه القرآن، وتعذّر على غيره، أو تعمله في زمان طويل فلم يتمكّنوا من معارضته في

زمان قصير؟

قيل: هذا لا يتوجّه على من يقول بالصرفة، لأنّه يجعل صرف هممهم عن ذلك دليلاً على الإعجاز، ولو فرض تمكّنهم من المعارضة.

وأمّا من قال: إنّ جهة الإعجاز في الفصاحة والبيان، فإن كون النبي (عليه السلام) أفصح، لايمنع من أن يقارنوه أو يدانوه، كما هو المتعارف بينهم في المعارضة ومقارضة الشعر. على أنّ العرب لم يتفوّهوا بذلك ولم يقولوا له: أنت أفصحنا، فلذلك يتعذّر علينا مايتأتّى منك. وأمّا احتمال التعمّل فباطل، لأنّه (عليه السلام) عارضهم في مدة طويلة أكثر من عشرين عاماً يتحدّاهم طول المدّة.

قال: وإذ قد ثبت أنّ القرآن معجز، لم يضرّنا أن لا نعلم من أيّ جهة كان إعجازه. غير أنّا نومئ الى جملة من الكلام فيه.

كان المرتضى علي بن الحسين الموسوي (رحمة الله عليه) يختار أنّ جهة إعجازه الصّرفة وهي: أن الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولولم يسلبهم ذلك لكان يتأتّى منهم. وبذلك قال النظّام وأبو إسحاق النصيبي أخيراً.

وقال قوم: جهة الإعجاز الفصاحة المفرطة التي خرقت العادة من غير اعتبار النظم، ومنهم من اعتبر النظم والأُسلوب مع الفصاحة، وهو الأقوى.

وقال قوم: هو معجز لاختصاصه بأُسلوب مخصوص ليس في شيء من كلام العرب.

وقال قوم: تأليف القرآن ونظمه مستحيل من العباد، كاستحالة الجواهر والألوان.

وقال قوم: كان معجزاً لما فيه من العلم بالغائبات.

وقال آخرون: كان معجزاً لارتفاع الخلاف والتناقض فيه، مع جريان العادة بأنّه لايخلو كلام طويل من ذلك.

وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون الصرفة.

وإن كنت نصرت في شرح الجمل[١] القول بالصرفة، على ماكان يذهب إليه المرتضى (رحمه الله) من حيث شرحت كتابه، فلم يحسن خلاف مذهبه.

قال: والذي يدلّ على ماقلناه واخترناه: أنّ التحدّي معروف بين العرب بعضهم بعضاً، ويعتبرون في التحدّي معارضة الكلام بمثله في نظمه ووصفه، لأنّهم لايعارضون الخطب بالشعر ولا الشعر بالخطب، والشعر لايعارضه أيضاً إلّا بما كان يوافقه في الوزن والرويّ والقافية، فلا يعارضون الطويل بالرجز، ولا الرجز بالكامل، ولا السريع بالمتقارب، وإنّما يعارضون جميع أوصافه.

فإذا كان كذلك، فقد ثبت أنّ القرآن جمع الفصاحة المفرطة والنظم الذي ليس في كلام العرب مثله، فإذا عجزوا عن معارضته، فيجب أن يكون الاعتبار بهما.

فأمّا الذي يدلّ على اختصاصها بالفصاحة المفرطة، فهو أنّ كل عاقل عرف شيئاً من الفصاحة يعلم ذلك، وإنّما في القرآن من الفصاحة مايزيد على كلّ فصيح، وكيف لايكون كذلك وقد وجدنا الطبقة الأوّلة قد شهدوا بذلك وطربوا له، كالوليد بن المغيرة والأعشى الكبير وكعب بن زهير ولبيد بن ربيعة والنابغة الجعدي، ودخل كثير منهم في الإسلام ككعب والنابغة ولبيد، وهمّ الأعشى بالدخول في الإسلام فمنعه من ذلك أبوجهل وفزّعه، وقال: إنّه يحرّم عليك الأطيبين الزنا والخمر. فقال له: أمّا الزنا فلاحاجة لي فيه، لأنّي كبرت، وأمّا الخمر فلا صبر لي عنه، وانظر فأتته المنيّة واخترم دون الإسلام.

---

(١) في كتابه (تمهيد الأصول) شرحاً على القسم النظريّ من جمل العلم والعمل، وقد طبع أخيراً (١٣٦٢هـ ش) في جامعة طهران، وسننقل كلامه عند التعرض للقول بالصرفة.

والوليد بن المغيرة تحيّر حين سمعه، فقال: سمعت الشعر وليس بشعر، والرجز وليس برجز، والخطب وليس بخطب، وليس له اختلاج الكهنة. فقالوا له: أنت شيخنا، فإذا قلت هذا ضعف قلوبنا، ففكّر وقال: قولوا: هو سحر، معاندةً وحسداً للنبيّ (صلى الله عليه وآله) فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ـ الى قوله ـ إِنْ هَذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ»[1]. فمن دفع فصاحة القرآن لم يكن في حيّز من يُكَلَّم!

وأمّا اختصاصه بالنظم فمعلوم ضرورة، لأنّه مدرك مسموع، وليس في شيء من كلام العرب ما يشبه نظمه، من خطبة أو شعر على اختلاف أنواعه وصفاته. فاجتماع الأمرين منه لا يمكن دفعهما...[2].

٩ـ كلام القطب الراوندي:

وللمولى قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي (توفي سنة ٥٧٣) بحث مستوفًى عن إعجاز القرآن، أتى على جوانبه ببيان كافٍ شافٍ على أسلوب الكلام القديم، أورده في الباب الثامن عشر من كتابه (الخرائج) الذي خصّصه بذكر المعجزات، وخصّ هذا الباب بأُمّ المعجزات القرآن العظيم. وقد أورده العلّامة المجلسي بطوله في موسوعته الكبرى (بحار الأنوار ـ كتاب القرآن)[3] حيث الوفاء والاستيفاء. وفيما يلي قبسات منه:

قال: اعلم أنّ كتاب الله المجيد ليس مصدقاً لنبيّ الرحمة خاتم النّبيين فقط، بل هو مصدّق لسائر الأنبياء والأوصياء قبله، وسائر الأوصياء بعده، جملة وتفصيلاً. وليس جملة الكتاب معجزة واحدة، بل هي معجزات لاتحصى، لأنّ

---

(١) المدثر: ١٨ـ ٢٤.

(٢) الاقتصاد في أصول الاعتقاد: ص١٦٦ـ ١٧٤.

(٣) بحارالأنوار: ج٨٩ ص١٢١ـ١٥٤ ط بيروت.

أقصر سورة فيه إنّما هي الكوثر[١]، وفيها إعجاز من جهتين: أحدهما: أنّه قد تضمّن خبراً عن الغيب قطعاً قبل وقوعه، فوقع كما أخبر عنه من غير خلف فيه، وهو قوله: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ»[٢] لما قال قائلهم: أنّ محمداً رجل صنبور[٣] فإذا مات انقطع ذكره، ولا خلف له يبقى به ذكره، فعكس ذلك على قائله، و كان كذلك.

والثاني من طريق نظمه، لأنّه على قلّة عدد حروفه، وقصر آيه، يجمع نظماً بديعاً، وأمراً عجيباً، وبشارة للرسول، وتعبّداً للعبادات، بأقرب لفظ وأوجز بيان.

ثم أن السور الطوال متضمّنة للإعجاز من وجوه كثيرة نظماً وجزالة وخبراً عن الغيوب، فلذلك لايجوز أن يقال: انّ القرآن معجز واحد ولا ألف معجز، ولا اضعافه، فلذلك خطأنا قول من قال: أنّ للمصطفى (صلى الله عليه وآله) ألف معجز أو ألفي معجز، بل يزيد ذلك عند الإحصاء على الألوف.

* * *

ثمّ الاستدلال في أنّ القرآن معجز، لايتمّ إلّا بعد بيان خمسة أشياء:

أحدها: ظهور محمّد (صلى الله عليه وآله) وادعاؤه أنّه مبعوث الى الخلق ورسول إليهم.

وثانيها: تحدّيه العرب بهذا القرآن الذي ظهر على يديه، وادعاؤه أنّ الله أنزله عليه وخصّه به.

وثالثها: أنّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه.

---

(١) ستوافيك رسالة الزمخشري في إعجاز سورة الكوثر بحثاً مستوفٍ كلياً عن إعجاز القرآن أوّلاً، وعن خصوص هذه السورة المباركة ثانياً..

(٢) الكوثر: ٣.

(٣) الصنبور ـ كعصفور ـ: النخلة المنفردة من النخيل، والتي دقّت من أسفلها وانجرد كَرَبُها وقلّ حملها، ثم كنّي عن الرجل الضعيف الذليل، بلا أهل ولا عقب ولا ناصر.

ورابعها: أنّه لم يعارضوه للتعذّر والعجز.

وخامسها: أنّ هذا التعذّر خارق للعادة.

فإذا ثبت ذلك، فإمّا أن يكون القرآن نفسه معجزاً خارقاً للعادةبفصاحته، ولذلك لم يعارضوه، أو لأنّ الله صرفهم عن معارضته ولولا الصرف لعارضوه، وأيّ الأمرين ثبت صحّت نبوّته (عليه السلام) لأنّ الله تعالى لايصدّق كاذباً، ولا يخرق العادة لمبطل.

وأمّا ظهوره (صلى الله عليه وآله) بمكة ودعاؤه الى نفسه، فلا شبهة فيه، بل هو معلوم ضرورة لاينكره عاقل وظهور هذا القرآن على يده أيضاً معلوم ضرورة، والشك في أحدهما كالشك في الآخر.

وأمّا الذي يدلّ على أنّه (صلى الله عليه وآله) تحدّى بالقرآن، فهو أنّ معنى قولنا أنّه تحدّى، أنّه كان يدّعي أنّ الله تعالى خصّه بهذا القرآن وأنبأه به، وأنّ جبرئيل (عليه السلام) أتاه به، وذلك معلوم ضرورة، لايمكن لأحد دفعه. وهذا غاية التحدّي، في المعنى.

وأمّا الكلام في أنّه لم يعارض، فلأنّه لو عورض لوجب أن ينقل، ولو نقل لعُلِم، كما علم نفس القرآن. فلما لم يعلم، دلّ على أنّه لم يكن.

وإنّما قلنا: أنّ المعارضة لوكانت لوجب نقلها، لأنّ الدواعي متوفّرة على نقلها، ولأنّها ـ حينذاك ـ تكون الحجّة والقرآن شبهة، لوكانت. ونقل الحجّة أولى من نقل الشبهة.

وأمّا الذي نعلم به أنّ جهة انتفاء المعارضة التعذّر لاغير، فهو أنّ كلّ فعل ارتفع عن فاعله مع توفّر دواعيه إليه، علم أنّه ارتفع للتعذّر. ولهذا قلنا أنّ هذه الجواهر والأكوان ليست بمقدورنا. وخاصّة إذا علمنا أنّ الموانع المعقولة مرتفعة كلّها. فيجب أن نقطع على أنّ ذلك من جهة التعذّر لاغيره.

وإذا علمنا أنّ العرب تُحُدّوا بالقرآن فلم يعارضوه مع شدّة حاجتهم الى المعارضة، علمنا أنهم لم يعارضوه للتعذّر لاغير. وإذا ثبت كون القرآن معجزاً

وأنّ معارضته تعذّرت لكونه خارقاً للعادة، ثبت بذلك نبوّته المطلوبة.

* * *

ثمّ إنّ القرآن معجز، لأنّه (صلى الله عليه وآله) تحدّى العرب بمثله، وهم النهاية في البلاغة، و توفّرت دواعيهم الى الإتيان بما تحدّاهم به، ولم يكن لهم صارف عنه ولا مانع منه، ولم يأتوا به. فعلمنا أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله.

وإنّما قلنا: أنّه (صلى الله عليه وآله) تحدّاهم به، لأنّ القرآن نفسه يتضمّن التحدّي كقوله تعالى: «فأتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِه» ،معلوم أنّ العرب في زمانه و بعده كانوا يتبارون بالبلاغة ويفخرون بالفصاحة، وكانت لهم مجامع يعرضون فيها شعرهم، وحضر زمانه من يعدّ في الطبقة الأُولى كالاعشى ولبيد وطرفة، وزمانه أوسط الأزمنة في استعمال المستأنس من كلام العرب، دون الغريب الوحشي الثقيل على اللسان، فصحّ أنّهم كانوا الغاية في الفصاحة.

وإنّما قلنا: اشتدّت دواعيهم الى الإتيان بمثله، فإنّه تحدّاهم ثمّ قرّعهم بالعجز عنه بقوله تعالى: «قُلْ لَئِن اجتمَعَت الإنس والجنّ على أَنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتون بمِثْلِهِ ولوكان بعضهم لبعضٍ ظهيراً» وقوله تعالى: «فإنْ لمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلوا».

فإن قيل: لعلّ صارفهم هو قلّة احتفالهم به أو بالقرآن، لانحطاطه في البلاغة! قلنا لاشبهة أنّه(صلى الله عليه وآله) كان من أوسطهم في النسب، وفي الخصال المحمودة حتى سمّوه الأمين الصدوق، وكيف لا يحتفلون به وهم كانوا يستعظمون القرآن حتى شهروه بالسحر ومنعوا الناس من استماعه، لئلّا يأخذ بمجامع قلوب السامعين، فكيف يرغبون عن معارضته![1]

* * *

وأمّا وجه إعجاز القرآن فقداختلف المتكلّمون في جهةإعجازه على سبعة أوجه

(١) بحارالأنوار: ج ٨٩ ص ١٢١-١٢٥.

فأوّل ما ذكر من تلك الوجوه: ما اختاره المرتضى، وهو أنّ وجه الإعجاز في القرآن أنّ الله صرف العرب عن معارضته، وسلبهم العلم بكيفيّة نظمه وفصاحته، وقد كانوا لولا هذا الصرف قادرين على المعارضة متمكّنين منها.

والثاني: ما ذهب إليه الشيخ المفيد[١] وهو أنّه إنّما كان معجزاً من حيث اختصّ برتبة في الفصاحة خارقة للعادة. قال: لأنّ مراتب الفصاحة إنّما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد، فلايمتنع أن يجري الله العادة بقدر من العلوم فيقع التمكين بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية، ويكون مازادعلى ذلك زيادة غيرمعتادة، معجزاً خارقاً للعادة.

والثالث: وهو ماقال قوم: إنّ إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرّة على النظر وموافقة للعقل.

والرابع: أنّ جماعة جعلوه معجزاً من حيث زال عنه الإختلال والتناقض على وجه لم تجر العادة بمثله.

والخامس: أنّه يتضمّن الاخبار عن الغيوب.

والسادس: إختصاصه بنظم مخصوص مخالف للمعهود.

والسابع: ماذكره أكثرالمعتزلة: أنّ تأليف القرآن ونظمه معجزان، لا لأنّه تعالى أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد، وقد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه، لكن محال وقوعه منهم كاستحالة إحداث الأجسام والألوان، وإبراء الأكمه والأبرص من غير دواء.

قال: ولو قلنا: إنّ هذه الوجوه السبعة كلّها وجوه إعجاز القرآن على وجه دون وجه، لكان حسناً.

* * *

ثمّ أخذ في بيان الاستدلال على هذه الأوجه، حسبما ذكره القائلون بها:

---

(١) لعلّه في غير كتابه (أوائل المقالات) فقد ذهب فيه مذهب النظّام كما يأتي.

قال: واستدل المرتضى (رحمه الله) على أنّـه تعالى صرفهم عن المعارضة، وأنّ العدول عنها كان لهذا، لالأنّ فصاحـة القرآن خرقت عادتهم، بـأنّ الفضل بين الشيئين إذا كثر، لم تقف المعرفة بحالها على ذوي القرائح الذكيّة، بل يغني ظهور أمريهما عـن الرؤيـة بينهما، وهذا كما لايحتاج الى الـفرق بين الخزّ والصوف الى أحذق البزّازين، وإنّما يحتاج الى الـتـأمّل، الشديد التقـارب الـذي يشكل مثله. ونحن نعلم إنّا على مبلغ علمنا بالـفصاحة، نفرّق بين شعر امـرئ القيس وشعر غيره من المحدثين، ولانحتاج في هـذا الفرق الى الرجوع الى من هوالـغاية في علم الفصاحة، بل نستغني معه عن الفكرة، وليس بين الفاضل والمفضول من اشعار هؤلاء وكلام هـؤلاء قدر مابين الممـكن والمعـجز، والمعتـاد والخارج عن العادة. وإذا استقر هذا، وكـان الـفـرق بين سورالمفصل و بين أفصح قصائـد الـعرب غير ظاهر لنا الظّهور الـذي ذكرناه، ولعلّه إن كان ثمّ فرق فهو ممّا يقف عليه غيرنا ولا يـبـلـغـه علمـنـا، فـقـد دلّ على أنّ القوم صرفـوا عـن المـعـارضة وأخذوا عن طريقها.

* * *

قال: والأشبه بـالحقّ والأقرب الى الـحجّة ـ بعد ذلك القول ـ قـول من جعل وجـه إعجاز القرآن خروجـه عـن العادة في الفصاحة، فـيكون مازاد على المعتاد معجزاً، كما أنّه لمّا أجرى الله العادة في القدرة التي يمكن بها من ضروب افعال الجوارح، كالطفو بالبحر وحمل الجبل، فإنها إذا زادت على ماتأتي العادة، كانت لاحقة بالمعجزات، كذلك القول هاهنا.

ثمّ إن هؤلاء الـذين **قالوا:** إن جـهة إعجـاز القرآن الـفـصـاحة المفـرطة التي خرقت العادة صاروا صنفين:

منهم من اقـتصر على ذلـك ولم يعـتبر النظم، ومنهـم من اعـتبر مع الـفصاحة النظم المخصوص، وقال الفريقان: إذا ثبت أنّه خارق للعادة بفصاحته، دل على نبوّته..

* * *

وأمّا القول الثالث والرابع فكلاهما مأخوذ من قوله تعالى: «وَلَوْكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً»[١] فحمل الأوّلون ذلك، على المعنى، والآخرون على اللفظ. والآية مشتملة عليهما عامّة، ويجوز أن يكون كلا القولين معجزاً على بعض الوجوه، لارتفاع التناقض فيه، والاختلاف فيه، على وجه مخالف للعادة.

وأمّا من جعل جهة إعجازه ماتضمّنه من الإخبار عن الغيوب، فذلك لاشك أنّه معجز، لكن ليس هوالذي قصد به التحدّي، لأنّ كثيراً من القرآن خال من الإخبار بالغيب، والتحدّي وقع بسورة غير معيّنة.

* * *

وأمّا الذين قالوا: إنّما كان معجزاً لاختصاصه باسلوب مخصوص، ليس بمعهود، فإنّ النظم دون الفصاحة، لايجوز أن يكون جهة إعجاز القرآن على الإطلاق، لأنّ ذلك لايقع فيه التفاضل، وفي ذلك كفاية، لأنّ السابق الى ذلك لابدّ أن يقع فيه مشاركة لمجرى العادة كما تبيّن.

وأمّا من قال: إنّ القرآن نظمه وتأليفه مستحيلان من العباد، كخلق الجواهر و الألوان فقولهم به على الإطلاق باطل، لأنّ الحروف كلّها من مقدورنا، والكلام كلّه يتركب من الحروف التي يقدر عليها كلّ متكلّم، واَمّا التأليف فإطلاقه مجاز في القرآن، لأنّ حقيقته في الأجسام، وإنّما يراد من القرآن حدوث بعضه في أثر بعض، فإن أُريد ذلك فهو إنّما يتعذّر لفقد العلم بالفصاحة وكيفيّة إيقاع الحروف، لاأنّ ذلك مستحيل، كما أنّ الشعر يتعذّر على العجم لعدم علمه بذلك، لاأنّه مستحيل منه من حيث القدرة، ومتى أُريد استحالة ذلك بما يرجع الى فقد العلم فذلك خطأ في العبارة دون المعنى[٢].

* * *

(١) النساء: ٨٢.

(٢) بحارالأنوار: ج ٨٩ ص١٢٧- ١٣٠.

وأمّا القائلون بأنّ إعجازه الفصاحة، قالوا: إنّ الله جعل معجزة كلّ نبيّ من جنس ما يتعاطاه قومه، فقد كان الغالب على قوم موسى (عليه السلام) السحر، فكانت معجزته العصا واليد البيضاء، فعرفوا، أنّه فوق متعاطاهم فآمنوا. وكذلك كان الغالب في زمن عيسى (عليه السلام) الطبّ، فأظهر الله على يده إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ممّا لاينا له الطبّ فآمنوا به. فهكذا لـمّا كان زمن محمد (صلى الله عليه وآله) الغالب على قومه الفصاحة والبلاغة حتى كانوا لايتفاخرون بشيء كتفاخرهم بها، جعل الله معجزته من ذلك القبيل، فأظهر على يديه هذا القرآن، وعلم الفصحاء منهم أنّ ذلك ليس من كلام البشر، فآمنوا به. ولهذا جاء المخصوصون فآمنوا برسول الله (صلى الله عليه وآله) كالاعشى مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقصيدة وأراد أن يؤمن، فدافعه قريش وجعلوا يحدّثونه بأسوأ مايقدرون عليه، فلم يزالوا بالسعي حتى صدّوه. وجاء لبيد وآمن برسول الله (صلى الله عليه وآله) وترك قيل الشعر تعظيماً لأمر القرآن..

قالوا: ومن خالفنا في هذا الباب يقول: إنّ المعجز قد يلتبس بالحيلة لكنّه إذا لم يكن طريق الى الفصل بينهما، وهاهنا وجوه من الفصل، منها:

إنّ المعجز إنّما يظهر عند من يكون من أهل هذا الباب ويروّج عليهم، والحيلة إنّما تظهر عند العوام وتروّج على الجهّال.

فإن قيل: النبيّ (صلى الله عليه وآله) مبعوث الى العرب والعجم، فإذا كان إعجاز القرآن من حيث الفصاحة، فإنّ العجم لايمكنهم ذلك.

قلنا: الفصاحة ليست بمقصورة على لغة دون اخرى. على أنّه يمكنهم أن يعرفوا ذلك على سبيل الجملة، إذا علموا أنّه تحدّى فصحاء العرب فأعجزهم، وفي ذلك كفاية.

* * *

وأمّا القائلون بأنّ إعجازه بالفصاحة والنظم معا، قالوا: إنّا رأينا النبي (صلى الله عليه وآله) أرسل التحدّي إرسالاً وأطلقه إطلاقاً، والمتفاهم من الإطلاق هوالتحدّي بهما معاً، لأنّ العادة عندالعرب جارية في التحدّي باعتبار طريقة النظم مع الفصاحة، كما في تحدّي شعراء العرب وخطبائهم في الشعر والخطابة، ليس في الفصاحة فقط وإنّما هي مع نظمه العروضي وأسلوبه الإيقاعي أيضاً. هذا هوالمتبادر الى الذهن حينذاك من التحدّي.

على أنّ التحدّي لوكان بمجرد الفصاحة لوقعت المعارضة ببعض فصيح شعرهم أو بليغ كلامهم، إذ قد يخفى الفرق بين قصار السور وفصيح كلام العرب. فكان يجب أن يعارضوه، فإذ لم يفعلوا، فلأنّهم فهموا من التحدّي مجموع الفصاحة وطريقة النظم معاً، إذ لم يجتمعا لهم، واختصاص القرآن بنظم يخالف سائر ضروب الكلام المعروفة عندالعرب.

وقد قال المرتضى: إنّ التحدّي وقع بالإتيان بمثله في فصاحته وطريقته في النظم، ولم يكن بأحد الأمرين، فلو وقعت المعارضة بشعر منظوم أوبرجز منظوم أو بمنثور من الكلام ليس له طريقة القرآن في النظم، لم تكن واقعة موقعها، والصرفة على هذا إنّما كانت بأن يسلب الله كل من رام المعارضة، للعلوم التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم. ولهذا لايصاب في كلام العرب مايقارب القرآن في فصاحته ونظمه.

وأمّا القائلون بأنّ إعجاز القرآن بالنظم المخصوص، قالوا: وجدنا الكلام منظوماً ومنثوراً والمنظوم هوالشعر، وأكثر الناس لايقدرون عليه، فجعل الله معجز نبيّه النمط الذي يقدر عليه كلّ أحد ولا يتعذّر نوعه في كلّهم، وهوالذي ليس بمنظوم، فيلزم حجّته الجميع.

* * *

قال: والذي يجب أن يعلم ـ في العلم بإعجاز القرآن ـ هو أن يعلم مباني

الكلام وأسباب الفصاحة في ألفاظها، وكيفيّة ترتيبها، وتباين ألفاظها، وكيفية الفرق بين الفصيح والأفصح، والبليغ والأبلغ، وتعرف مقادير النظم والأوزان، ومابه يبين المنظوم من المنثور وفواصل الكلام، ومقاطعه، ومبادئه، وانواع مؤلّفه ومنظومه.

ثمّ ينظر فيما أتى به حتى يعلم أنّه من أيّ نوع هو، وكيف فضّل على ما فضّل عليه من أنواع الكلام، حتى يعلم أنّه من نظم مباين لسائر المنظوم، ونمط خارج من جملة ما كانوا اعتادوه فيما بينهم، من انواع الخطب والرسائل والشعر والمنظوم والمنثور والرجز والمخمّس والمزدوج والعريض والقصير.

فإذا تأمّلت ذلك وتدبّرت مقاطعه ومفاتحه، وسهولة ألفاظه، واستجماع معانيه، وأنّ كلّ واحد منها لوغيّرت لم يمكن أن يؤتى بدلها بلفظة هي أوفق من تلك اللفظة، وأدلّ على المعنى منها، وأجمع للفوائد والزوائد منها.

وإذا كان كذلك، فعند تامّل جميع ذلك، يتحقّق مافيه من النظم اللائق، والمعاني الصحيحة التي لايكاد يوجد مثلها على نظم تلك العبارة، وإن اجتهد البليغ والخطيب.

* * *

قال: وفي خواص نظم القرآن وجوه:

أوّلها: خروج نظمه عن صورة جميع أسباب المنظومات، ولولا نزول القرآن لم يقع في خلد فصيح سواها، وكذلك قال عتبة بن ربيعة لمّا اختاره قريش للمصير الى النبي (عليه السلام)، قرأ عليه حم السجدة، فلمّا انصرف قال: سمعت انواع الكلام من العرب، فما شبّهته بشيء منها، إنّه وردعليّ ماراعني. ونحوه ماحكى الله عن الجنّ. فلمّا عَدُمَ وجود شبيه القرآن من انواع المنظوم، انقطعت اطماعهم عن معارضته.

والخاصّة الثانية: في الروعة التي له في قلوب السامعين، فمن كان مؤمناً يجد

شوقاً إليه وانجذابا نحوه، وحكي أنّ نصرانياً مرّ برجل يقرأ القرآن فبكى فقيل له: ما أبكاك ؟ قال: النظم.

والثالثة: أنه لم يزل غضّاً طريّاً لا يخلق ولا يملّ تاليه. والكتب المتقدّمة عارية عن رتبة النظم، وأهل الكتاب لايدّعون ذلك إليها.

والرابعة: أنّه في صورة كلام هو خطاب لرسوله تارة ولخلقه اخرى.

والخامسة: مايوجد من جمعه بين الأضداد، فإنّ له صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادّين.

والسادسة: ماوقع في أجزائه من امتزاج بعض انواع الكلام ببعض، وعادة ناطقي البشر تقسيم معاني الكلام.

والسابعة: أنّ كلّ فضيلة من تأسيس اللغة في اللسان العربي هي موجودة في القرآن.

والثامنة: عدم وجود التفاضل بين بعض أجزائه من السور، كما في التوراة كلمات عشر تشتمل على الوصايا، يستحلفون بها لجلالة قدرها. وكذا في الإنجيل أربع صحف، ومحاميد ومسابيح يقرأونها في صلواتهم.

والتاسعة: وجود مايحتاج العباد الى علمه من اصول دينهم وفروعه، من التنبيه على طرق العقليّات، وإقامة الحجج على الملاحدة والبراهمة والثنويّة، والمنكرة للبعث القائلين بالطبائع بأوجز كلام وأبلغه. ففيه من أنواع الإعراب والعربيّة، والمحكم والمتشابه، والحقيقة والمجاز، والناسخ والمنسوخ. وهو مهيمن على جميع الكتب المتقدّمة.

والعاشرة: وجود قوام النظم في أجزائه كلّها، حتى لايظهر في شيء من ذلك تناقض ولا اختلاف، وله خواصّ سواها كثيرة[١].

* * *

---

(١) بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ١٣١- ١٣٩. والخرائج والجرائح متقطعاً: ج ٣ ص ٩٧١- ١١٠٦.

قال: واعلم إنّه قد تضمّن القرآن ـ والأحاديث الصحيحة ـ الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فأمّا الماضية فكالإخبار عن أقاصيص الأوّلين والآخرين. من غير تعلّم من الكتب المتقدّمة، على ماذكرنا.

وأمّا المستقبلة فكالإخبار عمّا يكون من الكائنات، وكان كما أخبر عنها على الوجه الذي أخبر عنها على التفصيل، من غير تعلّق بما يستعان به على ذلك، من تلقين ملقّن وإرشاد مرشد، أو حكم بتقويم أو رجوع الى حساب كالكسوف والخسوف، ومن غير اعتماد على اصطرلاب وطالع، وذلك قوله تعالى: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[1].

وكقوله: «مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ»[2].

وكقوله: «سَيُهزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبر»[3].

وكقوله: «لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوكَانَ بَعْضُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»[4].

وكقوله: «فَإن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعلُوا»[5].

وكقوله: «وَعَدَكُمْ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونها ـ الى قوله ـ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا»[6].

ونحو ذلك من الآيات، وكان كلّها كما قال.

* * *

ووجه آخر، وهو ما في القرآن ـ والأحاديث ـ من الإخبار عن الضمائر:

كقوله: «إِذْ هَمَّت طَائفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا»[7]، من غير أن ظهر منهم قول أو فعل بخلاف ذلك.

وكقوله: «وَإذا جَاؤكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ»[8].

---

(١) التوبة: ٣٣. (٢) الروم: ٣ـ٤ (٣) القمر: ٤٥. (٤) الإسراء: ٨٨.
(٥) البقرة: ٢٤. (٦) الفتح: ٢٠ـ ٢١. (٧) آل عمران: ١٢٢. (٨) المجادلة: ٨.

وكقوله: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ» [١] يخبرهم بما يريدون في أنفسهم وما يهمّون به.

وكعرضه تمنّي الموت على اليهود في قوله: «فتَمَنَّوا الْمَوْتَ إن كُنْتُم صادقين ـ الى قوله ـ وَلا يَتَمَنَّونَهُ أَبَدا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم» [٢] فعرفوا صدقه، فلم يجسر أحدهم أن يتمنّى الموت، لأنّه (صلى الله عليه وآله) قال لهم: إن تمنّيتم الموت متّم. فدلّ جميع ذلك على صدقه بإخباره عن الضمائر [٣].

١٠ـ كلام الزملكاني:

ولكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني (توفي سنة ٦٥١) كلام لطيف في وجه إعجاز القرآن، يرى أنّه من جهة سبكه ونظمه الخاصّ، من اعتدال مفرداته تركيباً وزنة، وإعتلاء مركّباته معنىً. ولعلّه يقرب من اختيار المتأخرين على ماسنذكر، أورده في صدر كتابه الذي وضعه للكشف عن إعجاز القرآن [٤]

قال: لمّا كانت ترجمة هذا الكتاب مؤذنة بكونه كاشفاً عن إعجاز القرآن احتيج الى بيان ذلك فنقول: «الأكثر على أنّ نظم القرآن معجز خلافاً للنظّام، فإنّه قال: إنّ الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم، إذ نثرهم ونظمهم لا يخفى ما فيه من الفوائد، ومن ثمّ قالوا: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذا إن هَذا إلّا ساطيرُ الأوّلين» [٥]. وهذا على حدّ ما جعل الله سلب زكريّا (عليه أفضل السلام) النطق ثلاثة أيّام من غير علّة آيةً، أو أنّهم لم يحيطوا به علماً على ماقال تعالى: «بَلْ كَذَّبوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوْا بِعِلْمِهِ» [٦].

وهذا خلف من القول، إذ لو كان كذلك لكان ينبغي أن يتعجّبوا من

(١) الأنفال: ٧.
(٢) الجمعة: ٦-٧.
(٣) الخرائج والجرائح: ج ٣ ص ١٠٢٧ - ١٠٢٩ وراجع مختصره: ص ٢٦٧.
(٤) وكتابه هو: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. ذكر ذلك في ص ٥٣.
(٥) الأنفال: ٣١.
(٦) يونس: ٣٩.

حالهم دونه، فإنّ من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين يحبس الله أيديهم لا يعجب منه بل من حالهم. ولكان ينبغي أن يعارضوه بما قبل صرفهم عنه من كلامهم الفصيح، ولأنّ سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى فلا يجدي اجتماعهم قوّة وظهوراً على المعارضة، وهو مخالف لقوله تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»[1]. وأمّا قصّة زكريّا فحجّة له فيما نحن بصدده، إذ الآية كانت في سلبه النطق لا في نطق غيره...

وإذا ثبت كونه معجزاً تعيّن أن يكشف عن جهة الإعجاز إذ لا يصحّ التحدّي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدّي. ولو كان كذلك لأمكن كلّ أحد أن يتحدّى.

قال: فإذن إعجازه إمّا من جهة ذوات الكلم، أو عوارضه من الحركات، أو مدلوله، أو المجموع أو التأليف أو أمر خارج عن ذلك. والأوّل والثاني باطلان، إذ صغير العرب يمكنه ذلك. وأمّا المدلول فليس صنيع البشر ولا يقدرون على إظهار المعاني من غير ما يدل عليه. وأمّا المجموع فالكلام عليه كالكلام على ما سبق. وأما الخارجي فباطل إلّا على رأي النظّام، وقد عرف..

قال: فتعيّن أن يكون الإعجاز نشأ من جهة التأليف الخاصّ به لا مطلق التأليف، وذلك بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنةً وعلت مركّباته معنىً. وهذا القسم الذي عقد له علم البيان، ومن ثمّ سلك من رسخ قدمه في الحماقة التأليف عند قصد المماثلة، من ذلك ما حكي عن مسيلمة أنّه قال: «الفيل ما الفيل، وما ادراك ما الفيل، له ذنب وثيل وخرطوم طويل». وحكي أنّ اعرابياً حضر صلاة جماعة فقدّم فقرأ في الأُولى -بعد الفاتحة-: ألا يا مهلك الفيل، ومن سار مع الفيل، وكيد القوم في تبّ وتضليل، بطير صبّه الله على الفيل أبابيل، ضحى من طين سجّيل، فصار القوم في قاع كعصف ثم مأكول. وقرأ في

---

(١) الاسراء: ٨٨.

الثانية: قد أفلح من هينم في صلاته وأطعم المسكين من مخلاته واجتنب الرجس وفعلاته، بورك في بقره وشاتِهِ... ولم يشك الجمع في أنّ ماقراه سورتان من القرآن.

فإن قلت: لم لا يجوز أن يكون إعجازه نشأ من جهة ما فيه من الأنباء السالفة واللاحقة ولم يكن ذلك شأن العرب..

قلت: قد ذهب الى هذا المذهب قوم، لكن ليس الإعجاز منحصراً في ذلك، بل نظمه المخصوص معجز على ماقال تعالى: «لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»، والمراد النظم بدليل «فَأْتوا بِسورَةٍ مِن مِثْلِهِ» وليس في كل سورة إخبار بالغيب، دلّ على أنّ المراد نظمه.

فإن قلت: الضمير في «مثله» عائد الى الله تعالى.

قلت: يضعّفه قوله تعالى «قُلْ فَأْتُوا بعَشْرِ سَوَرٍ مِثْلِه»[1] والسياق واحد.

فإن قلت: الواحد من العرب قد يؤلّف الخطبة أو القصيد ويعجز غيره عن مثلها، ولم يعد ذلك معجزاً، كما تراه من خطب علي عليه السلام وكلام قسّ وشعر امرئ القيس والأعشى وغيرهما من المتقدّمين والمتأخّرين. ولقد ألّف الناس كتباً في الفنون وصنّفوا خطباً اعترف بأنّها يتيمة دهر و فريدة عصر!

قلت: أين النبع من الغَرَب، والصبر من الضَرَب[2] وهل يحتوي كتاب أو يشتمل خطاب على ما اشتمل عليه كتاب الله تعالى من سهولة لفظ وجزالته وبلاغة معنى وغرابته، وعجائب لا تنقضي وعرائس في نفائس الحلي تنجلي، ومن ثمّ قالوا: «انّ له لحلاوة وأنّ عليه لطلاوة وأنّ أسفله لمعرق وأنّ أعلاه لمثمر». وعن ابن مسعود: «اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات

---

(١) هود: ١٣.

(٢) النبع: شجر للقسي والسهام ينبت في رؤوس الجبال. والغرب: نبت ضعيف ينبت على الأنهار. الصبر: عصارة شجر مرّ. الضَرَب: العسل.

أتأنّق فيهنّ». أي اتتبّع محاسنهنّ. لم يقل ذلك من أجل أوزان الكلمات ولا من أجل اعرابها ولا من أجل الفواصل في أواخر الآيات، ولا من أجل التأليف فقط، بل ذلك راجع الى دقّة النظم مع زيادة الفائدة.

هذا وأنه لصادر على لسان من لم يمارس الخط والخطب وينافس في معرفة الدّر من المخشلب[1]. وإذا جعلت الكلمات اليسيرة من عيسى (عليه السلام) آية، مع أنّها الجارية من الأكابر عادة، فلئن تجعل الغايات الكثيرة والسورة الطويلة المشتملة على أصناف فنون الآداب والفصاحة والبلاغة التي يعجز عنهما الوصف ويكلّ دونهما حدّ الطرف، من رجل حاله ماسبق، أحرى وأولى.

وسأوضّح لك ذلك بشيء من دقيق المسالك، منه فواتح السّور التي هي حروف هجاء وإذا نظرتها ببادي الرأي وجدتها ممّا يكاد يمجّه السمع ويقلّ به النفّع، مع أنّها من الحسن ترفل في أثواب الحبر ويقصر عنها دقيق النظر، وذلك من وجوه:

الأوّل: إنّها كالمهيّجة لمن سمعها من الفصحاء والموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل والأخذ في التفاضل. ألا تراها بمنزلة زمجرة الراعد قبل الماطر في الاعلام لتعي الأرض فضل الغمام وتحفظ ما أفيض عليها من الأنعام وتخاف مواقع الانتقام بما فيه من العجمة التي لا تؤلّف الكلام.

وما هذا شأنه خليق بالنظر فيه والوقوف على معانيه بعد حفظ مغانيه. بل حكم الدواعي الجبليّة أن تبعث على ذلك اضطراراً لا اختياراً، لا سيّما وهي صادرة عن رجل عليه مهابة وجلالة قد قام مقام أُولي الرسالة وكشف ماهم عليه من الجهالة والضلالة وتواعدهم بأنّ الهلكات نازلة بهم لا محالة.

الثاني: التنبيه على أنّ تعداد هذه الحروف ممّن لم يمارس الخطّ ولم يعان النظر فيه، على ماقال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلَا تَخُطُّهُ

---

(١) يقال: أراه الدّر مخشلباً، وهو: خرز من محارة البحر وليس بدر.

بِيَمِينِكَ »[١].

متنزّل منزلة الأقاصيص عن الأُمم السالفة ممّن ليس له اطلاع على ذلك.

الثالث: انحصارها في نصف اسماء حروف المعجم، لأنّها اربعة عشر حرفاً وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون.

الرابع: مجيؤها في تسع وعشرين سورة بعدد الحروف.

الخامس: كما روعي تنصيفها باعتبار هجائها روعي تنصيفها باعتبار اجناسها، كالمجهورة، وهي ماعدا قولك: «ستشحثك خصفه» وهذه «المهموسة» والرخوة، وهي ماعدا قولك: «أجدك قطبت» وهي «الشديدة» ومابينهما، وهي قولك: «لم يرعونا» والمطبقة، وهي الضاد والظاء والصاد والطاء. والمنفتحة (وهي ماعداها). والمستعلية، وهي مافي قوله: «ضغط خص قظ» والمنخفضة (وهي ماعداها). وحروف القلقلة وهي قولك: «قد طبج».

فإن قلت: هذه لايمكن تنصيفها. قلت: إذا كان الجنس حروفه مفردة فاسقط منه حرفاً كما سبق في حروف الهجاء ثم نصّفه فتجد نصفه الأخفّ والأكثر استعمالاً فيها.

ومن وقف على ذلك علم أن هذا القرآن ليس من كلام البشر وجزم بأنّه كلام خالق القوى والقدر. فإنّ المتبحّر في معرفة الحروف وتصرّف مخارجها الخفيف والثقيل وعدد أجناسها لا يهتدي الى هذا النظر الدقيق.

وممّا يشدّ من عضد ماذكرناه أنّ الألف واللام والميم يكثرن في الفواتح مالم يكثر غيرها من الحروف لكثرتها في الكلام. ولأنّ الهمزة من الرئة فهي من أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من

---

(١) العنكبوت: ٤٨.

الفم، فصوتها يملأ ماورائها من فضاء الفم. والميم مطبقة لأنّ مخرجها من الشفتين إذا أُطبقتا فرمز بهنّ الى باقي الحروف.. وكذلك لسائر الحروف الفواتح شأن ليس لغيرها.

قال: و وراء ذلك من الأسرار الإلهيّة مالا تستقلّ بفهمه البشريّة... ومن تدبّر بعض آيات الكتاب العزيز علم أنّ جوهره أصفى من الإبريز وأنّه المعجز الجامع للمعاني الجمّة في اللفظ الوجيز...

قال: وإن أردت مثالاً في ذلك فعليك بسورة الفاتحة فإنّها عنوان مقاصد القرآن و به سمّيت أُم القرآن لجمعها مقاصده ولذلك جعلت مفتتحه و به سمّيت الفاتحة والكافية(١).

١١ـ اختيار ابن ميثم:

قال كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (٦٣٦ـ ٦٩٩) شارح نهج البلاغه: اختلف المتكلّمون في سبب إعجاز القرآن، فذهب أكثر المعتزلة الى أنّ سببه فصاحته البالغة. وذهب الجويني الى أنّه الفصاحة والاسلوب، ولذلك كان في شعر العرب وخطبهم ما فصاحته كفصاحة القرآن دون أُسلوبه. وكان في كلامهم ما أُسلوبه كاسلوبه دون فصاحته...

وذهب المرتضى (رحمه الله) الى أنّ الله صرف العرب عن معارضته. وهذا الصرف يحتمل:

١ـ أن يكون لسلب قدرهم.

٢ـ ويحتمل أن يكون لسلب دواعيهم.

٣ـ ويحتمل أن يكون لسلب العلوم التي يتمكّنون بها من المعارضة

ونقل عنه أنّه اختار هذا الاحتمال الأخير.

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ص٥٣ـ ٦١.

والحقّ أن وجه الإعجاز هو مجموع الأُمور الثلاثة، وهي: الفصاحة البالغة، والاسلوب، والاشتمال على العلوم الشريفة.

فأمّا كلام العرب فيوجد في بعضه الفصاحة البالغة، وأمّا الاسلوب فنادر وممكن عند التكلّف، وقلّما يمكن اجتماعهما، لأنّ تكلّف الاسلوب يذهب بالفصاحة.

وأمّا العلوم الشريفة الموجودة في القرآن فتعود الى علم التوحيد، وعلم الاخلاق، والسياسات، وكيفيّة السلوك الى الله، وعلم احوال القرون الماضية. فربما وجد في كلام بعض حكمائهم كقَسّ بن ساعدة ونحوه ممّن قرأ الكتب الإلهيّة السابقة، شيء من تلك العلوم، فيكون ذلك منه على سبيل النقل. ومع ذلك فلا يوجد معه أُسلوب القرآن وفصاحته.

والحاصل: أنّ كلامهم قد يوجد فيه ما يناسب بعض القرآن في الفصاحة، وهو في مناسبته له في الاسلوب أبعد.

وأمّا في العلوم والمقاصد التي اشتملت عليها فأشدّ بعداً، فإنّ للقرآن باطناً وظاهراً كما قال (صلى الله عليه وآله): إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً، فيأخذ كلّ منه حسب فهمه واستعداده.

وفيه آيات كثيرة بشّرت وأنذرت بحوادث مستقبلة، وذلك ممّا لا يفي به القوّة البشرية إلّا بتأييد ووحي إلهي، فتكون تلك ممتنعة في كلامهم، فضلاً أن يعبّروا عنها بما يناسب لفظ القرآن في فصاحته وأُسلوبه...[1].

١٢ـ تحقيق الامير العلوي:

ولصاحب الطراز الأمير يحيى بن حمزة العلوي الزيدي (توفي سنة ٧٤٩) تحقيق مستوعب عن مسألة إعجاز القرآن وعن وجوهه المتنوّعة على أُسلوب أدبيّ

---

(١) قواعد المرام في علم الكلام: ص ١٣٢ـ ١٣٣.

كلاميّ لم يسبق لمثله نظير في مثل تحقيقه، والبحث عن مزايا المسألة وزواياها، بحثاً مستوفى مستقصى، فنقتطف منه ما يناسب المقام، ونؤجّل تمامه الى سائر المباحث من فصول قادمة إن شاء الله...

إنّه (رحمه الله) وضع خاتمة كتابه (الطراز) لذكر التكميلات اللاحقة لفنون البديع - وهو الفنّ الثالث منها - وجعله على أربعة فصول: الاول: في فصاحة القرآن بالذات..

(وقد ألحقنا هذا الفصل بحقل الدلائل على الإعجاز في القسم الثاني الآتي من الكتاب) والذي نذكره هنا هو الفصل الثاني في كون القرآن معجزاً.. وكذا الفصل الثالث في بيان وجوه إعجاز القرآن..

أمّا الفصل الرابع - في ردّ المطاعن على القرآن - فقد أجّلناه الى مجاله المناسب الآتي. واليك الآن الفصلين الثاني والثالث، قال:

الفصل الثاني: في بيان كون القرآن مُعجزاً

اعلم أن الكلام في هذا الفصل وإن كان خليقاً بإيراده في المباحث الكلاميّة، والأسرار الإلهية، لكونه مختصاً بها ومن أهم قواعدها، لما كان علامةً دالةً على النُبُوَّة و تصديقاً لصاحب الشريعة حيث اختاره الله تعالى بياناً لمعجزته وعلَماً دالا على نبوّته وبُرْهاناً على صحّة رسالته، لكن لايخفى تعلّقه بما نحنُ فيه تعلّقا خاصّاً، والتصاقاً ظاهراً، فإنّ الأَخْلَق بالتحقيق أنّا إذا تكلّمنا على بلاغة غاية الإعجاز بتضمّنه لأفانين البلاغة، فالأحقُّ هو إيضاحُ ذلك، فنُظْهِرُ وجه إعجازه، وبيانَ وجه الإعجاز، وإبراز المَطَاعِن التي للمُخَالفين، والجواب عنها، والذي يُقْضَى منه العَجب، هو حالُ علماء البيان، وأهل البراعة فيه عن آخرهم، وهو أنّهم أغفلوا ذكر هذه الأبواب في مصنّفاتهم بحيث أنّ واحداً منهم لم يذكره مع ما يظهرُ فيه من مزيد الاختصاص وعِظَم العُلْقَة، لأنّ ما ذكروه من تلك الأسرار المعنويّة، واللطائف البيانيّة من البديع

وغيره، إنّما كانت وُصْلَةً وذَريعَةً الى بيان السِّرِّ واللبَاب، والغرض المقصودُ عند ذوي الألباب، إنّما هو بيان لطائف الإعجاز، وإدراكُ دقائقه، واستنهاضُ عجائبه، فكيف ساغَ لهم تركها وأعرضوا عن ذكرها، وذكروا في آخر مصنّفاتهم ما هو بمعزل عنها، كذكر مخارج الحرُوف وغيرها ممّا ليس مُهِمّاً، وإنّما المُهِمّ ماذكرناه، ثم لو عَذَرْنا مَن كان منهم ليس له حظّ في المباحث الكلاميّة، ولا كانت له قدَمٌ راسخة في العلوم الإلهية، وهم الأكثرُ منهم كالسّكاكي، وابن الأثير، وصاحب التبيان، وغيرهم ممّن برّز في علوم البيان، وصَبَغ بها يَدَه، وبلغ فيها جَدَّه وجَهْده، فما بَال مَن كان له فيها اليد الطولى، كابن الخطيب الرازي، فإنّه أعرض عن ذلك في كتابه المصنّف في علم البيان، فإنّه لم يتعرّض لهذه المباحث، ولا شمّ منها رائحة، ولكنّه ذكر في صدر كتاب النهاية كلاماً قليلاً في وجه الإعجاز لا يَنقعُ من غُلّة، ولا ينفع من علّة، فإذا تمهّد هذا فاعلم أنّ الذي يدلّ على إعجاز القرآن مسلكان:

المسلك الأول منهما: من جهة التحدّي، وتقريرُه هو أنه (عليه السلام) تحدّى به العرب الذين هُم النهاية في الفصاحة والبلاغة، والغايةُ في الطلاقة والذّلاقة، وهم قد عجزوا عن معارضته، وكلّما كان الأمر فيه كما ذكرناه فهو مُعْجِزٌ، وإنّما قلنا: إنّه (عليه السلام) تَحَدّاهمْ بالقرآن لما تَوَاتَرَ من النقل بذلك في القرآن، وقد نزّلهم الله في التحدّي على ثلاث مراتب:

الأُولى: بالقرآن كلّه، فقال تعالى: «قلْ لَئن اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أَنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتُونَ بِمِثْلِه ولوكانَ بَعْضُهُمْ لبعْضٍ ظهيراً».

الثانية: بعشر سُوَرٍ منه كما قال تعالى: «أمْ يقولونَ افتَرَاه قُلْ فأتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ».

الثالثة: بسُورة واحدة كما قال تعالى: «فأتُوا بسُورةٍ منْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ الله» ثمّ قال بعد ذلك «فإن لمْ تَفْعَلوا ولَنْ تَفْعلوا» فنفى

القدرة لهم على ذلك بقضية عامّة، وأمرٍ حَتْمٍ لا تردُّدَ فيه.

فدلّت هذه الآيات على التحدّي، مرّةً بالقرآن كلّه، ومرةً بعشر سُوَر، ومرّة بسورة واحدة، وهذا هو النهاية في بلوغ التحدّي، وهذا كقول الرجل لغيره: هاتِ قوماً مثل قومي، هَاتِ كنِصفهم، هاتِ كَرُبْعهم، هَاتِ كواحدٍ منهم.

وإنّما قلنا: إنّهم عجزوا عن معارضته لأنّ دواعيهم متوفّرةٌ على الإتيان بها، لأنّه (عليه السلام) كلّف العرب تَرْكَ أديانهم، وحَطّ رئاستهم، وأوْجَب عليهم ما يُتْعِبُ أبدانهم، ويَنْقُصُ أموالَهم، وطالبَهَم بعداوة أصدقائهم، وصَدَاقَةِ أعدائهم، وخَلع الأنداد والأصنام من بين أظهرهم، وكانت أحبَّ اليهم من أنفسهم، من أجل الدين، ولا شك أنَّ كلّ واحدٍ من هذه الأُمور ممّا يَشُقُّ على القلوب تحمّلهُ، ولاسيّماً على العرب مع كثرة حَميّتِهِم وعظيم أَنفَتهِمْ، ولا شكّ أنّ الإنسان اذا استنْزَلَ غيره عن رئاسته، ودعاه الى طاعته، فإنَّ ذلك الغيرَ يُحاولُ إبطال أمره بكلّ ما يَقْدر عليه ويجدُ اليه سبيلا.

ولمّا كانت معارضة القرآن بتقدير وقوعها مُبْطلةً لأمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، علمنا لا محالة قطعا توفّرَ دواعي العرب عليها، وإنما قلنا: إنه ما كان لهم مانعٌ عنها لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان في أوّل أمره بحيث تَخَاف قهره كلُّ العرب، بل هو الذي كان خائفا منهم، وإنّما قلنا: إنّهم لم يُعارضوه لأنّهم لو أتوا بالمعارضة لكان اشتهارُها أحقّ من اشتهار القرآن لأنّ القرآن حينئذٍ يَصير كالشبهة وتلك المعارضة كالحجة، لأنّها هي المُبْطلة لأمره، ومتى كان الأمر كما قلناه وكانت الدواعي متوفّرةً على إبطال ابّهَةَ المدّعى وإبطال رونقه، وإزالة بهائه، كان اشتهارُ المعارضة أولى من اشتهار الأصل، فلمّا لم تكن مشتهرة علمْنا لا محالَةَ بُطلانها، وأنّها ما كانت، وإنّما قلنا: إنَّ كلّ من توفّرتْ دواعيه الى الشيء ولم يُوجَدْ مانع منه، ثمّ لم يتمكّن من فعله، فإنّه يكون عاجزاً، لأنّه لا معنى للعجز إلّا ذاك، وبهذا الطريق نَعْرِف عجْزَنا عن

كلّ ماتعْجزُ عنه كخلق الصور والصفات، ويؤيّد ماذكرناه من عجزهم ويوضّحه، أنّهم عدلوا عن المعارضة الى تعريض النفس للقتل، مع أنّ المعارَضةَ عليهم كانت أسهل وما ذاك إلّا لمّا أحسُّوا به من العجز من أنفسهم عنها، فثبت بما ذكرناه كونُ القرآن معجزاً، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة الواردة عليها والانفصال عنها..

ثمّ جعل يورد أسئلة ثمانية للملاحدة حاولوا فيها اخفاء وجه الإعجاز في القرآن.. وأجاب عن كلّ واحدة منها إجابة وافية على أُسلوب منهجي رتيب، أبدى خلالها جوانب لامعة من إعجاز القرآن، قد أجّلناها الى بحث الدلائل على الإعجاز، فانتظر.

المسلك الثاني: في الدلالة على أنّ القرآن معجز من جهة العادة وتقريرُه أنّ الاتيان بمثل كلّ واحدة من سور القرآن، لا يخْلُو حالُه إمّا أن يكون معتاداً، أو غير معتاد، فإنْ كان معتاداً كان سكوتُ العرب مع فصاحتهم وشدّة عداوتهم للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومع توفّر دواعيهم على إبطال أمره، والقدْح في دعواه بمبلَغ جَهْدهم وجدّهم، يكون لامحالةَ من أَبْهَرِ المعجزات، وأظهر البيّنات على عجزهم عن الاتيان بمثل سورة منه.

وأمّا إن لم يكن معتاداً، كان القرآن مُعْجزاً، لخروجه عن المألوف والمعتاد، فثبت بما ذكرناه أنّ القرآن سواء كان خارقاً للعادة أو لم يكن خارقاً، فإنّه يكون مُعْجزا، وهذه نكتة شريفةٌ حاسِمةٌ لأكثر أسئلة المنكرين التي يوردونها على كونه خارقاً للعادة كما ترى.

الفصل الثالث: في بيان الوجه في إعجاز القرآن

اعلم أن الكلام في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً دقيقٌ، ومن ثمّ كثرت فيه الأقاويلُ واضطربت فيه المذاهب، وتفرّقوا على انحاءٍ كثيرة، فلنذكّر ضبط المذاهب، ثم نُرْدفه بذكر ما تحتمله من الفساد، ثمّ نذكر على أثَرِهِ المختارَ منها، فهذه مباحث ثلاثة:

المبحث الأوّل: في الإشارة الى ضبط المذاهب في وجه الإعجاز فنقول: كون القرآن معجزاً ليس يخلو الحال فيه، إمّا أن يكون لكونه فعلاً من المعتاد، أو لكونه فعلاً لغيرالمعتاد، فالأوّل هوالقول بالصِّرفَةِ، ومعنى ذلك أنّ الله تعالى صَرَف دواعيهم عن معارضة القرآن مع كونهم قادرين عليها، فالإعجازُ في الحقيقة إنّما هو بالصّرفة على قول هؤلاء، كما سنحقق خلافهم في الردّ عليهم بمعونة الله تعالى، ونذكر من قال بهذه المقالة، وإن كان الوجه في إعجازه هو الفعل لغير المعتاد، فهو قسمان:

القسم الأوّل: أن يكون لأمر عائد الى ألفاظه من غيردلالتها على المعاني، ثم هذا يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون مشترطاً فيهم اجتماع الكلمات وتأليفها، وهذا هو قول من قال: الوجهُ في إعجازه هو اختصاصه بالأُسلوب المفارقْ لسائر الأساليب الشعرية والخَطابيّة، وغيرهما، فإنّه مختصّ بالفواصل والأسجاع، فمن أجل هذا جعلنا هذا الوجه مختصّاً بتأليف الكلمات.

وثانيهما: أن يكون إعجازُه لأمر راجع الى مفردات الكلمات دون مؤلّفاتها، وهذا هو رأيُ من قال: إنّه إنّما صار معجزاً من أجل الفصاحة، وفسّر الفصاحة بالبراءةعن الثقل والسّلامة عن التعقيد، واختصاصه بالسلاسة في ألفاظه.

القسم الثاني: أن يكون إعجازُه إنّما كان لأجل الألفاظ باعتبار دلالتها على المعاني، وهذا هوقول من قال: إنّ القرآن إنّما كان معجزاً لأجل تضمّنه من الدلالة على المعنى، وهذا القسم يمكن تنزيلُه على أوجه ثلاثة:

الوجه الأوّل: أن تكون تلك الدلالةُ على جهة المُطابَقةِ وفيه مذاهبُ ثلاثة:

أوّلها: أن يكون لأمر حاصل في كلّ ألفاظه، وهذا هو قولُ من قال: إنّ وجه إعْجازه، هو سلامتهُ عن المناقضة في جميع ما تضمّنه.

وثانيها: أن يكون لأمر حاصلٍ في كلّ ألفاظه وأبعاضها، وهذا هو قول من قال: إنّ إعجازَه إنّما كان لما فيه من بيان الحقائق والأسرار، والدقائق ممّا يكون العقلُ مشتغلاً بدَرْكها، فإنّ العلماءَ مِنْ لُدُنْ عَصْرِ الصحابة (رضي الله عنهم) الى يومنا هذا ما زالوا يستَنْهِضُون منه كلّ سرٍّ عجيب، ويستنبطون من ألفاظه كلّ معنى لطيف غريب، فهذا هو الوجه في إعجازه على رأي هؤلاء.

وثالثها: أن يكون وجه إعجازه لأمرٍ حاصلٍ في مجموع ألفاظه وأبعاضها، ممّا لا يستقلّ بدركه العقل، وهذا هو قول من قال: إنّ الوجه في إعجازه ما تضمّنه من الأُمور الغيبيّة، واللطائف الإلهية، التي لا يختصّ بها سوى علّامِها، فهذه هي أقسامُ دلالة المطابقة، تكون على هذه الأوجه الثلاثة التي رمزنا إليها.

الوجه الثاني: أن تكون تلك الدلالة على جهة الالتزام، وهذا مذهبُ من يقول: إنّ القرآن إنّما كان معجزاً لبلاغته، وفسّر البلاغة باشتمال الكلام على وجوه الاستعارة، والتشبيه المضمر الأداة، والفصل، والوَصْل، والتقديم، والتأخير، والحذف، والإضْمار، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك من فنون البلاغة.

الوجه الثالث: أن تكون تلك الدلالةُ من جهة تضمّنه لما يتضمّنه من الأسرار المُودَعة تحت ألفاظه التي لا تزال على وجهِ الدّهر غَضَّةً طَرِيَّة يجتليها كلُّ ناظر ويعلُو ذِروتها كلّ خرِّيتٍ مَاهِر، فظهر بما لخّصناه من الحصر أنّ كون القرآن معجزاً، إمّا أن يكون للصّرْفة، أو للنظم، أو لسلامة ألفاظه من التعقيد، أو لخُلُوّه عن التناقض، أو لأجْل اشتماله على المعاني الدقيقة، أو لاشتماله على الإخبار بالعلوم الغيبية، أو لأجل الفصاحة والبلاغة، أو لما يتركّب من بعض هذه الوجوه أو من كلّها، كما فصّلناه من قبل، ونحنُ الآن نذكر كلّ واحد من هذه الأقسام كلّها، ونبطله سوى ما نختارُه منها والله الموفق.

المبحث الثاني: في إبطال كلّ واحد من هذه الأقسام التي ذكرناها سوى ما نختار منها.

وجملة ما نذكره من ذلك مذاهب:

المذهب الأوّل منها: الصّرْفة، وهذا هو رأي أبي إسحاق النظّام، وأبي إسحاق النّصيبي، من المعتزلة واختاره الشريف المرتضى من الإماميّة، واعلم أنّ قول أهل الصّرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة، لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضّحه.

(ذكرنا التفاسير الثلاثة عند الكلام عن مذهب الصرفة).

ثم قال: وحاصل الأمر في هذه المقالة، أنّهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلّا أنّ الله تعالى منعَهم بما ذكرناه، قال: والذي غَرَّ هؤلاء حتّى زعموا هذه المقالة، مَا يَروْنَ من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكلّ الأساليب البلاغيّة في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أنّ كلّ من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لا يقصر عن معارضته، خَلا ما عَرَض من منع الله إيّاهم بما ذكرناه من الموانع، والذي يدلّ على بطلان هذه المقالة براهين.

(نقلنا براهينه الثلاثة ضمن دلائل العلماء على دحض شبهة الصرفة).

المذهب الثاني: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه إنّما هو الأُسلوب، وتقريره أنّ اسلوبه مخالف لسائر الأساليب الواقعة في الكلام، كأُسلوب الشعر، واسلوب الخُطَب والرسائل، فلمّا اختصّ باسلوب مخالف لهذه الأساليب، كان الوجه في إعجازه. وهذا فاسدٌ لأوجه:

أوّلها: أنّا نقول: ما تريدون بالأُسلوب الذي يكون وجهاً في الإعجاز، فإن عَنيْتُم به اسلوباً أيَّ اسلوب كان، فهو باطلٌ، فإنّه لو كان مطلقُ الأُسلوب معجزاً، لكان اسلوب الشعر معجزاً، وهكذا اسلوب الخطب والرسائل، يلزمُ كونه معجزاً، وإنْ عَنيْتُم اسلُوباً خاصاً، وهو ما اختصّ به من البلاغة والفصاحة، فليس إعجازُه من جهة الأُسلوب، وإنّما وجهُ إعجازه الفصاحة والبلاغة كما سنوضّحه من بعد هذا عند ذكر المختار، وإنْ عنَيْتم بالأُسلوب أمراً

آخرَ غير ماذكرناه فمِنْ حقِّكم إبرازُه حتى ننظُر فيه فنُظهر صحّته أو فساده.

وثانيها: أنّ الأُسلوب لا يمنعُ من الإتيان بأُسلوب مثله، فلوكان الأمرُ كما زعمتموه، جازت معارضةُ القرآن بمثله، لأنَّ الإتيان بأُسلوب يماثله سهلٌ ويسيرٌ على كلّ أحد.

وثالثها: أنّه لوكان الإعجاز إنّما كان من جهة الأُسلوب لكان ما يحكى عن (مُسَيلمَة) الكذّاب معجزاً وهوقوله: إنّا أعطيناك الْجَواهر، فصلِّ لربِّك وجاهر، وقوله: والطّاحِنَات طَحْناً، والخابِزاتِ خبزاً، لأنّ ما هذا حالُه مختصّ بأُسلوب لامحالةَ، فكان يكون معجزاً، وأنّه محالٌ.

ومن وجهٍ رابعٍ وهو أنه لوكان وجهُ إعجازه الأُسلوب، لما وقع التفاوتُ بين قوله تعالى، «وَلَكُمْ في الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»[1] وبين قول الفصحاء من العرب (القَتْلُ أنفى للقتل) لأنّهما مستويان في الأُسلوب، فلمّا وقع التفاوت بينهما دلّ على بطلان هذه المقالة والله أعلم.

المذهب الثالث: قول من زعم أنّ وجه إعجازه إنّما هو خلوُّه عن المناقضة، وهذا فاسدٌ لأوجه.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ التحدّي واقع بكل واحدة من سور القرآن، وقد يوجد في كثير من الخطب، والشعر، والرسائل، ما يكون في مقدار سورة خالياً عن التناقض، فيلزم أن يكون معجزاً.

وأمّا ثانياً: فلأنّه لوكان الأمر، كما قالوه في وجه الإعجاز، لم يكن تعجُّبُهم من أجْل فصاحته، وحسن نظمه، ولوجب أن يكون تعجُّبُهم من أجْل سلامته عمّا قالوه، فلمّا علمنا من حالهم خلاف ذلك بطَلَ ما زعموه.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ السلامة عن المناقضة ليس خارقاً للعادات، فإنّه رُبّما أمكن كثيراً في سائر الازمان، وإذا كان معتاداً لم يكن العلمُ بخلُوِّ القرآن عن

---

(١) البقرة: ١٧٩.

المناقضة والاختلاف معجزاً، لِمَا كان معتاداً، ومن حقّ مايكون معجزاً أن يكون ناقضاً للعادة.

وأيضاً فإنّا نقول: جعلُكم الوجهَ في إعجازه خلوُّه عن المناقضة والاختلاف ليس عِلْماً ضروريّاً، بل لابدّ فيه من إقامة الدلالة، فيجب على مَنْ قال هذه المقالة تصحيحُها بالدلالة، لتكون، مقبولةً، وهم لم يفعلوا ذلك.

المذهب الرابع: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز اشتمالهُ على الأُمور الغيبيّة بخلاف غيره، وهذا فاسدٌ أيضاً لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإجماع منعقدٌ على أنّ التحدّي واقعٌ بجميع القرآن، والمعلومُ أنّ الحِكَمَ والآداب وسائر الأمثال ليس فيها شيء من الأُمور الغيبيّة، فكان يلزم على هذه المقالة أن لا يكون معجزاً وهو محال.

وأمّا ثانياً: فلأنّ ما قالوه يكون أعظم عذراً للعرب في عدم قدرتهم على معارضته، فكان من حقّهم أنْ يقولوا: إنّا متمكّنون من معارضة القرآن، ولكنه اشتملَ على مالا يمكنُنا معرفتهُ، من الأُمور الغيبيّة، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على بطلان هذه المقالة.

المذهب الخامس: قول من زعم أنّ الوجه في الإعجاز هوالفصاحة، وفسّر الفصاحة بسلامةِ ألفاظه عن التعقيد الحاصل في مثل قول بعضهم:

وَقَبْرِ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ
وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وهذا فاسدٌ لأمرين:

أمّا أوّلاً: فلأنّ أكثر كلام الناس خالٍ عن التعقيد في الشعر، والخطب، والرسائل، فيلزم كونها معجزةً.

وأمّا ثانياً: فلأنّه لوكان الأمر كما زعموهُ لم يفترق الحالُ بين قوله تعالى: «وَمِنْ آياتِهِ الجَوارِ في البَحْرِ كَالأعلام.إن يَشَأ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على

ظَهْرِهِ إن فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ. أو يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ»[١] وبين قول من قال: وأعظمُ العلاماتِ الباهرة جَريُ السّفُن على الماء، فإمّا أن يريدَ هبوبَ الريح فتجري بها، أو يُريدَ سكونَ الريح فترْكُدَ على ظهْره، أو يُريد إهلاكَها بالإغراق بالماء لأنّ ما هذا حالهُ من المعارضة سالمٌ عن التعقيد، فكان يلزم أن يكون هذا الكلام معارضاً للآية، لاشتراكها في الخفّة والبَراءة عن الثقَل والتعقيد.

ومن وجهٍ ثالث: وهو أنّه كان يلزم أن لا يقعَ تفاوت بين قوله تعالى: (وَلَكُم فِي القِصاصِ حياةٌ) وبين قول العرب (القتلُ أنفَى للقتل) لاشتراكهما جميعاً في السلامة عن الثقل وهذا فاسدٌ.

المذهب السادس: قول من زعم أن الوجه في الإعجاز إنّما هو اشتمالُه على الحقائق وتضمّنه للأسرار والدقائق التي لا تزال غَضَّةً طريَّةً على وجه الدهر، ما تَنَالُ لها غايةٌ، ولا يوقف لها على نهاية، بخلاف غيره من الكلام، فإنّ ما هذا حالُه غيرُ حاصل فيه، فلهذا كان وجه إعجازه، وهذا فاسدٌ أيضاً لأمرين:

أمّا أوّلا: فلأنّ الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متميّزاً به لا يشاركه فيه غيره، وما ذكرتموه من هذه الخصلة فانّها مشتركة، وبيانُه هو أنّا نرى بعض من صنّفَ كتاباً في العلوم الإسلامية واعتَنى في قَبْضه[٢] واختصاره، فإنّ مَن بَعْدَه لا يزال يَجتني منه الفوائد في كلّ وقت ويستنبطها من ألفاظه وصرائحه كما نرى ذلك في الكتب الأُصولية والكتب الدينيّة والفقهيّة، وسائر علوم الاسلام، وإذا كان الامر كما قلناه، وجب الحكم بإعجازها وهم لا يقولون به.

وأمّا ثانياً: فلأنّ قوله تعالى: «وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»[٣] ،وقوله تعالى: «فَاعْلَمْ

---

(١) الشورى: ٣٢-٣٤.

(٢) في جمعه.

(٣) البقرة: ١٦٣.

أَنَّـهُ لاَ إلهَ الا اللهُ»(١) ،وقوله تعالى: «قُل هُوَ الله أحدٌ»(٢) صريحة في إثبات الواحدانيّة لله تعالى بظاهرها وصريحها، وماعدا ذلك من المعاني لايخلو حالُه، إمّا أن يستقلّ العقلُ بدَرْكه أو لا يَسْتقلُّ بدركه،فإن استَقَلّ بدَرْكه فقد أحاط به كغيره من سائر الكلام، فلا تفرقةَ بينه وبين غيره، وإن كان لا يَسْتَقلُّ العقل بدَرْكه، فذلك هو الأُمور الغيبيّة، وهي باطلة بما أسلفناه على من قال بها، فحصل من مجموع ماذكرناه هاهنا أنّه لا وجه لجعْل دلالته على الأسرار والمعاني وجهاً في إعجازه لأنّ غيره مشارك له في هذه الخصلة، وما وقعت فيه الشركة فلا وجه لاختصاصه وجعله وجهاً في كونه، معجزاً.

المذهب السابع: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه هو البلاغة، وفسّر البلاغة باشتماله على وجوه الاستعارة، والتشبيه، والفصل، والوصل، والتقديم، والتأخير، والإضمار، والإظهار، الى غير ذلك ، وهؤلاء إن أرادوا بما ذكروه أنّه صار فصيحاً بالإضافة الى ألفاظه، وبليغا بالإضافة الى معانيه، ومختصّاً بالنظم الباهر، فهذا جيّدٌ لاغُبارَ عليه كما سنوضّحه عند ذكر المختار، وإن أرادوا أنّه بليغ بالإضافة الى معانيه دون ألفاظه، فهو خطأ، فإنّه صار معجزاً باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعاً، وغالبُ ظَني أنّ هذا المذاهب يُحكى عن أبي عيسى الرماني.

المذهب الثامن: قول من زعم أنّ الوجه في إعجازه هو النَظْمُ، وأراد أنّ نظمَه وتأليفه هو الوجهُ الذي تميّز به من بين سائرالكلام فهؤلاء أيضاً يُقال لهم ماتريدون باختصاصه بالنظم، فإن عَنَيْتُم به أنّ نَظمه هو المعجزُ من غير أن يكون بليغاً في معانيه، ولا فصيحاً في ألفاظه، فهو خطأ ، فإنّ الإعجاز شاملٌ له بالإضافة الى كلا الأمرين جميعاً، وإن عَنيْتُمْ أنّه مختصٌّ بالبلاغة والفصاحة، خلا أنّ اختصاصه بالنظم أعجبُ وأدخَلُ، فلهذا كان الوجه في إعجازه فهذا

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) الإخلاص: ١.

خطأ، فإنّ مثل هذا لا يُدْركُ بالعقل، أعني تميُّزَه بحسن النظم عن حسن البلاغة والفصاحة، وأيضاً فإنَّ ما ذكروه تحكُّمٌ لامُستَنَد له عقلاً ولا نقلاً، وأيضاً فإنّا نقولُ: هلْ يكون النظمُ وجهاً في الإعجاز مع ضمّ البلاغة والفصاحة إليه، أو يكون وجهاً من دونهما، فإن قالوا بالأول فهو جَيِّدٌ، ولكنْ لِمَ قَصَرُوه على النظم وحْدَه ولم يضمّوهما إليه، وإن قالوا: إنّه يكون منفرداً بالإعجاز من دونهما، فهذا خطأ أيضاً، فإنّ نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزاً بحال.

المذهب التاسع: مذهب من قال: إنّ وجهَ إعجازه إنّما هو مجموع هذه الأُمور كلّها، فلا قولَ من هذه الاقاويل إلّا هو مختصّ به، فلا جَرَم جعلنا الوجه في إعجازه مجموعها كلّها، وهذا فاسدٌ، فإنّا قد أبطلنا رأيَ أهل الصّرفة، و زَيّفنا كلامهم، فلا وجه لعدّه من وجوه الإعجاز، وهكذا، فإنا قد أبطلنا قول من زعم ان الوجه في اعجازه اشتماله على الإخبار بالأُمور الغيبيّة، وأبطلنا قول أهل الأُسلوب وغيره من سائر الأقاويل، فلا يجوز أن تكون معدودة في وجوه الإعجاز، لأنّ الأُمور الباطلة لايجوزُ أن تكون عِلَلاً للأحكام الصحيحة، ومن وجهٍ ثانٍ وهو أنّ الفصاحة والبلاغة إذا كانتا حاصلتين فيه فهما كافيتان في الإعجاز، فلا وجه لعدّ غيرهما معهما.

المذهب العاشر: أن يكون الوجه في إعجازه إنّما هو ما تضمّنه من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كلّ سورة؛ وفي مبادئ الآيات، وفواصلها، وهذا هو الوجه السديدُ في وجه الإعجاز للقرآن كما سنوضّح القول فيه بمعونة الله تعالى، فهذا ما أردنا ذكره من المذاهب في الوجه الذي لأجله صار القرآن معجزاً للخلق كلّهم.

المبحث الثالث: في بيان المختار من هذه الأقاويل.

والذي نختاره في ذلك ما عوّل عليه الجهَابذةُ من أهل هذا الصناعة الذين

ضربوا فيها بالنصيب الوافر، واختصّوا بالقدح المعلّى والسّهم القّامر، فإنّهم عوّلوا في ذلك على خواصّ ثلاثة هي الوجه في الإعجاز.

الخاصّة الأُولى: الفصاحة في ألفاظه على معنى أنّها بريئةٌ عن التعقيد، والثَقَل، خفيفةٌ على الألسنة تجري عليها كأنّها السلسال، رِقّةً وَصَفَاءً وعذوبة وحلاوة.

الخاصة الثانية: البلاغة في المعاني بالإضافة الى مَضْربِ كل مَثَلٍ، وَمَساقِ كلّ قصّة، وخَبَرٍ، وفي الأوامر والنواهي، وأنواع الوعيد، ومحاسن المواعظِ، وغير ذلك ممّا اشتملت عليه العلوم القرآنيّة، فإنّها مَسُوقة على أبْلغ سياق.

الخاصّة الثالثة: جودةُ النظم وحسن السياق، فإنّك تراه فيما ذكرناه من هذه العلوم منظوماً على أتمّ نظام وأحسنه وأكمله، فهذه هي الوجه في الإعجاز، والبرهانُ على ما ادّعيناه من ذلك هو أنّ الآيات التي يُذكر فيها التحدّي واردةٌ على جهة الإطلاق ليس فيها تَحَدٍّ بجهةٍ دون جهةٍ، لأنّه لم يذكر فيها أنّه تحدّاهم، لا بالبلاغة، ولا بالفصاحة، ولا بجودة النظم والسياق، ولا بكونه مشتملاً على الأُمور الغيبيّة، ولا لاشتماله على الأسرار والدقائق، وتضمّنه المحاسن والعجائب، ولا أشار الى شئ خاصٍ يكون مقصداً للتحدّي، وإنّما قال: بمثله، وبسورة، وبعشر سُوَر على الإطلاق، ثم إنَّ العرب أيضاً ما استفهموه عمّا يريد بتحدّيهم في ذلك، ولا قالوا ما هو المطلوب في تحَدّينا، بل سكتوا عن ذلك، فوجب أن يكون سكوتُهم عن ذلك لاوجه له الّا لما قد عُلم من اطراد العادات المقرّرة بين أظْهرهم أنّ الأمر في ذلك معلوم أنّه لايقع إلّا بما ذكرناه من البلاغة والفصاحة وجودة السياق والنظم، فانّ المعلوم من حال الشعراء والخطباء، وأهل الرسائل والكلام الواقع في الأنديةِ المشهودَة، والمحافل المجتمعة، أنّهم إذا تحدَّى بعضُهم بعضاً في شعْر، أو خطبةٍ، أو رسالة، فإنّه لايتحدّاه إلّا بمجموع ما ذكرناه من هذه الأُمور الثلاثة ولم يُعَهدْ قَطُّ في الأزمنة الماضية والآمادِ

المتمادية، أنّ أحداً تحدّى أحداً منهم برقّةِ شعْره، ولا باشتماله على أمور محجوبة، ولا بعدم التناقض فيها، وفي هذا دلالة كافيةٌ على أنّ تعويلهم في التحدّي إنّما هو على ما ذكرناه، فيجب حمل القرآن في الآيات المطلقة عليه، وفي ذلك حصولُ ما أردناه، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة عليها والانفصال عنها.

السؤال الأول منها: قد زعمتم أنّ وجه إعجاز القرآن إنّما هو الفصاحة، والبلاغة، والنظم، وحاصلُ هذه الأُمور كلّها، إمّا أن تكون راجعة الى مفردات الكلم، أو تكون راجعة الى مركباتها، ولا شك أنّ العرب قادرون على المفردات لا محالة، ولا شك أنَّ كلّ مَن قدَرَ على المفردات فهو قادرٌ على مركّباتها، فلو كان كما ذكرتمُوه لكان العرب قادرينَ على المعارضة، وهذا يدلُّ على أنّ وجه إعجازه ليس أمراً راجعاً الى البلاغة، والفصاحة، والنظم، وهذا هو المطلوب.

وجوابه إنّما يكون بعد تمهيد قاعدة وهو أنّ التفاوُتَ بين الكتابين في الجوْدَة والكتابة إنّما يكون من جهة العلم بإحكام التأليف بين الحروف وتنزيلها على أحسن هيئة في الإيقاع، فَمنْ كان منهما أجود علما بإحكام التأليف كانت كتابته أعْجَبَ، ومن كان عادماً للعلم بما ذكرناه نقص إتّقانُ كتابته، فكلّ واحدٍ منهما قد أحْرَزَ ما تحتاج إليه الكتابة من الآلات كالقلَم، والدَّوَاةِ، والقِرْطاس، واليَدِ، وغير ذلك ممّا يكون شَرْطا في الكتابة، ولم يتميّز أحدهما عن الآخر إلّا بما ذكرناه من العلم بإحكام التأليف، وهكذا حال أهل الحِرفِ والصناعاتِ، فإنّهم كلّهم متمكّنون من أُصول الصناعات وما تحتاج إليها، كالصناعة للذّهَبيّات والفضيّات، والحيَاكَةِ للديباجِ، فإنَّ تفاوتهم إنّما يظَهر في ما ذكرناه لا غيرُ، فإذا عرفت هذا فالعربُ لا محالة قادرون على مفردات هذه الكلم الموضوعة، وقادرون على حسن التأليف لهذه الكلمات، لكنّهم غير قادرين على كلّ تأليف، فإنّ من التآليف مالا زيادة عليه في الأعجاب، وهو المعْجِزُ، ومنه

ما تنقص رُتْبَتهُ عن ذلك، وليس معجزاً، وعلى هذا يكون المعجزُ إنّما كان من جهة عدم العلم باحكام تأليف هذه الكلمات، فقد ملكُوا القدرة على آحادها، وملكوا القدرة على نوع من تأليفها ممّا لم يكن معجزاً، فأمّا ما كان معجزاً من التأليف فلم يكونوا مالكين له، فحصل من مجموع ماذكرناه، أنّ الإعجاز ليس إلّا تأليف هذه الكلمات على حدّ لاغاية فوقه، فإلى هذا يرجع الخلافُ، ويحصل التحقّق بأنّ عجزهم إنّما كان من جهة عدم العلم بهذا التأليف المخصوص في الكلام، لا يقال فحاصل هذا الجواب أنّ الله تعالى لم يخلق فيهم العلم بإحكام التأليف الذي يحتاج إليه في كون الكلام معجزاً، وهذا قول بمقالة أهل الصّرفة، فإنّ حاصل مذهبهم هو أنّ الله تعالى سلَبَهم الداعي الى معارضة القرآن، وأعْدم عنهم العلومَ التي لأجلها يقدرون على المعارضة، وأنتم قد زيفتم هذه المقالةَ وأبطلتموها، فقد وقعتم فيما فررتم منه، لأنّا نقول هذا فاسدٌ فإنّا نقول إنّهم عادمون لهذه العلوم قبْلَ المُعْجز وبعْدَه، وأنّها غير حاصلة لهم في وقتٍ من الأوقات فلهذا استحال منهم معارضةُ القرآن كمّا قرّرناه من قبلُ، بخلاف مقالة أهل الصّرفة فإنّ عندهم أنّ علوم التأليف كانت حاصلة معهم قبلَ ظهور المُعْجز، لكن الله تعالى سلَبَهم إيّاها كما مرّ تقريره، فلهذا كان ماذكرناه مخالفاً لما قالوه.

السؤال الثاني: لوكانت الفصاحة هي الوجه في كون القرآن معجزاً لَما كان فيه دلالة على صدق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تقرّر كونه دالّا على صدقه، فيجب أن لا يكون الوجه في إعجازه هي الفصاحة، بل الصّرفة كما تقول أصحابها، أو وجْهٌ آخر غير الفصاحة، وإنّما قلنا: انه لوكان الوجه في إعجازه الفصاحة لَمَا كان فيه دلالةٌ على الصدق، فلأنّ الدلالة على الصدق إنّما تقع إذا كانت موجودةً من جهة الله تعالى إلّا أنّه تعالى ليس فاعلاً للفصاحة من جهة أنّ الفصاحة المَرْجعُ بها الى خُلوص الكلام من التعقيد، والبلاغةُ ترجعُ

الى مطابقة الكلام وحسن تأليفه، وهذه كلّها مقدورةٌ لنا، ولهذا بطل أن يكون الإعجازُ حاصلاً بها، فإذن لا بدّ من أن يكون وجه الإعجاز متعلّقاً بقدرة الله تعالى، لأنّه هو المتولّي لصدق أنبيائه، فكلُّ ما كان من المعجزات لا يُقَدَّرُ كونه من جهته، فإنّه لا يكون فيه دلالة على صدق مَنْ ظهر عليه، وإنّما قلنا: إنّ فيه دلالةً على الصدق، وهذا ظاهر لا يمكن إنكاره، فإنّ القرآن منْ أبْهَر الأدلّة على صدق صاحب الشريعة (صلوات الله عليه)، فلوكان وجهُ إعجازِهِ هو الفصاحة لم يكن فيه دلالةٌ على الصدْق، لأنّ الفصاحة والبلاغة المرجعُ بهما الى انتظام الكلام على وجه مخصوص لا مزيد عليه، وما من وجهٍ من وجوه النظم إلا وهو مقدورٌ للعباد بكلّ حال، وهذا يُبطل كونَه دالّاً على صدقه، وقد تقرّر كونه دليلاً على الصدق، فبطل كون إعجازه هو الفصاحة.

وجوابه أنّا قد قرّرنا أنّ الوجه في إعجازه هو الفصاحة والبلاغة مع النظم بما لا مَطْمَع في إعادتِه.

قولُه لوكانت الفصاحة وجهاً في إعجازه لما كان له دلالة على الصدق، قلنا: هذا فاسدٌ فإنّ النظْم وإن كان مقدوراً لنا، لكنّه قد يقع على وجهٍ لا يمكنُ كونه مقدوراً لنا، ولهذا فإنّ العْلمَ مقدورٌ لنا، والفعلُ من جنس العلوم، وقد استحال كونها مقدورة للعباد، لِمَا كانت واقعة على وجه يستحيل وقوعه في حق العباد، فإنَّ جنس الحركة مقدورٌ لنا، وحركةُ المرتعش وإن كانت من جنس الحركة، لكنّها لـمّا وقعتْ على وجهٍ يتعذّرُ على العباد جاز الاستدلالُ بها على الله تعالى، فهكذا حال البلاغة، فإنّها وإن كانت من قبيل النظم والتأليف. وهو مقدور لنا، لكنّه لـمّا وقع على وجهٍ يتعذّرُ تحصيلُه من جهتنا، كان دليلاً على الصدق من هذه الجهة، فحصل من مجموع ماذكرناه أن القرآن دالٌّ على صدق مَنْ ظهر على يده، وماذاك إلّا لكونه مختصاً بالوقوع من جهة الله تعالى مع كون جنسه من مقدور العباد، وفيه دلالة على صدْقه كما نقوله في سائر المعجزات الدالة على صدقه، وإن لم يكن لها تعلقٌ بمقدور العباد، كإطعام الخلق الكثير، من الطعام

اليسير، ونُبُوع الماء مِنْ بيْنِ أصابعه، الى غير ذلك من المعجزات الباهرة له (عليه الصلاة والسلام).

السؤال الثالث: هو أنّ الصحابة (رضي الله عنهم) لما اهتمّوا بجَمْع القرآن بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكانوا يطلبون الآية، والآيتين، ممّن كان يحفظها منهم، فإن كان الراوي مشهورَ العدالة قَبلُوها منه، وإنْ كان غير مشهور العدالة لم يقبلوها منه، وطلبوا على ذلك بَيِّنَةً فلو كان الوجه في إعجازه هو الفصاحة كما زعمتم، لكان متميّزاً عن سائر الكلام وكان لا وجه للسؤال، لِمَا يظهر من التمييز، وفي هذا دلالة على أنّ وجه إعجازه هو الصرفة، أو غيرها، دون الفصاحة.

وجوابه من وجهين:

أمّا أوّلا: فلأنّا لا نسلّم أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تَوَفَّاهُ الله تعالى ولم يكن القرآن مجموعاً، بل مامات عليه السلام إلا بعد أن جَمَعه جبْريلُ، وهذه الرواية موضوعة مختلقةٌ لا نسلّمها، ولهذا قال لما نَزَل صَدْرُ سورة بَرَاءَة: (أثبتوها في آخِرِ سُورَةِ الأنفال) فما قالوه منكَرٌ ضعيفٌ.

وأمّا ثانياً: فلأنّ الاختلافَ إنّما وقع في كتبِ القرآن وجمْعه في الدّفاتر، فأمّا جَمْعُه فمما لم يقع فيه تردّد أنّه كان في أيام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما كان مجموعاً في صدُور الرجال، فأمّا كَتْبه فلعلّه إنّما كان بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولهذا فإنّ المصاحف قد كانت كثُرت بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلمّا وقع فيها الخلافُ، فَعَلَ (عُثمانُ) في خلافته ما فَعَلَ مِنْ مَحوِهَا كلّها، وكَتْبِه مصحَفَه الذي كتَبَه.

السؤال الرابع: هو أنّ ابن مسعود (رضي الله عنه) اشتبه عليه الفاتحة والمعوّذتان، هل هنّ من القرآن او لا، فلو كان الوجه في الإعجاز هو الفصاحة لكان لا يلتبس عليه شيءٌ من ذلك.

وجوابه من وجهين:

أمّا أوّلا:فلأن ابن مسعود لم يُنكر كونها نزلت من اللوح المحفوظ، وانّ جبريل أتى بها من السماء، فهنّ قرآنٌ بهذه المعاني، وإنّما أنكر كتبها في المصاحف وقال هنّ وارداتٌ على جهة التبرّك والاستعاذة، فلهذا كن قرآناً بما ذكرناه من المعاني، ولم يكنَّ قرآناً لورودها لهذا المقصد الخاصّ، وهذا في التحقيق يؤولُ الى العبادة.

والمقاصد المعنوية متفقٌ عليها كما ترى.

وأمّا ثانياً: فلأنّ هذا رَأْيٌ لابن مسعود فلا يكون مقبولا، والحقُّ في المسألة واحدٌ، فخطؤه فيها كخطأ غيره ممّن خالَفَ دلالةً قاطعةً، ولنقتصر على هذا القدر من الأسئلة ففيه كفاية لغرضنا، واستقصاءُ الكلام على مثل هذا القاعدة، إنّما يليق بالمباحث الكلاميّة، والمقاصد الدينيّة، وإنْ نَفَّس اللهُ لنا في المُهْلَة، وتراخَتْ مُدّةٌ الإمهال، ألّفْنا كتاباً نذكر فيه كيفيّة دلالة المعجز على صدق مَنْ ظهر على يده، ونُجيبُ فيه عن شكوك المخالفين بمعونة الله تعالى، فالنيّة صادقة في ذلك إن شاءالله تعالى[١].

* * *

١٣ـ كلام السيد شبّر:

ولخاتمة المحدّثين السيد عبدالله شبّر (توفي سنة ١٢٤٢) كلام مستوفٍ بوجوه إعجاز القرآن حسبما فصّله المحقّقون من علمائنا الإماميّة وورد في المأثور عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أورده في كتابه (حقّ اليقين في معرفة أُصول الدين).قال: قد وقع الخلاف بين العلماء في أنّ وجه إعجاز القرآن هل هو لأجل كونه في أعلى مراتب الفصاحة ومنتهى مرتبة البلاغة، بحيث لايمكن الوصول إليه ولايتصور الإتيان بمثله. أو من جهة صرف قلوب الخلائق عن

---

(١) الطراز:ج٣ ص٣٦٧ـ ٤١٣.

الإتيان بمثله وإن كان ممكنا. وبالثاني قال السيد المرتضى (رحمه الله) والأكثر على الأوّل. والحقّ أنّ إعجاز القرآن لوجوه عديدة نذكر جملة منها:

١ـ أنّه مع كونه مركّباً من الحروف الهجائية المفردة التي يقدر على تأليفها كلُّ أحد، يعجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب والنمط الغريب.

٢ـ من حيث امتيازه عن غيره مع اتحاد اللغة، فإنّ كلّ كلام وإن كان في منتهى الفصاحة وغاية البلاغة إذا زيّن ورصّع بجواهر الآيات القرآنية وَجَدْتَ له امتيازاً تاماً وفرقاً واضحاً يشعر به كلّ ذي شعور.

٣ـ من جهة غرابة الأُسلوب واعجوبة النظم. فإنّ من تتبّع كتب الفصحاء وأشعار البلغاء وكلمات الحكماء، لايجدها شبيهة بهذا النظم العجيب والأُسلوب الغريب والملاحة والفصاحة ويكفيك نسبة الكفار له الى السحر لأخذه بمجامع القلوب.

٤ـ من حيث عدم الإختلاف فيه، ولوكان من عند غيرالله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً، فلا تجد فيه مع هذا الطول كلمة خالية من الفصاحة خارجة عن نظمه واسلوبه. وأفصح الفصحاء إذا تكلّم بكلام طويل تجد في كلامه أو أشعاره غاية الاختلاف في الجودة والرداءة. وأيضاً لا اختلاف في معانيه ولا تناقض في مبانيه. ولوكان منتحلا ومفترى ـ كما زعمه الكفار ـ لكثر فيه التناقض والتضادّ، فإنّ الكاذب تخونه ذاكرته ويبدو عُواره.

٥ـ من حيث اشتماله عن كمال معرفة الله وذاته وصفاته واسمائه ممّا تحيّر فيه عقول الحكماء والمتكلّمين.

٦ـ من حيث اشتماله على الآداب الكريمة والشرائع القويمة والطريقة المستقيمة، في نظم البلاد وسياسة العباد في المعاش والمعاد.

٧ـ من حيث اشتماله على إخباره بخفايا قصص الماضين ممّا لم يعلمه الخواصّ فكيف بالعوامّ. كما في الحديث عن أصحاب الكهف، وماداربين

موسى والخضر، وقصّة ذي القرنين وقصص إبراهيم ولوط و يوسف(عليهم السلام).

٨ـ من حيث اشتماله على الإخبارعن الضمائر وإبداء ما في الصدور، ممّا لايطلع عليه إلّا علّام الغيوب. وهي كثيرة في القرآن بشأن الكفار والمنافقين.

٩ـ من حيث اشتماله على الاخبار بمستقبل الأيام في مواطن كثيرة:

١٠ـ من حيث أنّه لا يخلق على طول الزمان ولا يبلى على كثرة التكرار. كلّما تلوته أو تلي عليك وجدته غضّا طريّا ممّا لايوجد في غيره...[١].

* * *

١٤ـ العلّامة هبة الدين:

وسار على منهاجه وزاد عليه علّامة بغداد السيّد هبة الدين الشهرستاني (توفي سنة ١٣٨٦) في أثره الباقي «المعجزة الخالده»[٢]. قال: إنَّ أكبر ميزة في القرآن ـوهي التي جعلته فوق المعجزات كلهاـ هي أنّها مجموعة فصول ليست سوى صبابة أحرف عربيّة، من جنس كلمات العرب، بل ومن أيسر اعمال البشر.. وقد فاقت مع ذلك عبقريّة كلّ عبقريّ، ولم يخلق ربّ الإنسان للإنسان عملاً بعد الافتكار، أيسر لديه من الكلام.. وكلّما كان العمل البشريّ أيسر صدوراً وأكثر وجوداً، قلّ النبوغ فيه، وصعب افتراض الإعجاز والإعجاب منه. غير أنّ الفصول القرآنية على أنّها صبابة أحرف العرب ومن جنس أيسراعمالهم، تجد العبقريّة فيها ظاهرة بأجلى المظاهر السامية على عبقريّة كلّ شاعر وساحر... وتراها على أعظم جانب من التأثير. مع أنّها كما أشار إليها القرآن عبارة عن(أ. ل. م. ك. هـ. ى. ع. ص.. الخ) هي

---

(١) حقّ اليقين: ج١ ص١١٣ـ ١١٤.

(٢) كان السبب في تقديم نظرة علّامتنا الشهرستاني الى حقل آراء القدماء، هو اقتفاؤه لمذهب السلف أوّلا، وامتداد نظرته لاختيار السيد شبّر وتكميلاً له في استقصاء وجوه الإعجاز ثانياً، فكان من المناسب اردافه معه في هذا المجال.

الأحرف العربية المبذولة. ولكن تأليف أمثال آية منها فوق وسع العرب والعجم.

وقد قيل ـ وهو الصحيح ـ: الناس كالناس والأيام واحدة... فأصدق محكّ لمعرفة أحوال الأوّلين... هو مطالعة أحوال الآخرين، وقياس الماضي على الحال.

ونرى الناس في عهدنا مطبوعين على استحباب الشهرة والإثرة وطلب التفاضل والتفاخر... والشعب العربي المعاصر لنزول القرآن كان ولا شك منطويا على هذا الشعور تماما.. فلما لم يندفع الى مباراته، ولم لم يعارضوه إن كانوا يرونه من كلام محمد (صلى الله عليه وآله) وهو فرد منهم وتربّى مثلهم على تربة الحجاز الخصبة منبت الفصاحة والبلاغة ؟!

ليت شعري، ممّ وبم أعجزت عبقريّةُ ذلك الفرد الُوفَهم المعتزّة بألوف، وكيف عجزتهم اسطرٌ وكلمات وحروف؟!

قال: للقرآن مزاياً جمّة هي ذات شأن كبير نذكر منها مايلي كرؤوس أقلام:

١ـ فصاحة ألفاظه، الجامعة لكلّ شرائطها.

٢ـ بلاغته: رعايته التامّة لمقتضى الحال والمقام.

٣ـ سمّوا المعنى وعلوّ المرمى واستهدافه الكمال الأسمى والجمال الأرقى.

٤ـ أنباؤه الغيبيّة وأسراره العلميّة.

٥ـ قوانينه الحكيمة وتشريعه القويم.

٦ـ سلامته عن التعارض والتناقض والاختلاف.

٧ـ طراوته مع كلّ زمان كلّما تُلي وأينما تُلي.

٨ـ قوة حججه وسلطان برهانه.

٩ـ اشتماله على رموز مدهشة للفكر ومذهلة للعقول.

١٠ـ جذبته الروحيّة وجذوته القدسيّة الملكوتيّة، ذات خلابة للألباب

وسحر العقول وافتنان النفوس.

قال: هذه بعض مزايا القرآن ممّا هو من وجوه التفوّق والإعجاز...

أمّا أنا فقد وقع اختياري -بعد طول اختباري- على الوجه الأخير فيما عدّدناه، مع البلاغة الجامعة، فهما وجه الإعجاز المقصود من آيات التحدّي.

أجل إنّ جذابته الروحيّة، الناشئة عن كونه كلام خالقنا الربّ الحكيم، محسوسة للشرقيّ والغربيّ، والعجميّ والعربيّ، لاينازعنا فيه أحد.

أمّا سائر وجوه الحسن والامتياز، فهي من آثار كونه كلام الله، ومؤثّرات معدّة في تكوين إعجازه، وجذباته الروحية... وحتى أنّ جمهور العلماء، الذين عبّروا عن إعجاز القرآن ببلاغته، لعلهم اراد وا ما أردنا: من جاذبيّته الروحيّة فوق جمال أُسلوبه وحسن نظمه وغريب سبكه وعجيب نضده...[1].

* * *

قال الأُستاذ الفكيكي: وممّن لاحظ هذه المزيّة العجيبة (الجذبة الروحيّة) أيضاً علّامة الزمان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء في كتابه «الدين والاسلام». والعلّامة الأُستاذ السيد رشيد رضا صاحب المنار في كتابه «الوحي المحمدي» ونابغة الأدب والبيان مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن»[2].

سنعرض نماذج من كلماتهم الرشيقة بهذا الشأن تباعاً إن شاءالله.

* * *

ثانياً: الإعجاز في دراسات اللاحقين من علماء وكتّاب معاصرين:

قد يقال: كم ترك الأوّل للآخر! واخرى يقال: ما ترك الأوّل للآخر.

---

(١) نقلا عن رسالته (المعجزة الخالدة): ص٨- ٣٤ مع تصرّف واختصار.

(٢) مجلّة رسالة الاسلام الصادرة عن دارالتقريب بالقاهرة لسنتها الثالثة، رمضان ١٣٧٠ هـ يوليو ١٩٥١ م: العدد الثالث ص ٢٩٩.

فإن كـان في المثل الأوّل جزاف، فإنّ في المثل الثاني مبالغة ظاهرة. نعم كان الأوائل قد مهّدوا السبل لدراسات الآخرين وأسّسوا وأبدعوا وحازوا قصب السبق. وجاء اللاحقون ليستمروا على أثرهم على الطريقة المعبّدة من ذي قبل، لكنّهم زادوا ونقّحوا وهذّبوا، وبذلك نضجت الأفكار وتوسّعت العقول واكتملت الآراء والأنظار.

أمّا الذي زاده الخلف على السلف في مسألة إعجاز القرآن، فهو الذي لمسوه من تناسق نظمه البديع وتناسب نغمه الرفيع، كانت لأجراس صوته الرصيف رنّة، ولألحان موسيقاه اللطيف نسمة ونفحة قدسيّة ملكوتيّة ذات جذوة وجذبة، لايوجدلها مثيل في أيّ توقيع من تواقيع الموسيقي المعهودة ذات الأشكال والألوان المعروفة.

إنّه منتظم على أوزان لا كأوزان الشعر، وعلى قوافي السجع وليس بسجع، ففيه خاصّيّة النظم وهونثر، فهو كلام منظوم ومنثور في نفس الوقت، كما هومسجّع ومقفّى أيضاً في عين الحال. ومع ذلك فهو ليس بأحدها، وإنّما هو كلام فريد في نوعه وفذّ في أُسلوبه، إنّه كلام الله فوق كلام المخلوقين.

هذا هوالذي أحسّته أرباب الفنون وأصحاب الأذواق الظريفة بشأن القرآن الكريم، إذا تليت آياته على نهجها الأصيل، ذات روعة وخلابة، كما قال قائلهم: إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة.

١ـ كتب سيد قطب في كتابه «التصوير الفني» فصلاً عن الإيقاع الموسيقي في القرآن، وذكر أنّ الموسيقيّ المبدع الأُستاذ «محمد حسن الشجاعي» تفضّل بمراجعته وضبط بعض المصطلحات الفنّية الموسيقيّة عليه... جاء فيه:

ان هذا الإيقاع متعدّد الأنواع، ويتناسق مع الجوّ، ويؤدي وظيفه أساسيّة في البيان.

قال: ولما كانت هذه الموسيقي القرآنية إشعاعا للنظم الخاصّ في كلّ

موضع، وتابعة لقصر الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة... فإننا نؤثر أن نتحدّث عن هذه الظواهر كلّها مجتمعة.

جاء في القرآن الكريم «وَمَا عَلّمناهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ وقرآن مُبِينٌ»[(١)]

وجاء فيه حكاية عن كفار العرب: «بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»[(٢)].

وصدق القرآن الكريم، فليس هذا النسق شعراً. ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين ولا جاهلين بخصائص الشعر، يوم قالوا عن هذا النسق العالي: إنّه شعر!

لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع؛ وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل. وتلك خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل.

على أنّ النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة؛ فنال بذلك حريّة التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامّة. وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر، الموسيقي الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل؛ والتقفية التي تغني عن القوافي؛ وضمّ ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا، فشأن النثر والنظم جميعاً[(٣)]

وحينما تلا الإنسان القرآن أحسّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه؛ يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير

---

(١) يس: ٦٩.
(٢) الأنبياء: ٥.
(٣) يقول الدكتور طه حسين: إنَّ القرآن ليس شعراً وليس نثراً. إنّما هو قرآن! ولسنا في حاجة الى هذا اللعب بالعبارات، فالقرآن نثر متى احتكمنا للاصطلاحات العربيّة كما ينبغي. ولكنه نوع ممتاز مبدع من النثر الفني الجميل المتفرّد.

والتشخيص بصفة عامة؛ ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال، ولكنه -على كلّ حال- ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني [١].

وسنأتي على أمثلة ضربها لذلك في فصل قادم [٢] إن شاء الله.

* * *

٢- وقال الاستاذ مصطفى محمود لقد اكتشفت منذ الطفولة دون أن أدري، حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية. وهذا سرّ من أعمق الأسرار في التركيب القرآني.. إنّه ليس بالشعر وبالنثر ولا بالكلام المسجوع... وإنّما هو معمار خاصّ من الألفاظ صفّت بطريقة تكشف عن الموسيقي الباطنة فيها.

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة.

وكمثل نأخذ بيتاً لشاعر مثل عمر بن أبي ربيعة، اشتهر بالموسيقي في شعره... البيت الذي ينشد فيه:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي   أتحب القتول اخت الرباب؟

أنت تسمع وتطرب وتهتزّ على الموسيقي.. ولكن الموسيقي هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في أشطار متساوية ثمّ تقفيل كلّ عبارة تقفيلاً واحداً على الباء الممدودة.

الموسيقي تصل الى اذنك من خارج العبارة وليس من داخلها، من التقفيلات (القافية) ومن البحر والوزن.

أمّا حينما تتلو: «والضُّحَىٰ. وَالليل اذا سَجَىٰ..» [٣] فأنت أمام شطرة واحدة... وهي بالتالي تخلو من التقفية والوزن والتشطير، ومع ذلك فالموسيقي تقطر من كلّ حرف فيها، من أين، وكيف؟

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ص ٨٠.

(٢) عند التعرّض لمزايا النظم القائم في القرآن وخصائصه العجيبة.

(٣) الضحى: ١- ٢.

هذه هي الموسيقى الداخليّة، والموسيقى الباطنة، سرّ من أسرار المعمار القرآني، لايشاركه فيه أيّ تركيب أدبي.

وكذلك حينما تقول: «الرَّحمانُ عَلىٰ الْعَرْشِ اسْتَوىٰ»(١). وحينما تتلو كلمات زكريا لربه: «قَالَ رَبِّ إنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّى واشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً ولَمْ أكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً»(٢). أو كلمة الله لموسى: «إنَّ السّاعَةَ آتِيةٌ أكَادُ اخفِيَها لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعىٰ»(٣). أو كلمته تعالى ـ وهو يتوعّد المجرمين ـ: «إنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيىٰ»(٤).

كلّ عبارة بنيان موسيقي قائم بذاته ينبع فيه الموسيقي من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها، بطريقة محيّرة لا تدري كيف تتم؟!

وحينما يروي القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفوني المذهل:

«وَلَقَدْ أوْحَيْنا إلَىٰ مُوسىٰ أنْ أسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَساً لا تخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشىٰ، فَأتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وأضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ»(٥)

كلمات في غاية الرقّة مثل «يبسا» أو لا تخاف «دركاً» بمعنى لاتخاف ادراكاً. إنَّ الكلمات لتذوب في يد خالقها وتصطفّ وتتراص في معمار ورصف موسيقيّ فريد، هو نسيج وحده بين كلّ ما كتب بالعربيّة سابقاً ولا حقاً لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلي، ولابينه وبين الشعر والنثر المتأخّر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التأريخ، برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن.

في كلّ هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً، وكأنّها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير، سوى أنّ لها مصدراً آخر غير ما نعرف.

---

(١) طه: ٥. (٢) مريم: ٤. (٣) طه: ١٥. (٤) طه: ٧٤. (٥) طه: ٧٧ ـ ٧٩.

اسمع هذا الإيقاع المنغّم الجميل:

«رفيعُ الدَّرجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يوْمَ التَّلاَق»[١]. «فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوىٰ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الميّتِ مِن الحيِّ... فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً»[٢]. «يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»[٣] «لاَ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار»[٤]. «وَسِعَ رَبّنا كُلَّ شيءٍ عِلْماً»[٥].

ثمّ هذه العبارة الجديدة في تكوينها وصياغتها.. العميقة في معناها ودلالتها على العجز عن إدراك كنه الخالق:

«عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَة الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»[٦].«يجادلونَ فِي الله وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحَال» [٧].

ثم هذا الاستطراد في وصف القدرة الإلهيّة:

«وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبرِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرقَةٍ إلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلماتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إلَّا فِي كتابٍ مبينٍ»[٨].

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هي كلّ ما انفردت به العبارة القرآنيّة، وإنّما مع الموسيقى صفة أُخرى هي الجلال!

وفي العبارة البسيطة المقتضبة التي روى بها الله نهاية قصة الطوفان، تستطيع أن تلمس ذلك الشيء «الهائل» «الجليل» في الألفاظ:

«وَقِيلَ ياأرضُ ابْلَعِي ماءَكِ ويَاسمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ»[٩].

---

(١) غافر: ١٥. (٢) الانعام ٩٥-٩٦. (٣) غافر: ١٩.
(٤) الأنعام: ١٠٣. (٥) الأعراف: ٨٩. (٦) الرعد: ٩.
(٧) الرعد: ١٣. (٨) الأنعام: ٥٩. (٩) هود: ٤٤.

تلك اللمسات الهائلة.. كلّ لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود.. تنزل فإذا كلّ شيء صمت.. سكون، هدوء، وقد كفّت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة الى ختامها: «وقيل يا أرضُ ابْلَعِي مَاءك وياسماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ».

إنّك لتشعر بشيء غير بشريّ تماماً في هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كلّ حرف فيها جبل الألب. لايمكنك أن تغيّر حرفاً أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلّف جملة مكان جملة، تعطي نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة.. وحاول وجرّب لنفسك في هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر، أن تغيّر حرفاً أو تستبدل كلمة بكلمة!

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة!

ولم يكن مستغرباً من جاهلي مثل الوليدبن المغيرة، عاش ومات على كفره، أن يذهل، وأن لا يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن، برغم كفره فيقول، وقد اعتبره من كلام محمد:

«والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يعلى عليه».

ولمّا طلبوا منه أن يسبّه قال: «قولوا ساحرجاء بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته».

إنّه السحر حتى على لسان العدوّ الذي يبحث عن كلمة يسبّه بها.

وإذا اكانت العبارة القرآنية لاتقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول، فالسبب هوالتعوّد والألفة والمعايشة منذ الطفولة والبلادة والاغراق في عاميّة مبتذلة أبعدتنا عن أُصول لغتنا. ثم اسلوب الأداء الرتيب المملّ الذي نسمعه من مرتّلين محترفين يكرّرون السور من أوّلها الى آخرها بنبرة واحدة

لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة. نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح العبارات.

وبالمثل بعض المشايخ ممّن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شيء في قلبه... ثم المناسبات الكثيرة التي يقرأ القرآن فيها روتينياً... ثم الحياة العصرية التي تعدّدت فيها المشاغل وتوزّع الانتباه وتحجّر القلب وتعقدت النفوس وصدئت الأرواح.

وبرغم هذا كلّه فإنّ لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة، ويرتدّ فيها طفلاً بكراً وترتدّ له نفسه على شفّافيّتها، كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل في القرآن.. وكفيلة بأن توقفه مذهولاً من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنّها تنزل عليه لساعتها وتوّها.

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأُسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذّبة فريدة لا تجدها مثيلاً ولا بديلاً في أيّة لغة: «فَلَمّا تَغشاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفيفاً»[1] . هذه الكلمة «تغشّاها»... تغشاها رجلها... أن يمتزج الذكر والأُنثى كما يمتزج ظلّان وكما يغشى الليل النهار وكما تذوب الألوان بعضها في بعض، هذا اللفظ العجيب الذي يعبّر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين، هو ذروةٌ في التعبير.

وألفاظ أُخرىٰ تقرؤها في القرآن فتترك في السمع رنيناً وأصداءً وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول: «واللّيلِ إذَا عَسْعَسَ.وَالصُّبْحِ إذَا تَنَفَّسَ»[2] .. هذه الحروف الأربعة «عسعس» هي الليل مصوّراً بكل مافيه. «والصبح إذا تنفس» أنّ ضوء الفجر هنا مرئي ومسموع.. أنّك تكاد تسمع

(١) الأعراف: ١٨٩.
(٢) التكوير: ١٧ـ ١٨.

زقزقة العصفور وصيحة الديك ..

فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنك تسمع الألفاظ تتفجر.. وترى المعمار القرآني كلّه له جلجلة. اسمع مايقول الله عن قوم عاد:

«وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ.سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّام حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ»(١). إنَّ الآيات كلّها تصرّفيها الرياح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوي وصورة الأرض الخراب.

والصور القرآنية كلّها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والألفاظ التي لها جرس وصوت وصورة.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتاباً لايترجم. إنّه قرآن في لغته، أمّا في اللغات الأخرى فهو شيء آخر غير القرآن.. «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيّاً»(٢) وفي هذا تحديد فاصل.

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل: «الرحمانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ»(٣). إنّنا لسنا أمام معنى فقط، وإنّما نحن بالدرجة الأولى أمام معمار.. أمام تكوين وبناء تنبع فيه الموسيقي من داخل الكلمات، من قلبها لامن حواشيها، من خصائص اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها..

ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصّيّة عجيبة... إنّها تحدث الخشوع في النفس بمجرّد أن تلامس الأذن وقبل أن يتأمل العقل معانيها.. لأنّها تركيب موسيقي يؤثّر في الوجدان والقلب لتوّه ومن قبل أن يبدأ العقل في العمل، فإذا بدأ العقل يحلّل ويتأمّل فانّه سوف يكتشف أشياء جديدة وسوف يزداد خشوعاً.. ولكنّها مرحلة ثانية.. قد تحدث وقد لا تحدث وقد تكشف لك الآية عن سرّها وقد لا تكشفه... وقد تؤتى البصيرة التي تفسّر بها معاني القرآن وقد

---

(١) الحاقة: ٦-٧.　(٢) يوسف: ٢.　(٣) طه: ٥.

لا تؤتى هذه البصيرة.. ولكنك دائماً خاشع، لأنّ القرآن يخاطبك اوّلاً كمعمار فريد من الكلام.. بنيان.. فورم.. طراز من الرصف يبهر القلب.. ألقاه عليك الذي خلق اللغة ويعرف سرّها...»[١].

* * *

٣ـ وللدكتور محمد عبدالله دَراز، نظرة مشابهة، يجعل من إعجاز القرآن في قشرته السطحيّة، في جانبي جماله التوقيعي وجماله التنسيقي، الى جنب محتواه من جلائل أسرار. فإنّه جلّت قدرته أجرى سنّته في نظام هذا الكون أن يغشى جلائل أسراره بأستار زاهية بمتعةٍ وجمال.

قال: إنّك إذا استمعت الى القارئ المُجوّد يقرأ القرآن يرتّله حقّ ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه.. ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقي والشعر، على أنّه ليس بأنغام الموسيقي ولا بأوزان الشعر. وستجد شيئاً آخر لاتجده في الموسيقي ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً. فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا اعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد، بينا أنت من القرآن أبداً في لحن متنوّع متجدّد، تنقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل[٢] على أوضاع مختلفة يأخذ منها كلّ وترمن أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لايخفى على أحد ممّن يسمع القرآن،

---

(١) القرآن، محاولة لفهم عصري، مصطفى محمود ـ دارالمعارف بمصر ـ سنة ١٩٧٦. فصل (المعمار القرآني): ص ١٢ـ ١٩.

(٢) مصطلحات موسيقية: الحرف المتحرك يتلوه حرف ساكن يقال لها «سبب خفيف» والحرفان المتحرّكان يتلوهما ساكن «وتد مجموع». والحرفان المتحرّكان لايتلوهما ساكن «سبب ثقيل». والحرفان المتحرّكان يتوسّطهما ساكن «وتد مفروق». وثلاثة أحرف متحرّكة «فاصلة صغيرة»، وأربعة أحرف متحرّكة يعقبها ساكن «فاصلة كبيرة».

حتى الذين لايعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

إنّ أوّل شيء أحسّته تلك الآذان العربيّة في نظام القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوّعا يجدّد نشاط السامع لسماعه، ووزّعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنّة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آناً بعد آن، الى أن يصل الى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى. وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت الى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها الى حدّ الإسراف في الاستهواء ثمّ الى حدّ الإملال في التكرير، فإنّها ماكانت تعهده قط ولا كان يتهيّأها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغضّ من سلاسة تركيبه ولايمكن معها إجادة ترتيله إلّا بادخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لاعجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب الى القرآن -في خيال العرب- أنّه شعر، لأنّها وجدت في توقيعه هزّة لاتجد شيئاً منها إلّا في الشعر. وعجب أن ترجع الى نفسها فتقول ماهو بشعر؛ لأنّه -كماقال الوليد- ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده. ثم لاعجب أن تجعل مردّ هذه الحيرة أخيراً الى أنّه ضرب من السحر، لأنّه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدّ وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

أنت إذا ما اقتربت بأذنك قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه، خارجة من مخارجها الشحيحة، فاجا ئك منه لذّة اخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلّم جرا. فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة[1] لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة

---

(١) من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علماً. وسيأتي تفصيل أكثر في كلام ←

ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلاما ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقّة الحاضرة وسلاستها، وقدّر فيه الأمران تقديراً لايبغي بعضهما على بعض، فإذا مزيجٌ منهما، كأنّما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أوكأنّما هو نقطة الإتّصال بين القبائل عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصيّة والتي قبلها تتألّف القشرة السطحيّة للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلّا كشأن الأصداف ممّا تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنّه -جلّت قدرته- أجرى سنّته في نظام هذا العالم أن يغشّي جلائل أسراره بأستار لاتخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها، بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها.. فقد سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، ومن ثمّ قضت حكمته أن يختارلها صواناً يحبّبها الى الناس بعذوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة «الحدّاء» يستحثّ النفوس على السير إليها، ويهوّن عليها وعثاء السفر في طلب كمالها، لاجرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسّة تذوّق وحاسّة تسمّع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه، وينفذون بها الى بعيد غوره «إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ إنَّا لَهُ لَحافِظُون»[1].

هل عرفت أنّ نظم القرآن الكريم يجمع الى الجمال عزّة وغرابة؟ وهل عرفت أنّ هذا الجمال كان قوّة إلهيّة حُفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أنّ هذه الغرابة كانت قوّة اخرىٰ قامت بها حجّة القرآن في

الرافعي، كما أشار إليه الزملكاني من ذي قبل فيما مرّ من كلامه الآنف. وهذا جانب دقيق من سرّ إعجاز القرآن التأليفي فتنبّه.

(١) الحجر: ٩.

التحدّي والإعجاز واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدّلين، وأنّ ذلك الجمال ماكان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به، ذلك أنّ الناس -كما يقول الباقلاني- إذا استحسنوا شيئاً اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلّة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب، وربّما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتّاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلّا مناهل مورودة ومسالك معبّدة، تؤخذ بالتعلّم، وتراضّ الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أُسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شرع في استحسان طريقته، وأنّ أكثرهم الطالبون لإبطال حجته.

ماذاك إلّا أنّ فيه منعة طبيعيّة كفّت ولا تزال تكفّ أيديهم عنه، ولا ريب أنّ أوّل ما تلاقيك هذه المناعة فيما صوّرناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته وجمله وآياته، من نظام له سمت وحده وطابع خاصّ به، خرج فيه عن هيئة كلّ نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه، فلاجرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه الى تذليل منهجه.

وآية ذلك أنّ أحدا لوحاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيّين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كلّ قارئ وجعل نظامه يضطرب في أُذن كلّ سامع، وإذاً لنادى الداخلُ على نفسه بأنّه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد. «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»[1]

---

(١) فصلت: ٤١-٤٢.

وأنت إذ لم يلهك جمال الغطاء عمّا تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الاستار عمّا ورائها من السّر المصون، بل فليت القشرة عن لبّها وكشفت الصدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي الى ذلك النظام المعنوي، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيت منه ماهو أروع وأبدع.

لانريد أن نحدّثك هاهنا عن معاني القرآن وماحوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإنّ لهذا الحديث موضعاً آخر يجيء - إن شاء الله تعالى - في بحث الإعجاز العلمي وحديثنا الآن كماترى في شأن الإعجاز اللغوي، وإنّما اللغة الألفاظ.

بيد أنّ هذه الألفاظ ينظر فيها تارة من حيث هي أبنية صوتيّة مادّتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر الى دلالتها... وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلّم الى نفس المخاطب بها، وهذه الناحية لاشك أنّها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام. والفضيلة البيانية إنّما تعتمد دقّة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء كان ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً، وأن يكون هدى أو ضلالاً، فقد كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامه، لأنّها تصف ما في أنفسهم على أتمّ وجه.

انظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بتخمة الإسراف ولابمخمصة التقتير، يؤدّي لك من كلّ معنى صورة نقيّة وافية، نقيّة لايشوبها شيء ممّا هو غريب عنها، وافية لايشذّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكماليّة. كلّ ذلك في أوجز لفظ وأنقاه. ففي كلّ جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كلّ كلمة منه عضو من اعضائه، وفي كلّ حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع

جمله من آياته سرّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته. و بالجملة ترى- كما يقول الباقلّاني -محاسن متوالية وبدائع تترى.

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعُدّ ما أحصته كفُّك من الكلمات عدّاً، ثم أحص عدّتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفّتين، وانظر نسبة ماحواه هذا الكلام من المعاني الى ذاك ، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدّلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأيّ كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدّلها هناك ؟ فكتاب الله تعالى- كما يقول ابن عطية-: «لونزعت منه لفظة ثم أُديرلسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد» .

بل هوكما وصفه تعالى «كِتابٌ احْكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبيرٍ»(١) .

* * *

وميزة اخرى تفوق بالقرآن الكريم على سائر الكلام: أنّه خطاب مع العامّة كما هو خطاب مع الخاصّة، وهاتان غايتان متباعدتان عند الناس. إنّك لوخاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بالكلام الى مستوىً لايرضونه. ولو أنّك خاطبت العامّة باللّمحة والإشارة التي تخاطب بها الخاصّة للجأتهم الى مالا تطيقه عقولهم، فلاغنى لك - إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقّها كاملاً من بيانك -أن تخاطب كلّ واحدة منها بغير ما تخاطب الاُخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال.. فأمّا أنّ جملة واحدة وتعبيراً واحداً تلقي الى العلماء والجهلاء، والى الأذكياء والأغبياء، والى السوقة والاُدباء، فيراها كلّ منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك مالا تجده -على أتمّه- إلّا في القرآن الكريم، فهوقرآن واحد يراه البلغاء اوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامّة أحسن كلام وأقربه الى

---

(١) هود : ١.

عقولهم لايلتوي على أفهامهم، ولايحتاجون منه الى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامّة والخاصّة على السواء، ميسّر لكل من أراد «وَلَقَدْ يَسَّرْنا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»[1] و[2]

وميّزات أُخرى أيضاً ذكرهنّ بهذا الشأن، سوف نوافيك بها في فصل قادم عند الكلام عن دلائل الإعجاز، في الحقل الثاني من الكتاب إن شاء الله.

* * *

٤- وقال الأُستاذ مصطفى صادق الرافعي: وقد كان من عادة العرب أن يتحدّى بعضهم بعضاً في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، ثقة منهم بقوّة الطبع، ولأنَّ ذلك مذهب من مفاخرهم، يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلوّ الكلمة، وهم مجبولون عليه فطرة. ولهم فيه المواقف والمقامات في أسواقهم ومجامعهم. فتحدّاهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، وسلك الى ذلك طريقاً كأنّها قضيّة من قضايا المنطق التأريخي، فإنّ حكمة هذا التحدّي وذكره في القرآن، إنّما هي أن يشهد التأريخ في كلّ عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدّ والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه ولاخير منهم في الطبع والقوّة، فكانوا مظنّة المعارضة والقدرة عليها. حتى لايجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن، مولّد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة، فيزعم أنّ العرب كانوا قادرين على مثله...

أمّا الطريقة التي سلكها الى ذلك، فهي أنّ التحدّي كان مقصوراً على طلب المعارضة بالمثل، ثم قرن التحدّي بالتأنيب والتقريع، ثمّ استفزّهم بعد ذلك جملة واحدة، كما ينفج الرماد الهامد[3]، فقال: «وإنْ كُنتُم في رَيبٍ مِمّا نَزّلنا علىٰ عَبدِنا فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثلِهِ وادعُوا شُهدائَكُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتُم

---

(١) القمر: ١٧. (٢) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن): ص ٩٥- ١٠٦.

(٣) نفجت الريح: هاجت وجاءت بشدة.

صادِقِين فإنْ لَم تَفعَلوا وَلَن تَفعَلوا فاتّقُوا النّارَ الّتي وَقودُها النّاسُ والحِجارَة أُعِدّتْ لِلكافِرينَ» فقطع لهم أنّهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلّا من الله ولا يقولها عربي في العرب أبداً، وقد سمعوها واستقرّت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنّها تنفي عنهم الدهر نفياً وتعجزهم آخرالأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قطّ أن يفعلوا. وطارت الآية بعجزهم وأسجلته عليهم ووسمتهم على ألسنتهم ...

تأمّل نظم الآية تجد عجباً، فقد بالغ في اهتياجهم واستفزازهم ليثبت أنّ القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميّت على أعمال الحياة، لن تكون ولن تقع! فقال لهم: لن تفعلوا! أي هذا منكم فوق القوّة وفوق الحيلة وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقوداً، ثمّ قرنهم الى الحجارة، ثمّ سمّاهم كافرين. فلو أنّ فيهم قوّة بعد ذلك لانفجرت، ولكن الرماد غيرالنار...

فلمّا رأوا هممهم لا تسمو الى ذلك، ولا تقارب المطمعة فيه، وقد انقطعت بهم كلّ سبيل الى المعارضة، بذلوا له السيف، كما يبذل المحرج آخروسعه «آخرالدواء الكيّ» واخطروا بأنفسهم وأموالهم، وانصرفوا عن توهّن حجته الى تهوينها على أنفسهم بكلام من الكلام، فقالوا ساحر، وشاعر، ومجنون، ورجل يكتتب أساطير الأوّلين، وإنّما يعلّمه بشر، وأمثال ذلك ممّا أخذت به الحجة عليهم وكان إقراراً منهم بالعجز...[1].

قال: وكان أُسلوب الكلام عند العرب قبيلاً واحداً وجنساً معروفاً، ليس إلّا الحرّ من المنطق والجزل من الخطاب، وإلا اطّراد النسق وتوثيق السرد وفصاحة العبارة وحسن ائتلافها.. فلمّا ورد عليهم اسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب والوان المنطق، ليس في ذلك اعنات ولامعاياة، غير أنّهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق

---

(١) إعجاز القرآن: ص١٦٩- ١٧٠.

حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته، ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعرّ منه الجلود، حتى أحسّوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة، ورآى بلغاؤهم أنّه جنس من الكلام غير ما هم فيه فاستيأسوا من حقّ المعارضة، إذ وجدوا من القرآن ما يغمر القوة ويحيل الطبع ويخاذل النفس، مصادمة لا حيلة ولا خدعة.. ولهذا انقطعوا عن المعارضة...[1]

ثم أخذ في بيان وجه هذا الإعجاز وسرّه الكامن وراء جمال لفظه وروعة بيانه، قال: ذلك بعض ما تهيّأ لنا من القول في الجهات التي اختصّ بها اسلوب القرآن، فكانت اسباباً لانقطاع العرب دونه وانخذالهم عنه. وتلك أسباب لايمكن أن يكون شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة، لأنّها خارجة عن قوى العقول وجماع الطبائع، ولا أثر لها في نفس كلّ بليغ إلّا استشعار العجز عنها والوقوف من دونها... وإنّما تلك الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فنحن الآن قائلون في سرّ الإعجاز الذي قامت عليه هذه الطريقة وانفرد به ذلك النظم، وهو سرّ لاندعي أنّنا نكشفه أو نستخلصه أو ننتظم اسلوبه، وإنّما جهدنا أن نومئ إليه من ناحية ونعيّن بعض أوصافه من ناحية، فإنّ هذا القرآن هو ضمير الحياة، وهو من اللغة كالروح الإلهيّة التي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود...

... والكلام بالطبع يتركّب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. وقد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلّها... ولهذا النظم طريقة خاصّة اتّبعها القرآن الكريم كانت غريبة على العرب وفي نفس الوقت رائعة تستأنس إليها النفوس! إنّ طريقة النظم التي اتّسقت بها ألفاظ القرآن، وتألّفت لها حروف هذه

---

(١) المصدر: ص١٨٨ـ ١٨٩.

الألفاظ إنّما هي طريقة يتوخّى بها الى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنّها ظهرت فيه أوّل شيء على لسان النبي(صلى الله عليه وآله) فجعلت المسامع لاتنبو عن شيء من القرآن، ولاتلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن سمعه بدّ من الاسترسال إليه والتوفّر على الإصغاء، لايستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستنسئه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة، فإنّه إنّما يسمع ضرباً خالصاً من (الموسيقى اللغويّة) في انسجامه واطّراد نسقه واتّزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ونبرة نبرة كأنها توقّعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة!

وهذا نوع من التأليف لم يكن منه في منطق أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء إلّا الجمل القليلة التي إنّما تكون روعتها وصيغتها وأوزان توقيعها من اضطراب النفس الحاصل في بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها فتنتزي بكلام تلفظه العاطفة أحياناً.

وكان العرب يترسّلون أويحذمون[١] في منطقهم كيفما اتفق لهم لايراعون أكثر من تكييف الصوت، دون تكييف الحروف اللّهم إلّا بتعمّل يأتونه على نمط الموسيقي وهي غاية ماعرفوه من نظم الكلام.

فلمّا قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغويّة رائعة، كأنّها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها. (وكلّ الذين يدركون أسرار الموسيقي وفلسفتها النفسيّة ـ اليوم ـ لايرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفاً واحداً، ويعلو القرآن على الموسيقي، أنّه مع هذه الخاصيّة العجيبة ليس من الموسيقي)ـ والعرب لم يفتهم هذا المعنى، وأنّه أمر لاقبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى أنّ

---

(١) الحذم في القراءة: الإسراع.

من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته الى ماحسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه وطوى عمّا وراء ذلك من التصرّف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنّه فطن الى أنّ الصدمة الأُولى للنفس العربيّة، وإنّما هي في أوزان الكلمات واجراس الحروف دون ماعداها، وليس يتّفق ذلك في شيء من كلام العرب إلّا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع.

... وأنت تتبيّن ذلك إذا أنشأت ترتّل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، ممّا تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء، فإنّك لابدّ ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكّرت الكلام وغيّرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجرّدته من زينة الأُسلوب... لأنّك تزنه على أوزان لم يتّسق عليها..

... وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنّه ممّا لايتعلّق به أحد، ولا يتّفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلّا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعيّة في الهمس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشّي والتكرير، وغير ذلك ممّا جاء في صفات الحروف.

... ولقد كان هذا النظم عينه هوالذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولّى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم ـممّا يرجع الى تساوق النظم واستواء التأليفـ مالم يكن مثله للعرب من قبلهم، وحتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسّل، على جفاء كان فيهما، الى سجع وترسّل تتعرّف في نظمهما آثار الوزن والتلحين..

وليس يخفى أنّ مادة الصوت هي مظهر الإنفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدّاً أو غنّةً

أوليناً أوشدّةً، وبما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من اصولها. ثم هو يجعل الصوت الى الإيجاز والإجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار مايكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبُعد المدى ونحوها، ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقي.

... وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كلّ نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كلّ نفس تفهمه، وكلّ نفس لا تفهمه، ثم لايجد من النفوس على أيّ حال إلّا الإقرار والاستجابة.. وقد انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألّفت كلماته من حروف لوسقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيّناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها الى بعض، ولرأيت لذلك هجنة في السمع...

... وممّا انفرد به القرآن على سائر الكلام، أنّه لايخلق على كثرة الردّ وطول التكرار، ولا تملّ منه الإعادة، وكلّما أخذت فيه على وجهه ولم تخل بأدائه، رأيته غضّاً طريّاً وجديداً مونقاً وصادفت من نفسك نشاطاً مستأنفاً وحسّاً موفوراً... وهذا لعَمَرُالله أمر يوسّع فكرالعاقل ويملأ صدرالمفكّر، ولانرى جهة تعليله ولا نصحّح منه تفسيراً إلّا ماقدّمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقيّة، وتساوق هذه الحروف على أُصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمدّ والغنّة... على اختلاف أنحائها بسطاً وإيجازاً وابتداءً وردّاً وإفراداًوتكريراً...

... والكلمة في حقيقة وصفها إنّما هي صوت للنفس، لأنّها تلبّس قطعة من المعنى فتختصّ به على مناسبةٍ لحظتها النفس فيها حين فصّلت تركيب الكلام.

وصوت النفس أوّل الأصوات الثلاثة التي لابدّ منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النفسيّة والأصوات الثلاثة هي:

١- صوت النفس، وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه...

٢- **صوت** العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ومن الوجوه البيانيّة التي يداور بها المعنى في أيّ جهة انتحى إليها.

٣- صوت الحسّ، وهو أبلغهنّ شأناً، لايكون إلّا من دقّة التصوّر المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرّة وموادعتها أُخرى.

وعلى مقدار مايكون في الكلام البليغ من هذا الصوت، يكون فيه من روح البلاغة، بل صار كأنّه روح للكلام ذاته. يبادرك الروعة في كلّ جزء منه كما تبادرك الحياة في كلّ حركة للجسم الحيّ، كأنّه تمثيل بألفاظ لخلقة النفس، في دقّة التركيب وإعجاز الصنعة..

... ولو تأمّلت هذا المعنى فضلاً من التأمّل، وأحسنت في اعتباره على ذلك الوجه، لرأيته روح الإعجاز في هذا القرآن الكريم...

وأعجب شيء في أمر هذا الحسّ الذي يتمثّل في كلمات القرآن، أنّه لايسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقتصد في كلّ أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخوّنها الملال، وهو يسوّغها من لذتها ويرفّه عليها بأساليبه وطرقه في النظم والبيان.

... ولو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفيّة واللغويّة تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها الّا مؤتلفة مع اصوات الحروف،

مساوقة لها في النظم الموسيقي. حتى أنّ الكلمة ربّما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّها كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظّ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكّنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفّة والروعة.

من ذلك لفظ «النذر» جمع نذير، فإنّ الضمّة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوّه في اللسان، وخاصّة إذا جاءت فاصلة للكلام. فكلّ ذلك ممّا يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنّه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ»(1). فتأمّل هذا التركيب وانعم ثم انعم على تأمّله، وتذوّق مواقع الحروف واجرِ حركاتها في حسّ السمع وتأمّل مواضع القلقلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو «تماروا»، مع الفصل بالمدّ، ثمّ اعجب لهذه الغنّة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها، وللغنّة الأُخرى التي سبقت الذال في «النّذر».

وما من حرف أو حركة في الآية إلّا وأنت مصيب من كلّ ذلك عجباً في موقعه والقصد به.

قال: إنّما تلك طريقةٌ في النظم قد انفرد به القرآن، وليس من بليغ يعرف هذا الباب إلّا وهو يتحاشى أن يلمّ به من تلك الجهة أو يجعل طريقه عليها، فإن اتفق له شيء منه كان إلهاماً ووحياً، لا تقتحم عليه الصناعة ولا يتيسّر له

---

(1) القمر: ٣٦.

الطبع بالفكر والنظر... فلا يتهيأ لأحد من البلغاء في عصور العربيّة كلّها من معارض الكلام وألفاظه، مايتصرّف به هذا التصرّف في طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضرباً موسيقياً، وينظم نظماً مطّرداً. فهذا ان أمكن أن يكون في كلام ذي ألفاظ، فليس يستقيم في ألفاظ ذات معان، فهو لغو من إحدى الجهتين. ولو أنّ ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرناً، ونحن اليوم في القرن الرابع عشر من تأريخ تلك المعجزة.

... ثم أخذ في ضرب أمثلة من ألفاظ وكلمات كانت غريبة وثقيلة، لكنّها جاءت في القرآن في مواقعها الخاصّة أليفة وخفيفة في أبدع مايكون وأروع مايتصوّر، «كتاب أحكمتْ آياته ثم فُصِّلتْ مِن لَدن حَكيمٍ خَبيرٍ»[1]. وسنذكر تفاصيلها في مجاله الآتي إن شاء الله.

* * *

٥ـ وللأُستاذ محمد فريد وجدي كلام في وجه إعجاز القرآن، يشبه بعض الشيء من كلام الرافعي فيما نقلناه آنفاً «فان هذا القرآن هو ضمير الحياة، وهو من اللغة كالروح، الإلهية التي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود...»[2] فقد أخذ الأُستاذ وجدي هذا المعنى وشرحه شرحاً، قال:

حصر المتكلّمون في إعجاز القرآن كلّ عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته، وإنّنا وإن كنّا نعتقد أنّ القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلّا أنّنا نرى أنّها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس، فإنّ للبلاغة على الشعور الإنساني تسلّطاً محدوداً لايتعدّى حدّ الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ماكان يحدثه في مبدأ توارده عليها. وليس هذا شأن القرآن، فإنّه قد ثبت أنّ تكرار تلاوته تزيده تأثيراً. ولكنّه معجز لتسلّطه على النفس

(١) هود: ١. اعجاز القرآن للرافعي: ص ٢٠٩ـ٢٢٩. (٢) إعجاز القرآن: ص ٢٠٩.

والمدارك ، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان ولايزال للقرآن على عقول الآخذين به!

العلّة في نظرنا واضحة لاتحتاج لكثير تأمّل، وهي أنّ القرآن روح من أمرالله، «وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ روحاً مِنْ أَمْرِنَا»[1]، فهو يؤثّر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحرّكها ويتسلّط على أهوائها. وأمّا تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدّى سلطانه حدّ إطرابها والحصول على إعجابها.

فقوله تعالى: «وكذٰلِكَ أوحَينا الَيكَ رُوحاً مِن أمرِنا» يكفي وحده في إرشادنا الى جهة إعجاز القرآن، وقصور الإنس والجنّ عن الإ تيان بمثله، وبقائه الى اليوم معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي، وتتألّق في جمالها القدسيّ. ذلك لما كان القرآن روح من أمرالله، فلاجرم كانت له روحانيّة، خاصّة، هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر لانقطاع الإنس والجنّ عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه، وناهيك بروحانيّة الكلام الإلهي!

نعم أنّ جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك الروحانيّة العالية التي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه، وأرغمت لهم معاطس الجبابرة والقساورة، ووطأت لهم عروش الأكاسرة والقياصرة.. «يُلقي الرُّوحَ من أمرِهِ عَلىٰ مَن يَشَاءُ مِن عبادِهِ»[2].

لامشاحة في أنّ القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان. وهو حكيم بهر سماسرة الحكمة والفلسفة وأدهش أساطين القانون والشريعة وحيّر أراكين النظام والدستور. وهو حقّ ألزم كلّ عال الحجة ودلّ كلّ باحث على الحجّة ولم يغادر صغيرة

---

(١) الشورىٰ: ٥٢. (٢) غافر: ١٥.

ولا كبيرة إلّا أحصاها. وهو هدىً ورحمة ونور وشفاء لما في الصدور.

كلّ هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول، فتتحكّم فيها تحكّم الملك في ملكه ولكنّه فوق ذلك كلّه (روح من أمرالله) تصل من روح الإنسان الى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان، ولا سيالات الحكمة والعرفان، وتسري من صميم معناه الى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر، ولا يتخيّله خيال شاعر.

هذه الروحانيّة تنفذ الى سرّ سريرة الإنسان وسويداء ضميره، وتستولي منها على أصل حياته، ومهبّ عواطفه وإحساساته، وتخلقه خلقاً جديداً وتصوّره بصورة لا يتخيّلها ولوقيلت له لما أدركها. ألا ترى كيف فعلت بأُولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحوّلون عنها ولا يسأمون منها، فنفختهم بروح عالية قاموا بواسطتها يحمّلون الملوك سلطانهم حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها الى أقصاها..!

أيّ حجّة أكبر من هذه الحجّة على أنّ القرآن روح إلهيّ وأمر سماويّ، وأيّ وجه من وجوه الإعجاز بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم أوقع في النفس وأنفى للشك وأولى بالقبول من وجه روحانيّته؟

إنّ للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان، روحانية يدركها من لاحظّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، حتى الطفل والعاميّ يعتريهما تهيّب عند تلاوته، ويكادان يفرّقان بين ماهو قرآن وماليس بقرآن، فيمالوأراد التالي أن يغشهما. وهذا يظهر جليّاً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس، فإنّها تتجلّى لك من بين السطور وخلال التراكيب كالشمس في رائعة النهار..

قال: هذا رأيُنا في جهة إعجاز القرآن، وهو فيما نعلم يحل مشاكل هذا البحث، ويمكن الاستدلال عليه بالحسّ والواقع، أمّا ما أولع به الناس من أنّه

لبلاغته وتجاوزه حدود الإمكان، فلم نقف له على أثر في ذات القرآن، ولم يأت ذكره في آياته ممّاجاء وصف القرآن فيها، وليس فيها مايشير الى جهة بلاغته اللفظية، التي هي من الصنعات الثانية التي لايصحّ أن يمتدح بها الله في كتابه...[1]

* * *

٦ـ وللشيخ محمد عبده رأي لم يتعدّ فيه رأي القدماء، وهو أشبه بالاستدلال العقلي الكلامي على نمط دلائل المتكلّمين، قال في رسالة التوحيد: جاء الخبر المتواتر أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) نشأ أُميّاً، كما تواترت أخبارالأُمم على أنّه جاء بكتاب قال أنّه أنزله الله عليه. كتاب حوى من أخبار الأُمم الماضية مافيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة. نقّب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التي لحقته الأوهام بها... وشرّع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم... وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة... ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعيّة... وجاء بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهشّ لاستقبالها العقول.

نزل القرآن في عصر كان أرقى الأعصار عند العرب، وأغرزها مادة في الفصاحة، وبذلك تواترت الأخبار، كما تواترت بمبلغ حرصهم على معارضة النبي (صلى الله عليه وآله) والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه، وقد تحدّاهم لو يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن لواستطاعوا فما استطاعوا، فمع طول زمن التحدّي ولجاج القوم، اصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقّت للكتاب العزيز الكلمة العليا...

أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمّي، أعظم معجزة وأدلّ برهان على أنّه كلام الله وليس من صنع البشر؟

هذا وقد جاء في القرآن من أخبار الغيب ما صدّقته حوادث الكون.. ومنه ماجاء في تحدّى العرب مع سعة بلادهم وتباعد اطرافها، ولم يسبق له (صلى الله

(١) دائرة معارف القرن العشرين: ج٧ ص٦٧٧ـ ٦٨٠ مادّة قرأ.

عليه وآله) السياحة في نواحيها للتعرّف على رجالها... فهذا القضاء الحاسم (ولن تفعلوا) ليس قضاء بشرياً في العادة... إذ لايمكن أن يصدر من إنسان عاقل مثل هذا التحدّي بأن لايوجد على وجه الأرض من يكون على مثيله، سوى أنّه كلام صادر من الله العليم الخبير[١].

* * *

٧ـ ولعلّامة الأُدباء وفقيه الحكماء، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (توفي سنه ١٣٧٣) كلام تحقيقي عميق، وبيان تفصيلي رشيق حول إعجاز القرآن، أتى به على أُسلوبه الفنيّ البديع وسبك انشائه الأدبي الرفيع حبى به موسوعته القيّمة (الدين والإسلام) التي وضعها لترصيص قواعد الدعوة وترصيف مباني الشريعة، في ضوء الحكمة العالية وهدى العقل الرشيد. فكان من الحريّ أن نقتطف من رياحين حدائقه الغنّاء أزهاراً، ونجتني من رياض حقوله الخصباء أنوارا:

قال (قدس سره): قد ثبتت التواترات القطعيّة، وقامت الضرورة البتيّة، أنّ صاحب الشريعة الإسلامية، محمدبن عبدالله (صلى الله عليه وآله) قد ادّعى النبوّة، وتحدّى بالمعجزة وطلب المعارضة، وأتى بما هوالشائع على أهل زمانه، والمتنافس عليه عند قومه، وكانت بلدته أخصب البلاد لإيناع تلك الثمرة المنضحة، وتربية أساطين تلك الصنعة الرائجة... ولمّا دعاهم الى تلك الدعوة المقدّسة، طغوا وبغوا عليه، وشقّ عليهم ذلك حتى تخاوصوا بحماليق الحنق إليه[٢]. وماتحدّاهم إلّا بالمألوف لهم، المأخوذ عنهم والمسوق إليهم، ولم يزل يلحّ عليهم بأنحاء شتى وعبارات متفاوته، حتى اعترف بالعجز عريفهم، وتلدّد تليدهم وطريفهم، وصقع مصاقعهم[٣]، وعاد لبيدهم بليداً، وشيبتهم وليداً،

(١) عن رسالة التوحيد بقلمه: ص ١١٤ـ١١٧ بتلخيص.

(٢) التخاوص: النظر الشزر. والحملقة: التحديق والنظر بشدّة.

(٣) التلدّد: التحيّر. التليّد: الأصيل: والطريف: الحديث الشرف. صقع: صرع. والمصقع البليغ في خطابته..

وقائمهم حصيداً، وعالمهم أباجهل، وسهيلهم على السهل، وعتبتهم اعتاهم، وأبولهبهم أخمدهم وأخزاهم، وعبدشمسهم آفلا، ونابغتهم خاملا، وحيّ أخطبهم ميّتا، وهشامهم مخزوما، ومخزومهم مهشوما، وسراتهم أسارى وكبّارهم من الصّغار صغارا...

ثم قنع منهم بعشر سور من سوره المنزلة، ثم تنزّل معهم ـوهو الرفيع ـ الى أدنى منزلة، فقنع منهم بأن يأتوا بعشر آيات، رضى منهم بسورة واحدة... فالتجأوا الى مفاوضة الحتوف، عن معارضة الحروف، وعقلوا الألسنة والعقول، واعتقلوا الأسنّة والنصول. ورضوا بكلم الجراح، عن الكلم الفصاح. وفرّوا الى سعة آجالهم من ضيق مجالهم... فما انجلت غبرة الضلال عن جبهة الحقّ إلّا وهم بأسرهم أسرى أو قتلى، الى أن عادت كلمة الله هي العليا، وكلمة اعدائه هي السفلى...

وهكذا ماتصدّى في الازمنة المتأخّرة لمعارضته، إلّا مأفون الرأي، مايق العقل[1]. ومن الأعاجيب أنّك ترى الرجل في جميع المقامات فارس يليلها[2] حتى إذا تصدّى ـ من ضعف في دينه، أوخور في عود يقينه، أو زندقة في هواه، أو وصم عهار في عصاه ـ الى مقاومة ذلك المقام ومعارضة معجز ذلك النظام، أفحم وتبلّد، وأبكم وتلدّد[3] هذا مسيلمة وسجاح من الأوّلين.. والمتنبّي والمعرّي وأضرابهم من الآخرين... كلّ يزعم أنّه أتى بما يضاهي القرآن، فهل تجد فيه إلّا مايضحك الصبيان... «مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ..»[4]...

ثمّ أخذ في بيان أوجه إعجازه:

---

(١) أفن: ضعف رأيه فهو أفين ومأفون وماق الرجل: حمق في غباوة.

(٢) يليل: اسم جبل معروف بالبادية، وموضع قرب وادي الصفراء من اعمال المدينة. وإليه نسب عمروبن عبدود: فارس يليل.

(٣) تلدّد: تلجلج وأفحم عن التكلّم.

(٤) الحج: ٧٤.

أوّلاً: ارتفاع فصاحته واعتلاء بلاغته، بما لا يدانيه أيّ كلام بشريّ على الإطلاق... وضرب (رحمه الله) لذلك أمثلة من جلائل آياته العظام وأطنب بما بلغ الغاية القصوى.

ثانياً: صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا الى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر.. هكذا اعترف له أفذاذ العرب وفصحاؤهم الأوّلون..

ثالثاً: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ممّا لم يكن فكان كما قال: ووقع كما أخبر، في آيات كثيرة معروفة...

رابعاً: ما أنبأ من أخبار القرون السالفة والأُمم البائدة والشرائع الداثرة، ممّا كان لا يعلم به إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب في صورة ناقصة ومشوّهة، فأتى به القرآن على وجهه الناصع المضيء بما يشهد صدقه وصحّته كلّ عالم وجاهل. في حين أنّه (صلى الله عليه وآله) لم يقرأ ولم يكتب، ولم يعهد دراسته لأحوال الماضين.

وأخيراً أتمّ كلامه ببيان البلاغة وشأنها الرفيع وشأوها البعيد، وأنّ العرب مهما أُوتوا من إحكام مبانيها وإتقان رواسيها، فإنّ القرآن هو الذي روّج من هذا الفنّ وأشاد من منزلته بل وعرّف البلغاء البلاغة والكتابة والبيان. وبذلك أسدى الى العربيّة جسيم نعمه، وأسبغ عليها عميم رحمة وفضل وكرامة[1].

وفي تعقيب كلامه تعرّض لشبهات هي نزعات بل نزغات، سوف نعرضها في مجالها المناسب الآتي إن شاء الله.

---

(١) الدين والاسلام: ج ٢ ص٥٣ـ ١٢٧.

٨ـ وللحجّة البلاغي الشيخ محمد جواد صاحب تفسير الآلاء، اختيار مذهب السلف في وجه الإعجاز: فقد خصّ العرب بجانب بيانه السحري العجيب في مثل نظمه البديع وأسلوبه الغريب وإن اشتركوا مع سائر الناس بوجوه أُخرى غيره:

١ـ منها: سرده حوادث تأريخية ماضية كانت معروفة في كتب السالفين بوجه محرّف، فجاء بها القرآن نقيّة لامعة، ممّا لايمكن الإتيان به من مثل النبيّ الأُمّيّ العربيّ. وسنذكر نماذج منها عند مقارنة القرآن مع كتب العهدين.

٢ـ ومنها: احتجاجاته المضيئة وبراهينه الحكيمة، التي كشفت النقاب عن حقائق ومعارف كانت خفيّة ومستورة لذلك العهد، حجبتها ظلمات الضلال المتراكمة في تلك العصور المظلمة تلك الظلمات التي استولت على أرجاء العالم.

٣ـ ومنها: استقامة بيانه وسلامته من النقض والاختلاف: «إِنَّ هَذا القرآن يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَم»[1]. «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآن وَلَوْكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثيراً»[2].

فقد خاص القرآن في فنون المعارف وشتى العلوم ممّا يتخصّص به الممتازون من علماء البشر، فقد طرق أبواب الفلسفة والسياسة والإدارة وأصلح من علم اللاهوت والأخلاق والسنن والآداب، وأتى بالتشريع المدني والنظام الإداري والفن الحربي، وأرشد وذكّر ووعظ، وهدّد وأنذر، في أحسن أسلوب وأقوم منهج وأبلغ بيان، لم تشنه زلّة ولم تنقضه عثرة ولا وهن ولا اضطرب ولا سقط في حجة وبرهان. الأمر الذي لايمكن صدوره من مثل إنسان عاش في تلك البيئة الجاهلة البعدية عن معالم الحضارة وأُسس الثقافات.

---

(١) الاسراء: ٩. (٢) النساء: ٨٢.

٤ـ ومنها: إعجازه من وجهة التشريع العادل ونظام المدنية الراقية، ممّا يترفّع بكثير عن مقدرة البشر الفكريّة والعقليّة ذلك العهد. ولاسيّما إذا قارنّاه مع شرائع كانت دارجة في أوساط البشر المتديّنة أوالمتمدّنة فيما زعموا.

٥ـ ومنها: استقصاؤه للأخلاق الفاضلة ومبادئ الآداب الكريمة، ممّا كانت تنبوعن مثل تلك العادات والرسوم التي كانت سائدة الى ذلك العهد.

٦ـ ومنها: إخباراته الغيبية وارهاصاته بتحكيم هذاالدين وإعلاء كلمة الله في الأرض في صراحة ويقين...

قال: هذاشيء قليل من البيان في الوجهات المذكورة، وهَبْ أنّ الوساوس تقتحم على الحقائق وتخالط الأذهان بواهيات الشكوك، ولكن الزبد يذهب جفاء فأمّاما ينفع الناس فيمكث في الأرض... وهل يسوغ لذي شعور أن يختلج في ذهنه الشك ـ بعد هذا ـ في إعجاز القرآن، وهوالكتاب الجامع بفضيلته لهذه الكرامات الباهرة وخروجه عن طوق البشر مطلقا، وخصوصاً في ذلك العصر وفي تلك الأحوال، وهل يسمح عقله إلاّ بأن يقول: «إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»[١] وصدق الله العظيم[٢].

* * *

٩ـ وهكذا ذهب سيّدنا الطباطبائي مذهب شيخه البلاغي في وجوه الإعجاز، قال: وقع التحدّي الصريح بوجه عامّ، ولم يخصّ جانب بلاغته فحسب ليختّص بالعرب العرباء أو المخضرمين قبل أن يفسد لسانهم بالاختلاط مع الأجانب. وكذا كلّ صفة خاصّة اشتمل عليها القرآن، كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعيّة وإخباره بالمغيّبات وغيرها ممّا لم تبلغها البشريّة ولم يمكنها بلوغ كنهها إطلاقاً. فالتحدّي يشمل الجميع وفي جميع مايمكن فيه التفاضل من الصفات.

---

(١) النجم: ٤.

(٢) راجع تفصيل ما اقتضبناه من مقدّمة تفسيره آلاء الرحمان: ص٣ـ١٦.

فالقرآن آية للبليغ في بلاغته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللمتشرّعين في تشريعاتهم وللسياسيّين في سياساتهم، وللحكام في أحكامهم وقضاياهم، ولجميع أرباب الفنون والمعارف فيما لايبلغون مداه ولاينالون قصواه.

وهل يجترئ عاقل أن يأتي بكتاب يدّعي فيه هدى للعالمين وإخباراً عن الغيب ويستطرق أبواباً مختلفة من دون ما اختلافٍ أوتناقضٍ أبداً، فلا يشك لبيب أن تلك مزايا كلّها فوق مستطاع البشريّة وو وراء الوسائل الماديّة البحتة.

فقد تحدى بالعلم والمعرفة الخاصة «تبياناً لِكُلّ شي ءٍ»[١].

وتحدّى بمن أنزل عليه «قُل لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»[٢].

وتحدّى بالإخبار بالغيب «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ»[٣].

وتحدّى بعدم الاختلاف «وَلَوكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً» وتحدّى ببلاغته «أم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إن كُنْتُمْ صادقين.فإن لم يَسْتَجِيبُوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ»[٤].

وقد مضى القرون والأحقاب ولم يأت بما يناظره آت ولم يعارضه أحد بشيء إلّا أخزى نفسه وافتضح في أمره[٥].

* * *

١٠ـ وعلى نفس المنهج ذهب سيّدنا الأُستاذ الخوئي (دام ظله) قال: وإذ قد عرفت أنّ القرآن معجزة إلهيّة، في بلاغته وأُسلوبه، فاعلم أنّ إعجازه

---

(١) النحل: ٨٩. (٢) يونس: ١٦.

(٣) هود: ٤٩. (٤) هود: ١٣ـ ١٤.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ج ١ ص٥٧ ـ ٦٧.

لاينحصر في ذلك، بل هو معجزة ربّانيّة، وبرهان صدق على النبوّة من جهات شتّى: من جهة اشتماله على معارف حقيقيّة نزيهة عن شوائب الأوهام والخرافات، التي كانت رائجة ذلك العهد ولاسيّما عند أهل الكتاب ... ومن جهة استقامته في البيان وسلامته عن الاختلاف، مع كثرة تطرّقه لمختلف الشؤون. وتكرّر القصص والحكم فيه مع الاشتمال كلّ مرّة على حكمة ومزيّة فيها لذّة ومتعة ... ومن جهة ما أتى به من نظام قويم وتشريع حكيم ... ومن جهة إتقانه في المعاني وإحكامه في المباني .. ومن جهة إخباره عن مغيّبات وأنباء عمّا سلف أو يأتي وظهور صدقه للملأ ... وكذا من جهة اشتماله على بيان أسرار الخليقة ممّا يرتبط وسنن الكون ونواميس الطبيعة، ممّا لا سبيل الى العلم به ولا سيّما في ذلك العهد ...

وأخيراً قال(دام ظلّه): بل أعود فأقول: إنّ تصديق مثل أميرالمؤمنين علي (عليه السلام)ـ وهو بطل العلم والمعرفة والبيان ـ لإعجاز القرآن، لشاهد صدق على أنّه وحي إلهي، تصديقاً حقيقيّاً مطابقاً للواقع وناشئاً عن الإيمان الصادق، وهو الحقّ المطلوب[1].

---

(١) البيان في تفسير القرآن: المقدمة ص٤٣ ـ ٩١.

القول بالصرفة

هناك قول في وجه الإعجاز، لعلّه يخالف رأي الجمهور، هو: أنّ الآية والمعجزة في القرآن إنّما هي لجهة صرف الناس عن معارضته، صرفهم الله تعالى أن يأتوا بحديث مثله، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمقابلته.ولولا ذلك لاستطاعوا الإتيان بسورة مثله. وهذا التثبيط في نفسه إعجاز خارق للعادة، وآية دالّة على صدق نبوّته (صلى الله عليه وآله) وهذا المذهب -فضلاً عن مخالفته لآراء جمهور العلماء- فإنّه خطير في نفسه، قد يوجب طعناً في الدّين والتشنيع بمعجزة سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله) أن لا آية في جوهر القرآن ولا معجزة في ذاته، وإنّما هو لأمر خارج هو الجبر وسلب الاختيار، وهو ينافي الاختيار الذي هو غاية التشريع والتكليف. وغير ذلك من التوالي الفاسدة.(١)

الأمر الذي استدعى تفصيل الكلام حوله والتحقيق عن جوانبه بما يتناسب مع وضع الكتاب:

---

(١) قال الرافعي -بشأن الآثار السيّئة التي خلّفها القول بالصّرفة-: على أنّ القول بالصرفة هو المذهب الناشئ من لدن قال به النظّام، يصوّبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحّته، وقيامه عليه، وتقلّده أمره، لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وأُسلوبه وإعجازه اللغوي وما الى ذلك. ولكن القوم -عفاالله عنهم- أخرجوا أنفسهم من هذا كله، وكفوها مؤونته بكلمة واحدة تعلّقوا عليها، فكانوا فيها جميعاً كقول هذا الشاعر الظريف الذي يقول:

كأنّنا والماء من حولنا ... قوم جلوس حولهم ماء

الإعجاز: ص١٤٦.

حقيقة مذهب الصرف:

الصرف: مصدر «صرفه» بمعنى ردّه، والأكثر استعماله في ردّ العزيمة، قال تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ»(١).

قال السيد شبّر: أي عن إبطال دلائلي. ومعناه- كما ذكره الطبرسي في المجمع-: سأفسخ عزائمهم على إبطال حججي بالقدح فيها وإمكان تكذيبها، وذلك بوفرة الدلائل الواضحة والتأييد الكثير، بما لايدع مجالا لتشكيك المعاندين ولا ارتياب المرتابين. كما يقال فلان أخْرَسَ أعداءه عن إمكان ذمّه والطعن فيه، بما تحلّى من أفعاله الحميدة وأخلاقه الكريمة...

ومنه قوله تعالى- بشأن المنافقين-: «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ»(٢). وهذا دعاء عليهم بصرف قلوبهم عن إرادة الخير، لكونهم قوماً حاولوا التعمية على أنفسهم فضلاً عن الآخرين..

* * *

وعلى ذلك فقد اختلفت الأنظار في تفسير مذهب الصرف على ماأراده أصحابه، قال الأمير يحيى بن حمزة العلوي الزيدي (توفي سنة ٧٤٩): واعلم أنّ قول أهل الصرفة يمكن أن تكون له تفسيرات ثلا ثة لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال:

التفسير الأوّل: أن يريدوا بالصرفة أنّ الله تعالى سلب دواعيهم الى المعارضة مع أنّ أسباب توفّر الدواعي في حقّهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أنّ الله تعالى سلبهم العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه.

---

(١) الأعراف: ١٤٦.

(٢) التوبة: ١٢٧.

ثمّ أنّ سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين، أحدهما أن يقال: انّ تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم. وثانيهما أن يقال: إنّ تلك العلوم ماكانت حاصلة لهم، خلا أنّ الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها مخافة أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة أنّ الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة: أنّهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلّا أنّ الله تعالى منعهم بما ذكرناه...[١].

وحاصل الفرق بين هذه التفاسير الثلاثة، أنّ الصرف ـ على الأوّل ـ: عبارة عن عدم إثارة الدواعي الباعثة على المعارضة. كانوا مع القدرة عليها، و وفرة الدواعي إليها، خائري القوى وخاملي العزائم عن القيام بها، وهذا التثبيط من عزائمهم وصرف إرادتهم، كان من لطيف صنعه تعالى، ليظهره على الدين كلّه ولوكره المشركون.

وعلى التفسير الثاني، كانوا قد أعوزتهم عمدة الوسائل المحتاج إليها في معارضة مثل القرآن، وهي العلوم والمعارف المشتمل عليها آياته الحكيمة، حتّى أنّهم لوكانت عندهم شيء منها فقد أُزيلت عنهم ومحيت آثارها عن قلوبهم، أولم تكن عندهم ولكنّهم صرفوا عن تحصيلها من جديد خشية أن تقوم قائمتهم بالمعارضة.

وعلى الثالث، أنّ الدواعي كانت متوفّرة، والاسباب والوسائل المحتاج إليها للمعارضة كانت حاضرة لديهم، لكنّهم منعوا عن القيام بالمعارضة منع إلجاء، وقد أمسك الله بعنان عزيمتهم قهراً عليهم رغم الأُنوف.

قلت: والمعقول من هذه التفاسير ـ نظراً لموقع أصحاب هذا الرأي من الفضيلة والكمال ـ هوالتفسير الوسط، لكن بمعنى أنّهم افتقدوا وسائل المعارضة

---

(١) الطراز: ج٣ ص ٣٩١ـ ٣٩٢.

لقصورهم بالذات من جانب، وشموخ موضع القرآن من جانب آخر.. ومن المحتمل القريب إرادة هذا المعنى، حسبما جاء في عرض كلامهم ولا سيما في كلام الشريف المرتضى ماينبّه عليه.

وهكذا رجّح ابن ميثم البحراني (توفي سنة ٦٧٩) إرادة هذا المعنى من كلام السيّد، قال: وذهب المرتضىٰ (رحمه الله) الى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وهذا الصرف يحتمل أن يكون لسلب قدرهم، ويحتمل أن يكون لسلب دواعيهم، ويحتمل أن يكون لسلب العلوم التي يتمكّنون بها من المعارضة. ونقل عنه أنّه اختار هذا الاحتمال الأخير..[١].

وقد تنظّر سعدالدين التفتازاني (توفي سنة ٧٩٣) في صحّة التفاسير الثلاثة جميعاً.قال: الصرفة إمّا بسلب قدرتهم، أو بسلب دواعيهم، أو بسلب العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنّها لم تكن حاصلة لهم، أو بمعنى أنّها كانت حاصلة فأزالها الله.

قال: وهذا (الأخير الذي هو أوسط التفاسير) هوالمختار عند المرتضى. وتحقيقه أنّه كان عندهم العلم بنظم القرآن والعلم بأنّه كيف يؤلّف كلام يساويه أويدانيه، والمعتاد أنّ من كان عنده هذان العلمان يتمكّن من الإتيان بالمثل، إلّا أنّهم كلّما حاولوا ذلك أزال الله تعالى عن قلوبهم تلك العلوم، وفيه نظر[٢].

قال عبدالحكيم السيالكوتي الهروي- في تعليقته على شرح المواقف بعد نقل كلام التفتازاني هذا-: لعلّ وجه النظر استبعاد بعض الأقسام، أو كون سلب القدرة عبارة عن سلب العلوم[٣].

وعلى أيّ حال، فالأجدر هو النظر في تفاصيل مقالاتهم، ماذا يريدون؟

---

(١) قواعد المرام: ص ١٣٢.

(٢) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) شرح المواقف (بالهامش): ج ٣ ص ١١٢.

مقالة أبي إسحاق النظّام[1]:

لم نعثر على مقالته بالتفصيل، سوى ماينقل عنه هنا وهناك من مقتطفات،

---

(١) هو أبوإسحاق إبراهيم بن سيّار بن هاني البصري ابن اخت أبي الهذيل العلّاف شيخ المعتزلة (توفي سنة ٢٣١) كانت له معرفة بالكلام وكان رأساً في الاعتزال، وكانت له آراء تخصّه، منها رأيه في الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) نصّ عليه بالإمامة وكتمته الصحابة. ورفض حجّيّة الإجماع، وقال: الحجة هونصّ المعصوم. وقد اشتهر قوله في أميرالمؤمنين: «علي بن أبي طالب (عليه السلام) محنة على المتكلّم، إن وفى حقّه غلا! وإن بخسه حقّه أساء. والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حائرة الشأن، صعب المراقي إلّا على الحاذق الديّن..» نقله صاحب المناقب.
وذكر الشهرستاني ميله الى التشيّع ورفضه بدع الطواغيت، قائلا: لا إمامة إلّا بالنصّ والتعيين ظاهراً مكشوفاً. وقد نصّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) على عليّ (عليه السلام) في مواضع، وأظهره، إظهاراً لم يشتبه على الجماعة، إلّا أنّ عمركتم ذلك لصالح أبي بكر يوم السقيفة. ونسب الى عمر شكّه في الرسالة وقال: انّه هوالذي ضرب فاطمة (عليها السلام) يوم هجم على دارها لأخذ البيعة من علي، وكان متحصنا في الدار. فجاءت فاطمة لتحول دون هجومه عليها فأصاب بطنها فاسقطت جنينها (محسناً).
وكان عمر يومذاك يصيح: احرقوا دارها بمن فيها، وكان في الدار الحسنان سبطا رسول الله (صلى الله عليه وآله)... الى آخر ما سرده من مطاعن ابن الخطاب. (الملل والنحل: ج ١ ص٥٧).
قلت: ويتأيّد قوله في قضيّة الدار بماذكره ابن عبدربه في (العقد الفريد): ج٣ ص٦٢ ط ٢ القاهرة المطبعة الأزهريّة (١٣٤٦هـ ١٩٢٨م) في الباب الرابع عشر (في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم) في الذين تخلّفوا عن بيعة أبي بكر (وهم علي والعبّاس والزبير وسعد بن عبادة) قال: «فأمّا علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتي بعث إليهم ابوبكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من البيت، وقال: إن أبوا فقاتلهم. فأقبل عمر بقبس من نار، على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال عمر: نعم، أوتدخلوا فيمادخلت فيه الأمّة... فخرج علي حتى دخل على أبي بكر فبايعه..».
وماذكره ابن قتيبة في كتابه (الإمامة السياسة): ج ١ ص١٩ تحقيق طه محمد الزيني، في باب (كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب) قال: «وأنّ أبابكر تفقّد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند عليّ (كرم الله وجهه) فبعث إليهم عمر، فجاءفناداهم وهم في دار عليّ فأبوا أن يخرجوا. فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجنّ أولأحرقنّها على من فيها، فقيل له: يا أباحفص، إنّ فيها فاطمة؟! فقال: وإن. فخرجوا فبايعوا إلّا علياً، لأنّه حلف أن لايضع ثيابه على عاتقة حتى يجمع

منها ما ذكره الزملكاني ـ في كلامه الانف ـ قال: الأكثر على أنّ نظم القرآن معجز، خلافاً للنظّام، فإنّه قال: إنّ الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم، إذ نثرهم ونظمهم لايخفى مافيه من الفوائد، ومن ثم قالوا: «لَوْ

القرآن. فوقفت فاطمة (عليها السلام) على بابها فقالت: لاعهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا ولم تردّوا لنا حقّاً! فأتى عمر أبابكر، فقال له ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة؟! يريد علياً (عليه السلام) فأرسل أبوبكر قنفذا مولاه ليبلغه دعوته، فأبى عليّ (عليه السلام) أن يخرج، فكرّر عليه حتى رفع علي صوته، فقال: سبحان الله، لقد ادعى ماليس له. فرجع قنفذ. ثم قام عمرومشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة فدقّوا الباب، فلمّا سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب و ابن أبي قحافة! فلمّا سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تنفطر. وبقي عمرومعه قوم (من الرجّالة) فأخرجوا علياً فمضوا به الى أبي بكر. فقالوا له: بايع، فقال: إن أنالم أفعل فه؟ قالوا: إذن والله.. نضرب عنقك. فقال: إذن تقتلون عبدالله وأخا رسوله. قال عمر أما عبدالله فنعم، وأمّا أخو رسوله فلا، وأبوبكر ساكت لايتكلّم. فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لاأكرهه على شيء ماكانت فاطمة الى جنبه... ثمّ انطلقا الى فاطمة وقالا: إنّا قد أغضبناها، فاستاذنا عليها، فلم تأذن لهما، فأتيا عليّا فكلّماه، فأدخلهما عليها... فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها الى الحائط، فسلّما عليها، فلم تردّ عليها السلام... الى آخر ماجرى بينها (عليها السلام) وبينهما».

وقال المسعودي: وكان عروة بن الزبير يعذر اخاه عبدالله في حصر بني هاشم في الشعب، وجمعه الحطب ليحرقهم، ويقول: إنما أراد بذلك ان لا تنتشر الكلمة، ولايختلف المسلمون، وان يدخلوا في الطاعة، فتكون الكلمة واحدة، كما فعل عمر بن الخطاب ببني هاشم لما تأخروا عن بيعة أبي بكر، فانه احضر الحطب ليحرق عليهم الدار. (شرح النهج لابن ابي الحديد: ج ٢٠ ص ١٤٧ عن مروج الذهب ج ٣ ص ٨٦).

وذكر أبو الفداء: إنّ أبا بكر بعث عمر الى علي ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة وقال: إن أبوا عليك فقاتلهم. فأقبل عمر شيء من نار على أن يضرم الدار، فلقيته فاطمة وقالت: الى أين ياابن الخطّاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخل فيه هذه الأمّة. (المختصر لأبي الفداء: ج ١ ص ١٥٦) ونقل الأميني عن تاريخ ابن شحنة ذلك أيضاً في حوادث سنة ١١ (الغدير: ج ٣ ص ١٠٤). ونقل ابوجعفر عن بعض الزيدية احتجاجاً جاء فيه: «وصار كشف بيت فاطمة والدخول عليها منزلها وجمع حطب ببابها وتهدّدها بالتحريق من أوكدعرى الدين؟!» (شرح النهج: ج ٢٠ ص ١٧).

نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هـذا إِنَّ هَذا إِلَّا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ»[1] وهذا على حدّ ما جعل الله سلب زكريا (عليه أفضل السلام) النطق ثلاثة أيام من غير علّة آية. أو أنّهم لم يحيطوا به علماً على ماقال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوْا بِعِلْمِهِ».[2] [3]

يبدو من ذلك أنّه أراد المعنى الثاني من التفاسير الثلاثة، وهو سلب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، أو فقدهم لتلك العلوم، حسبما نبّه عليه في آخر مقاله متمسّكاً بقوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوْا بِعِلْمِهِ»...

لكن جاء في شرح المواقف للسيّد شريف الجرجاني (توفي سنة ٨١٦) مايبدو منه خلاف ذلك وإنّه أراد المعنى الأوّل. قال الشريف: معنى الصرفة: أنّ العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن معارضته. واختلف في كيفيّة الصرف. فقال الأُستاذ أبو إسحاق النظام: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها، خصوصاً عند توفّر الأسباب الداعية في حقّهم كالتقريع بالعجز والاستنزال عن الرئاسات والتكليف بالانقياد. فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزاً...

وأمّا إرادة سلب العلوم فنسبه الى المرتضى علم الهدى. قال: وقال المرتضى: بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، يعني أنّ المعارضة والإتيان بالمثل يحتاج الى علوم يقتدر بها عليها، وكانت تلك العلوم حاصلة لكنّه تعالى سلبها عنهم فلم يبق لهم قدرة عليها...[4].

وفي مقالات الإسلاميّين لأبي الحسن الأشعري (توفي سنة ٣٣٠) تصريح بأنّه المعنى الثالث، وهو المنع بالإلجاء والقهر. قال: وقال النّظام: الآية

---

(١) الانفال: ٣١.   (٢) يونس: ٣٩.

(٣) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ص٥٣.

(٤) شرح المواقف: ج٣ ص١١٢. والمتن للقاضي عضد الإيجي توفي سنة ٧٥٦.

والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب. فأمّا التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم[١].

وأمّا عبدالكريم الشهرستاني فقد خلط بين المعنى الأوّل والأخير، قال: التاسعة: قوله في إعجاز القرآن، أنّه من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً. حتى لو خلّاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً..[٢].

غير أنّ الأرجح في النظر هو ماذكره القاضي عضد الإيجي والسيّد شريف الجرجاني، في تفسير مذهبه، فقد فصلا رأيه عن رأي الشريف المرتضى القائل بسلب العلوم، والتفصيل قاطع للشركة ـ على ما قيل ـ.

ويتأيّد هذا المعنى أيضاً بماجاء في عرض كلام تلميذه المتأثّر برأيه أبي عثمان الجاحظ، قال: «ورفع الله من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن...»[٣]. وسننقل كلامه:

اختيار أبي عثمان الجاحظ[٤]

يرى الجاحظ في الإعجاز مايراه أهل العربيّة، وهو أنّ القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها. وقد تقدّم بعض كلامه في ذلك[٥].

قال الرافعي: غير أنّ الرجل كثير الاضطراب، فإنّ هؤلاء المتكلّمين كانوا في عصرهم في مُنْخُل... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة، وإن كان

---

(١) مقالات الإسلاميّين: ج ١ ص ٢٩٦.

(٢) الملل والنحل: ج ١ ص ٥٦ـ ٥٧.

(٣) كتاب الحيوان: ج ٤ ص ٣١.

(٤) هوالكاتب أبوعثمان عمروبن بحر. كان من غلمان النظّام، وتعلّم عليه، توفي سنة ٢٥٥.

(٥) عند الكلام عن مفهوم الإعجاز.

قد أخفاها وأومأ إليها عن غُرض. فقد سرد في موضع من كتاب (الحيوان) طائفة من أنواع المعجز، وردّها في العلّة الى أنّ الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد عن صدورهم، ثمّ عدّ منها: «ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحدّاهم الرسول بنُظُمه». وقديكون استرسل بهذه العبارة، لما في نفسه من أثر أُستاذه، وهو شيء ينزل على حكم الملابسة، ويعتري أكثر الناس إلّا من تنبّه له أونُبّه عليه، أو هو يكون ناقلاً، ولا ندري[١].

قال الجاحظ في تتمّة كلامه: ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع لتكلّفه، ولو تكلّف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وشبه الأعراب.. فقد رأيت أصحاب مسيلمة إنّما تعلّقوا بما ألّف لهم كلاما يعلم كلّ من سمعه أنّه عدى على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد، ولواجتمعوا له ..[٢].

وقد ذهب الى هذا الرأي جماعة من أعلام السنّة من الأشاعرة وأهل الاعتزال، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني الفقيه الشافعي[٣]، وكان متكلّماً أصولياً من أصحاب أبي الحسن الأشعري، (توفي سنة ٤١٨). وقد ذكر الشهرستاني عندالكلام عن الأشاعرة: أنّ من أصحاب أبي الحسن الأشعري من اعتقد أنّ الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع عن المعارضة، ومن جهة الإخبار عن الغيب[٤]. وقد تعرّض كلّ من ذكرالنظّام قوله بالصرفة، مواكبة الإسفراييني له في هذا الرأي.

وهكذا تبع النظّام كثير من أصحابه، منهم أبوإسحاق النصيبي، وعبادبن

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ص١٤٧.

(٢) كتاب الحيوان: ج ٤ ص ٣١. والدراسات: ص٣٦٨.

(٣) قال الشريف الجرجاني: وممّن ذهب الى هذا الرأي من أهل السنّة هو الأُستاد أبو إسحاق الإسفراييني. (شرح المواقف: ج٣ ص١١٢).

(٤) الملل والنحل: ج١ ص١٠٣.

سليمان الصيمري وهشام بن عمرو الفوطي، وغيرهم ..

قال أبوالحسن الأشعري: وكان الفوطي والصيمري ينكران كون القرآن معجزاً، لكونه من الأعراض، ويقولان: لانقول أنّ شيئاً من الأعراض يدلّ على الله سبحانه، ولانقول أيضاً أنّ عَرَضاً يدلّ على نبوّة النبيّ (صلى الله عليه وآله). قال: ولم يجعلا القرآن عَلَما للنبي (صلى الله عليه وآله) وزعما أنّ القرآن أعراض ...(١).

ونحن نعذرهم في هذا التعليل العليل، بعد حداثة عهدهم بتراجم فلسفة اليونان، وعدم التشخيص لديهم بين الأعراض والجواهر حسب ما اصطلح عليه أهل الفن الاختصاصيّون. إذ لا يخفى الفرق البائن بين باب الدلالات ومسألة السنخيّة المعتبرة في باب العلل والمعاليل. والكلام مهما كان فهو عرض حادث والمدلول قد يكون حقيقة جوهريّة وأُخرى غيرها من الأُمور الاعتباريّة المحضة أو الانتزاعيّة، ولا ضرورة تدعوا الى لزوم التسانخ بين الدال والمدلول إطلاقاً.

مقالة ابن حزم الظاهري:

وأمّا المذهب الذي سلكه أبومحمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (توفي سنة ٤٥٦) فلا يعدو مذهب الجبر وسلب الاختيار عن العباد. فإنّه شطب على الرأي القائل: «إنّ القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامن وراء بلاغته الخارقة ...» وحكم عليه حكمه القاسي: أنّه من شغب الاختيار.. زاعماً أنّه لمجرد صرف الناس عن معارضته ومنعهم منها منع قهر وجبر، قال: فهذا هو دليل الإعجاز، وفي ذلك كفاية !

قال: إنّ القائلين بأنّ وجه الإعجاز في بلاغته، قد شغبوا في هذا الاختيار، لأنّهم ذكروا لذلك أمثال آية القصاص، فيقال لهم: فلم خصصتم بالذكر هذه

---

(١) مقالات الإسلاميّين: ج ١ ص ٢٩٦.

الآيات دون غيرها، وهل هذا منكم إلّا إيهام لأهل الجهل أنّ من القرآن معجزا وغير معجز؟ قال: ثم نقول لهم: قول الله تعالى: «وَأَوحَيْنَا إِلَىٰ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونسَ وهارون وسليمان وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورا»[١] أمعجز هو على شروطكم في كونه في اعلى درج البلاغة أم ليس معجزاً؟ فإن قالوا: ليس معجزاً، كفروا. وإن قالوا: إنّه معجز صدقوا، وسئلوا: هل على شروطكم في أعلى درج البلاغة؟ فإن قالوا: نعم، كابروا، وكفوا مؤونتهم، لأنّها اسماء رجال فقط ليس على شروطهم في البلاغة. وأيضاً فلو كان إعجاز القرآن لأنّه في أعلى درج البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس، ومعاذالله من هذا، لأنّ كلّ ما يسبق في طبقته لم يؤمن أن يأتي من يماثله ضرورة.

وأخيراً قال: فلابدّ لهم من هذه الخطة، أو من المصير الى قولنا: إنّ الله تعالى منع من معارضته فقط - الى أن يقول - فصحّ أنّه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً، وأنّ الله تعالى منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق...

قال: وأيضاً فإنّ في القرآن كثيراً من حكاية أقوال الآخرين[٢]. فكان هذا كلّه إذ قاله غيرالله عزّوجل غير معجز بلاخلاف، لكن لمّا قاله الله تعالى وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته. قال: وهذا برهان كاف لايحتاج الى غيره، والحمدلله[٣].

وقال - أيضاً -: إنّ كلّ كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت أنّها من القرآن، فإنّها معجزة لايقدر أحد على المجيء بمثلها أبداً، لأنّ الله تعالى حال بين الناس

---

(١) النساء: ١٦٣.

(٢) كقوله تعالى: «فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» المدثر: ٢٤-٢٥. وقوله: «وقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً» - الى آخر الآيات - الإسراء: ٩٠.

(٣) الفصل في الملل والنحل: ج٣ ص١٧-١٩.

وبين ذلك، كمن قال: إنّ آية النبوّة أنّ الله تعالى يطلقني على المشي في هذه الطريق الواضحة، ثم لا يمشي فيها أحد غيري أبداً، أو مدّة يسمّيها. فهذا أعظم مايكون من الآيات... والذي عجز عنه أهل الأرض مذ أربعمائة عام وأربعين عاماً (٤٤٠) هي سنة تأليفه للكتاب[١].

* * *

وقد سخر الرافعي من كلام ابن حزم هذا، قائلاً: لم نر أحداً فسّر هذه الكلمة (الصرفة) كابن حزم الظاهري، وذلك قوله: «لم يقل أحد أنّ كلام غيرالله معجز، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً ومنع من مماثلته... قال: وهذا برهان كاف لايحتاج الى غيره» نقول: بل هو فوق الكفاية، وأكثر من أن يكون كافياً أيضاً، لأنّه لمّا قاله ابن حزم وجعله رأياً له، أصاره كافيا لايحتاج الى غيره...![٢].

قلت: هو كذلك مادام الرجل متزمّتا هذا التزمّت المفضوح، إذ لم يكتف بالتزامه بمبدأ الجبر حتى سلب القرآن كلّ مميّزاته الجوهريّة وخلعه من جميع صفاته ونعوته الكريمة ! يا له من تقشّب وجمود!

وقد تحمّس الشيخ علي محمدحسن العماري (مبعوث الأزهر في السودان) لدلائل ابن حزم فظنّها متوفّرة وكثيرة لم يهتد إليها الرافعي أو لخّصها تلخيصاً هو أقرب الى المسخ. قال: نحن لا نقرّ الرافعي على هذا المسلك الذي سلكه، وعلى هذا التناول الذي تناول به كلام ابن حزم فإن الرجل أطال الكلام في تأييد مذهبه، ولوكان الرافعي منصفاً لتناول أقوى ما في كلام ابن حزم ولم يأخذ بعض كلامه ويترك بعضاً، على أنّه أخذ لايقارع الحجّة بالحجّة، ولايبسط المسألة كما ذكرها صاحبها، وإنّما يلخّصها تلخيصاً هو أقرب الى المسخ..[٣].

---

(١) المصدر: ص٢١. (٢) إعجاز القرآن: ص١٤٦.

(٣) مجلة رسالة الإسلام: سنة ٤ عدد ١ ص٧٠.

ونحن قد سبرنا دلائل ابن حزم كلّها فوجدناها سرابا يحسبه الظمآن ماء!!
وسوف نضع اليد على أهم دلائله ليعلم الباحث مدى شأوها في عالم الاعتبار!

كلام ابن سنان الخفاجي:

هو الأمير أبو محمد عبدالله بن محمدبن سنان الشاعر الشيعي مفلّق صاحب صيت وسوط له مواقف مشهودة[١] (توفي سنة ٤٦٦) مسموماً. له كلام مع أبي الحسن الرمّاني (توفي سنة ٣٨٦) بشأن إعجاز القرآن، فلم يرتض مذهبه بأنّ الإعجاز قائم بفصاحته وبلاغته وتلاؤم نظمه، ورجح كونه من جهة صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة وقت مرامهم ذلك. وبذلك قد وافق رأي الشريف المرتضى حسبما يأتي.

قال ـ تعليقاً على كلام الرمّاني[٢] ـ :

---

(١) من شعره دفاعاً عن ولاء آل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله):

يا أمّة كفرت وفي أفواهها	القرآن فيه ضلالها ورشادها
أعلى المنابر تعلنون بسبّه	وبسيفه نصبت لكم أعوادها
تلك الخلائق بينكم بدريّة	قتل الحسين وماخبت أحقادها

الخلائق: جمع خليقة بمعنى سجيّة ومن ظريف تنبهه مايحكى أنه كان قد تحصّن بقرية (اعزاز) من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبي نصر محمد بن النحّاس الوزير المحمود بن صالح مودة مؤكّدة، وكان محمود يريد القبض عليه فأمر أبانصر أن يكتب الى الخفاجي كتاباً يستعطفه ويؤنسه، قال: إنّه لا يؤمن إلّا إليك ولايثق إلّا بك. فكتب بمحضره وأضاف في آخره (إنّ شاء الله) لكنّه شدّد النون... فلمّا أن قرأه الخفاجي خرج قاصداً حلب، فلمّا كان في بعض الطريق أعاد النظر في الكتاب، فلمّا رأى التشديد على النون أمسك بعنان فرسه، وفكّر في نفسه أنّ ابن النحّاس لايخطأ في كتابته، فلم يضع التشديد هنا عبثاً، فلاح له أنّه أراد قوله تعالى: «أنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك»! فقفل راجعا الى حصنه، وكتب في الجواب: أنا الخادم المعترف بإنعام... فكسر الألف من «أنا» وفتح النون وشدّدها. فلمّا وقف عليه ابونصر سرّ وعلم أنّه قصد به قوله تعالى: «إنّا لَنْ ندخلها أبداً ماداموا فيها»!

والخفاجي نسبة الى خفاجة ـ بالفتح ـ حيّ من بني عامر.

(٢) راجع كلامه في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) طبعت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز: ص ٧٥.

و أمّا قوله: «إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة السفلى» -وهو يعني بذلك جميع كلام العرب- فليس الأمر على ذلك، ولافرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضيّة. ومتى رجع الإنسان الى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه. ولعلّ أبا الحسن (الرمّاني) يتخيّل أنّ الإعجاز في القرآن لايتمّ إلّا بمثل هذه الدعوى الفاسدة، والأمر -بحمدالله- أظهر من أن يعضّده بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كلّ من شدا من الأدب شيئاً[١] أو عرف من نقد الكلام طرفاً.

قال: وإذا عدنا الى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ماذهب إليه (أي الرمّاني) من أنّ بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم. ثم لوذهبنا الى أنّ وجه إعجاز القرآن الفصاحة، وادّعينا أنّه أفصح من جميع كلام العرب، بدرجة مابين المعجز والممكن، لم يفتقر في ذلك الى ادّعاء ماقاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة في الفصيح من كلام العرب، وذلك أنّه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحاً، وإنّما الفصاحة لأُمور عدّة تقع في الكلام، من جملتها التلاؤم في الحروف وغيره، وقد بيّنا بعضها وسنذكر الباقي، فلم ينكر على هذا أن يكون تأليف الحروف في القرآن وفصيح كلام العرب واحداً؟ ويكون القرآن في الطبقة العليا، لماضامّ تأليف حروفه من شروط الفصاحة التي التأليف جزء يسير منها.

فقد بان أنّ على كلا القولين لاحاجة بنا الى ادّعاء ما ادّعاه، مع وضوح بطلانه وعدم الشبهة فيه.

---

(١) يقال: شدا من العلم شيئاً أي أخذ منه.

ثم يقال له: أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة، على ماذكرناه فيما تقدّم فلابدّ من نعم، فيقال له: فما عندك في تأليف كلّ لفظة من ألفاظ القرآن بانفراده؟ أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة السفلى؟ فإن قال: في الطبقة العليا، قيل له: أوليس هذه اللفظة قد تكلّمت بها العرب قبل القرآن وبعده؟ ولولا ذلك لم يكن القرآن عربياً، ولا كانت العرب فهمته. فقد أقررت الآن أن في كلام العرب ماهومتلائم في الطبقة العليا، وهو الألفاظ المفردة، ولم يتوجه عليك في ذلك مايفسد وجه إعجاز القرآن. فهلّا قلت في كلامهم المؤلّف من الألفاظ ما هوأيضاً كذلك؟ فإنّ علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر.

وإن قال: إنّ كلّ لفظة من ألفاظ القرآن متلائمة في الطبقة الوسطى، قيل له أولاً: إنّ مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم على هذا الوجه أيضاً باقية، ثم ما الفرق بينك وبين من ادّعى أنّ التلاؤم من ألفاظ القرآن في الطبقة الوسطى، فإنّ أحد الموضعين كالآخر. على انّ اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهوراً بيّناً بقلّة عدد حروفها واعتبار المخارج وإن كانت متباعدة كان تأليفها متلائماً، وإن تقاربت كانت متنافراً، ويلتمس ذلك بما يذهب إليه من اعتبار التوسّط دون البعد الشديد والقرب المفرط. فعلى القولين معاً اعتبار التلاؤم مفهوم، وليس ينازعنا في كلمة من كلم القرآن إذا أوضحنا له تأليفها، ويقول ليس هذا في الطبقة العليا، إلّا ونقول مثله في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض، لأنّ الدليل على الموضعين واحد.

فقد بان الذي يجب اعتماده أنّ التأليف عل ضربين: متلائم ومتنافر، وتأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم. ولا يقدح هذا في وجه من وجوه إعجاز القرآن، والحمدلله[1].

---

(١) سرّ الفصاحة: ص٨٩- ٩٠.

وقال -في موضع آخر- : والصحيح أنّ وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف. وهذا هوالمذهب الذي يعوّل عليه أهل هذه الصنعة وأرباب هذا العلم. وقد سطّر عليه من الأدلّة ماليس هذا موضع ذكره[١].

مذهب الشريف المرتضى:

المعروف من مذهب الشريف المرتضى (المتوفي سنة ٤٣٦) في الإعجاز هوالقول بالصرفة،نسبه إليه كلّ من كتب في هذا الشأن، قولاً واحداً. وكذا شيخه أبوعبدالله المفيد (المتوفي سنة ٤١٣) في أحد قوليه[٢]. وتلميذه أبو جعفر الطوسي (المتوفي سنة ٤٦٠)في كتابه (تمهيد الأصول) الذي وضعه شرحاً على القسم النظري من رسالة (جمل العلم والعمل) تصنيف المرتضى. لكنه رجع

(١) سرّ الفصاحة: ص٢١٧.

(٢) قال بذلك في كتابه (أوائل المقالات: ص٣١) جاء فيه: «أنّ جهة ذلك هوالصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبيّ بمثله في النظام عند تحدّيه لهم. وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله، وإن كان في مقدورهم، دليلاً على نبوّته (صلى الله عليه وآله) واللطف من الله تعالى مستمرّ في الصرف عنه الى آخرالزمان. وهذا من اوضح برهان في الإعجاز وأعجب بيان. وهو مذهب النظّام، وخالف فيه جمهورأهل الاعتزال».

غير أنّ المعروف عنه في كتب الإماميّة هومواكبته مع جمهورالعلماء. قال المجلسي (في البحار: ج١٧ ص٢٢٤)- في باب اعجازام المعجزات القرآن الكريم- : «وأمّا وجه إعجازه فالجمهور من العامّة والخاصّة ومنهم الشيخ المفيد(قدّس الله روحه) على أنّ إعجاز القرآن بكونه في الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القصوى من البلاغة. هذا مع اشتماله على الإخبار عن المغيّبات الماضية والآتية، وعلى دقائق العلوم الإلهية، وأحوال المبدأ والمعاد، ومكارم الأخلاق، والإرشاد الى فنون الحكمة العلميّة والعمليّة، والمصالح الدينيّة والدنيويّة، على ما يظهر للمتدبّرين».

وهكذا ذكر عنه القطب الراوندي (في الخرائج والجرائح: ص٢٦٩)، قال- بعد أن جعل الوجه الأوّل- وهو القول بالصرفة- قولا للسيد المرتضى-: «والثاني: ما ذهب إليه الشيخ المفيد، وهو أنّه كان معجزاً من حيث اختص برتبة في الفصاحة خارقة للعادة...».

عنه في كتابه (الاقتصاد بتحقيق مباني الاعتقاد) كتبه متأخّراً، واعتذرعن تأييده للسيد في شرح الجمل باحتشام رأي شيخه عند شرح كلامه.

قال: كنت نصرت في شرح الجمل (تمهيد الأُصول) القول بالصرفة، على ماكان يذهب إليه المرتضى (رحمه الله) حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه[١].

وأمّا تلميذه الآخر، أبوالصلاح تقيّ الدّين الحلبي (المتوفي سنة ٤٤٧) فقد سارعلى منهج الأُستاذ وارتضاه وجعله الأوجه من وجوه إعجاز القرآن. واستدل بما يكون تلخيصاً لدلائل السيد، ولم يزدعليه[٢].

* * *

ويبدو من كلام السيد ـ وفيما نقل عنه الشيخ وغيره[٣] ـ أنّه أراد المعنى الوسط من التفاسير المتقدّمة عن صاحب الطراز. وهو: أنّ العرب سُلبوا العلوم التي يحتاج إليها في معارضة مثل القرآن، فخامةً وضخامةً، في وجازة اللفظ وظرافته، في سمّو معناه ورفعته... من أين كانت العرب تأتي بمثل معانيه، حتى ولو فرض قدرتها على صياغة مثل لفظه ولويسيراً؟!

ومعنى السلب: عدم المنح، على ماسبق في تفسير الآية الكريمة: «ثُمّ انصَرَفُواْ صَرَفَ الله قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ»[٤] وكذا قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ»[٥] أي أنّهم لفرط جهلهم وصمودهم في رفض الحقّ، حرموا من فيضه تعالى فلم يحظوا ببركات رحمته: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ»[٦] وذلك هوالخذلان والحرمان المقيت.

---

(١) الإقتصاد: ص١٧٣. وسننقل كلامه في تمهيد الأُصول، وهو المصدر الوحيد لتعرفة مذهب السيد في الصرفة ودلائله ومبانيه.

(٢) في كتابه «تقريب المعارف» الذي وضعه في أُصول المعتقدات: ص١٠٥-١٠٨.

(٣) تقدّم عن القطب الراوندي برقم ٩ ص٦٧، وعن ابن ميثم برقم ١١ ص٨٠.

(٤) التوبة: ١٢٧. (٥) الاعراف: ١٤٦. (٦) الصف: ٥.

قال الطبرسي: سلب قدرتهم على التكذيب، بمعنى توفير الدلائل والبراهين القاطعة بحيث لا تدع مجالاً للشك فضلاً عن الردّ وإمكان التكذيب، «ذَٰلِكَ الكِتاب لاريبَ فِيه»(١).

فقد توفّرت المعاني الضخمة، وازدحمت المعارف الجليلة، بين أحضان القرآن الكريم، بما بهر العقول وطار بالألباب... الأمر الذي سلب قدرة المعارضة عن أيّ معارض متى رامها، ولم يدع مجالاً للتفكير في مقابلته لأيّ صنديد عنيد، مادام هذا الكتاب العزيز قد شمخ بأنفه على كلّ مستكبر جبّار عارض طريقه الى الإمام.

* * *

فلعلّ الشريف المرتضى أراد هذا المعنى، وأنّ اللفظ مهما جلّ نظمه وعزّ سبكه، فإنّه لايبلغ مرتبة المعنى في جلاله وكبريائه، والتحدّي إنّما وقع بهذا الأهمّ الأشمل، قال: «فإن قال: الصرف عمّاذا وقع؟ قلنا: عن أن يأتوا بكلام يساوي أو يقارب القرآن في فصاحته وطريقة نظمه، بأن سلب كلّ من رام المعارضة، العلوم التي تتأتّى بها من ذلك. فإنّ العلوم التي بها يتمكّن من ذلك ضرورة من فعله تعالى بمجرى العادة...»(٢).

تأمّل هذه العبارة وأمعن النظر فيها، تجدها صريحة ـتقريباًـ في إرادة القدرة العلميّة، التي هي حكمة إلهية يهبها لمن يشاء من عباده، ومن يؤتى الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً. فهؤلاء حرموها مغبّة لجاجهم وعنادهم مع الحقّ.

وهكذا فهم الاُستاذ الرافعي تفسير مذهب السيد في الصرفة، قال: وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أنّ الله سلبهم العلوم... التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيؤوا بمثل القرآن... فكأنّه يقول: أنّهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولايستطيعون ما وراء ذلك ممّا لبسته ألفاظ القرآن من

(١) البقرة: ٢.

(٢) بنقل الشيخ في التمهيد، وسيأتي تفصيله. وهكذا جاء في عبارة السيد من كتابه «الذخيرة» ص٣٨٠.

المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم [١].

ومن قبل قال التفتازاني: أو بسلب العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنّها لم تكن حاصلة لهم.. أو بمعنى أنّها كانت حاصلة فأزالها الله. قال: وهذا (سلب العلوم) هوالمختار عند المرتضى ... [٢].

قلت: ظاهر قول المرتضى هوالشّق الأوّل من المعنيين: (أنّها لم تكن حاصلة لهم).

وللأُستاذ توفيق الفكيكي البغدادي محاولة مشكورة بشأن الدفاع عن موقف السيّد في مذهب الصّرفة. إذ استبعد أن يأخذ مثل الشريف المرتضى وهو علم الهدى موضعاً يبتعد عن موضع الشيعة الإماميّة وإجماع محقّقيهم وهو رأسهم وسيّدهم، وكذا شيخه أبوعبدالله المفيد الذي هو أُستاذ الكلّ ومفخر المتكلّمين.

قال: إنّ أقوال أئمّة الإماميّة المعتمدة المعتبرة، لاتختلف عن كلام أهل التحقيق من أساطين العلم وزعماء البيان في حقيقة الإعجاز، حتى لقد اشتهر قولهم: «القول بالصدفة كالقول بالصرفة» في الامتناع. كمانبّه عليه العلّامة الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء [٣]. قال: فنسبة القول بالصّرفة ـبمعناها الباطلـ الى العلّامة الجليل (المفيد) والى تلميذه (الشريف المرتضى) لايحتملها النظر الصحيح بعد كون هذا الاحتمال مخالفاً لعقيدة الشيعة الإماميّة ولأُصول مبانيها.

قال: والذي نحتمله بل ونعتقده أنّ الشيخ المفيد معروف بقوّة الجدل والتمرّس بفنون المناظرة، وكان كسقراط يلقي على تلاميذه مسائل دقيقة ويناقشهم فيها لاختبار عقولهم، ولاسيّما شبهات المعتزلة كآراء النظّام وأصحابه

---

(١) إعجاز القرآن: ص١٤٤. (٢) شرح المقاصد: ج٢ ص١٨٤.

(٣) في موسوعته القيّمة (الدين والاسلام): ج٢ ص١٣٧.

القائلين بالصرفة، وهي إحدى المسائل التي ناظربها أقطاب المعتزلة، فلعلّه وقع في نفوس البعض أنّه يقول بها، وهو اشتباه لايستند الى تحقيق(١).

وهكذا احتمل بشأن الشريف المرتضى ـ العلّامة السيد هبةُ الدين الشهرستاني ـ أنّه كان معروفاً بقوّة الجدل والتحوّل في حوار المناظرين الى هنا وهناك، فلم يعلم كونها عقيدة له ونظريّة ثابتاً عليها ...(٢).

وبعد... فالإيفاء بأمانة البحث يستدعي نقل كلام المرتضى بكامله، حسبما وصل إلينا من كُتُبه وعن طريق تلميذه الأكبر الطوسي وغيره من الأقطاب:

قال السيد ـ في كتابه (الجمل) في باب مايجب اعتقاده في النبوّة ـ: «وقد دلّ الله تعالى على صدق رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) بالقرآن، لأنّ ظهوره معلوم ضرورة، وتحدّيه العرب والعجم معلوم أيضاً ضرورة، وارتفاع معارضته أيضاً بقريب من الضرورة، فإنّ ذلك التعذّر معلوم بأدنى نظر، لأنّه لولا التعذّر لعورض، **فأمّا أن يكون القرآن من فعله تعالى على سبيل التصديق له، فيكون هو العَلَم المعجز، أو يكون تعالى صرف القوم عن معارضته، فيكون الصرف هو العَلَم الدالّ على النبوّة، وقد بيّنا في كتاب (الصرف) الصحيح من ذلك وبسطناه»**(٣).

وقد أوضح السيّد من مذهبه في مختلف كتبه ورسائله، التي تعرّض فيها لمسألة الإعجاز، منها ما جاء في كتابه «الذخيرة» في علم الكلام، قال فيه:

الذي نذهب إليه أنّ الله تعالىٰ صرف العرب عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطريقته (أي سبكه في البيان) ونظمه، بأن سَلَب ـ كلَّ من رام المعارضة ـ العلوم التي يتأتّىٰ ذلك بها، فإنّ العلوم التي بها يمكن ذلك ضروريّة من فعله تعالى فينا بمجرى العادة.

---

(١) رسالة الاسلام القاهرية السنة الثالثة: العدد ٣ ص ٣٠٠-٣٠١.

(٢) المعجزة الخالدة: ص ٩٧-٩٨.

(٣) جمل العلم والعمل للسيد المرتضى (ط نجف ١٣٨٧): ص ٤١ وطبعت مع المجموعة الثالثة من رسائله راجع: ص ١٩.

وهذه الجملة إنما تنكشف بأن يدلّ على أنّ التحدّي وقع بالفصاحة بالطريقة في النظم. وأنّهم لو عارضوه بشعر منظوم لم يكونوا فاعلين ما دعوا إليه. وأن يدلّ على اختصاص القرآن بطريقةٍ في النظم مخالفة لنظوم كلّ كلامهم، وعلى أنّ القوم لو لم يُصرفوا لعارضوا.

والذي يدلّ على الأول أنّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أطلق التحدّي وأرسله، فيجب أن يكون إنّما أطلق تعويلاً على عادة القوم في تحدّي بعضهم بعضاً، فإنّها جرت باعتبار الفصاحة وطريقة النظم. ولهذا ما كان يتحدّى الخطيبُ الشاعرَ، ولا الشاعرُ الخطيبَ، وأنهم ما كانوا يرتضون في معارضة الشعر بمثله إلّا بالمساواة في عروضه وقافيته وحركة قافيته. ولو شكّ القوم في مراده بالتحدّي لاستفهموه، وما رأيناهم فعلوا، لأنّهم فهموا أنه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) جرى فيه على عاداتهم.

وممّا يبيّن أنّ التحدّي وقع بالنظم -مضافاً الى الفصاحة- أنّا قد بيّنا مقارنة كثير من القرآن لأفصح كلام العرب في الفصاحة. ولهذا خفي الفرق علينا من ذلك، وإن كان غير خافٍ علينا الفرق فيما ليس بينهما هذا التفاوت الشديد. فلولا أنّ النظم معتبر لعارضوا بفصيح شعرهم وبليغ كلامهم.

فأمّا الذي يدلّ على أنّهم لولا الصرف لعارضوا أنّا قد بيّنا في فصاحة كلامهم ما فيه كفاية، والنظم لا يصحّ فيه التزايد والتفاضل، ولهذا يشترك الشاعران في نظم واحد لا يزيد أحدهما فيه على صاحبه وإن زادت فصاحته على فصاحة صاحبه.

واذا لم يدخل في النظم تفاضل فلم يبق إلّا أن يكون الفضل في السبق إليه. وهذا يقتضي أن يكون السابق ابتداءً الى نظم الشعر قد أتى بمعجز، وأن يكون كلّ من سبق الى عروض من أعاريضه ووزن من أوزانه كذلك ... ومعلوم خلافه.

وليس يجوز أن يتعذّر نظم مخصوص بمجرى العادة على من يتمكّن من نظوم غيره، ولا يحتاج في ذلك الى زيادة علوم، كما قلنا في الفصاحة. ولهذا كان كلّ من يقدر من الشعراء على أن يقول في الوزن الذي هو الطويل قدر على البسيط وغيره ولو لم يكن إلّا على الاحتذاء وإن خلا كلامه من فصاحة.

وهذا الكلام قد فرغناه واستوفيناه في كتابنا في جهة إعجاز القرآن[1].

وإليك من كلام الشيخ في شرح مذهب السيّد، أورده في شرح الجمل... قال:

«والذي اختاره (رحمه الله) في كتبه أنّ جهة إعجازه الصرفة، وهي أنّ الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولولم يسلبوها لكان ذلك ممكنا، وبه قال النظّام ونصره أبوإسحاق النصيبيني...

قال: واستدلّ على صحّة مذهبه في الصرفة بأن قال: لوكانت فصاحة القرآن خارقة للعادة لوجب أن يكون بينه وبين أفصح كلام العرب التفاوت الشديد الذي يكون بين الممكن والمعجز، فكان لايشتبه فصل مابينه وبين مايضاف إليه من أفصح كلام العرب، كما لايشتبه الحال بين كلامين فصيحين وإن لم يكن بينهما مابين الممكن والمعجز، الا ترى أنّ أحدنا يفصل بين شعر الطبقة العليا من الشعراء وبين شعرالمحدثين بأوّل نظر ولا يحتاج في معرفة ذلك الفصل الى الرجوع الى من تناهى في العلم بالفصاحة، وقد علمنا أنّه ليس بين هذين الشعرين مابين المعتاد والخارق للعادة. فإذا ثبت ذلك وكنّا لانفرّق بين بعض مع التفاوت العظيم، لوقف مادونه أيضا عليهم، وقد علمنا خلاف ذلك. فأمّا من ينكر الفرق بين قصار سور المفصّل وبين أفصح شعر

---

(١) يريد به رسالته التي كتبها في الصرفة (راجع الذخيرة في علم الكلام: تحقيق السيد أحمد الحسيني ص٣٨٠-٣٨٢). وقد تعرّض فيها للإجابة على عدّة مسائل لها صلة بمسألة الصرفة في الإعجاز. وله أيضاً في أجوبة مسائله الرسّية كلام حول مسألة الصرفة. (راجع المجموعة الثانية من رسائل الشريف المرتضى: ص٣٢٣-٣٢٦ المسألة الثالثة من المسائل الرسّية الأولى).

العرب وأبرع كلامهم، ولا يظهر لنا التفاوت بين الكلامين الظهور الذي قدمناه، فلم حصل لنا الفرق القليل ولم يحصل الكثير؟ ولم ارتفع اللبس مع التفاوت ولم يرتفع التفاوت؟

فإن قيل: الفرق بين أفصح كلام العرب وبين القرآن موقوف على متقدّمي الفصحاء الذين تحدّوا به!

قلنا: لو وقف ذلك عليهم، فأمّا من ينكر الفرق بين أشعار الجاهلية والمحدثين، فإن أشار بذلك الى عوام الناس والأعاجم منهم ومن لايعرف الفصاحة أصلا ولاخيرها، فلا ينكر. وإن أشار الى العلماء والألبّاء الذين عرفوا الفصاحة وتدرّبوا بها، فإن ذلك لايخفى عليهم.

فإن قال: الصرف عمّاذا وقع؟

قلنا: الصرف وقع عن أن يكون يأتوا بكلام يساوي أو يقارب القرآن في فصاحته وطريقة نظمه بأن سلب كلّ من رام المعارضة العلوم التي تتأتى بها من ذلك، فإنّ العلوم التي بها يتمكّن من ذلك ضرورة من فعله تعالى بمجرى العادة، وعلى هذا لوعارضوه بشعر منظوم لم يكونوا معارضين، والذي يدلّ على ذلك أنّه(عليه السلام) أطلق وأرسله فوجب أن يكون إنّما أطلق تعويلاً على ماتعارفوه في تحدّي بعضهم بعضاً، فإنّهم اعتادوا ذلك بالفصاحة وطريقة النظم ولهذا لم يتحدّ الخطيب الشاعر ولا الشاعر الخطيب، بل لم يكونوا يرتضون في معارضة الشعر إلّا بالمساواة في عروضه وقافيته وحركة القافية المطلوبين. ولو شكّ القوم في مراده لاستفهموه،فلمّا لم يستفهموه دلّ على أنّهم فهموا غرضه...

وأمّا الذي يدلّ على أنّه لولا الصرف لعارضوه، فهو: أنّه إذا ثبت أنّ في فصيح كلامهم مايقارب كثيراً من القرآن، والنظم لايصحّ فيه التزايد والتفاضل، بدلالة أنّه يشترك الشاعران في نظم واحد لايزيد أحدهما على صاحبه وإن تباينت فصاحتهما.

وإذا لم يدخل النظم تفاضل لم يبق إلّا أن يقال: الفضل في السبق إليه، وذلك يقتضي أن يكون من سبق الى ابتداء الشعر أتى بمعجز، وكذلك كلّ من سبق الى عروض من أعاريضه أو وزن من أوزانه أن يكون ذلك معجزاً منه، وذلك باطل، وليس يتعذّر نظم مخصوص بمجرى العادة على من يتمكّن من نظوم غيره ولا يحتاج في ذلك الى زيادة علم، كما نقول في الفصاحة. ألا ترى أنّ كلّ من قدر من الشعراء على وزن الطويل يقدر على البسيط وغيره، ولو كان على سبيل الاحتذاء، وإن خلا كلامه من فصاحة. فعلم بذلك أنّ النظم لا يقع فيه تفاضل.

فإن قيل: قولكم هذا يخرج القرآن من كونه معجزاً على الحقيقة، لأنَّ على هذا المذهب، المعجز هو الصرف، وذلك خلاف إجماع المسلمين!

قلنا: هذه مسألة خلاف لا يجوز أن يدّعى فيها الإجماع، على أنّ معنى قولنا معجز في العرف بخلاف ما هو في اللغة، والمراد بذلك في العرف ماله حظّ في الدلالة على صدق من ظهر على يده، والقرآن بهذه الصفة عند من قال بالصرفة، فجاز أن يوصف بأنّه معجز. وإنّما ينكر العوام أن يقال: القرآن ليس بمعجز متى أُريد به أنّه غير دالّ على النبوة وأنّ العباد يقدرون عليه، فأمّا أنّه معجز بمعنى أنّه خارق للعادة بنفسه أو بما يستند إليه فهو موقوف على العلماء المبرّزين والمتكلّمين المحقّقين...

فإن قيل: لو كان المعجز هو الصرف لما خفي ذلك على فصحاء العرب، لأنّهم إذا كانوا يتأتى منهم قبل التحدّي ما تعذّر بعده وعند روم المعارضة، والحال في أنّهم صرفوا عنها ظاهرة جليّة، فلا يبقى بعد هذا شك في النبوّة، وكيف لم ينقادوا لها؟

قلنا: لابدّ أن يعلموا تعذّر ما كان متأتّياً منهم، لكن يجوز أن ينسبوه الى الاتفاق أو الى السّحر، على ما كانوا يرمونه به. واعتقادهم في السحر معروف، وكذلك في الكهانة، ولو سلموا من ذلك لجاز أن ينسبوا ذلك الى الله تعالى فعله

لا للتصديق بل لمحنة العباد أو للجدّ أو البختة أو إقبال الدوائر، كما يعتقد ذلك كثير من الناس، ويجوزأن يدخل عليهم الشبهة في ذلك. على أنّهم يلزمهم مثل ما ألزموناه بأن يقال: إن كانت العرب تعلم أنّ القرآن خرق العادة بفصاحته فأيّ شبهة بقيت عليهم فلم ينقادوا له؟ فأيّ جواب أجابوا به فهو جوابنا بعينه.

فإن قيل: إذ كان الصرف هوالمعجز فلم لم يجعل القرآن من أرك الكلام وأقلّه فصاحة ليكون أبهر في باب الإعجاز؟

قلنا: لوفعل كذلك لكان جائزاً لكن المصلحة معتبرة في ذلك، فلايمتنع أنّها اقتضت أن يكون القرآن على ماهوعليه من الفصاحة، فلأجل ذلك لم ينقص منه، ولا يلزم في باب المعجزات أن يفعل بفعل كلّما كان أبهر وأظهر، وإنما يفعل مايقتضيه المصلحة بعد أن يكون دلالة الإعجاز قائمة فيه.

ثم يقال: هلا جعل الله تعالى القرآن أفصح ممّا هوعليه بغايات لاتشتبه الحال فيه على من سمعه ولا يتمكّن من جحده، فما أجابوا به عن ذلك فهو جوابنا بعينه.

وليس لأحد أن يقول: ليس وراء هذه الفصاحة زيادة لأنّها الغاية في المقدور، وذلك أنّ هذا باطل لأنّ الغايات التي منتهى الكلام الفصيح إليها غير محصورة ولامتناهية، ولو انحصرت لوجب أن يسلب الله العرب في الأصل العلم بالفصاحة ويجعلهم في أدون الرتبة منها ليبيّن مزيّة القرآن وتزول الشبهة.

ثم يقال لهم: لِمَ لم يجبه الله تعالى الى ما التمسوه منه من المعجزات من إحياء عبد المطلب ونقل جبال تهامة عن موضعها أو يفجرلهم الأرض ينبوعاً أو يسقط السماء عليهم كسفاً وغيرذلك من الآيات التي طلبوها؟فكلّما أجابوا به بمثله نجيب.

فإن قيل: إذا لم يخرق القرآن العادة بفصاحته فلم شهد له بالفصاحة متقدّموا العرب كالوليدبن المغيرة وانقياده له، ولم أجاب دعوته كثير من الشعراء كالنابغة الجعدي ولبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والأعشى الكبير،

لأنّه يقال: إنّه توجّه ليسلم فمنعه أبوجهل وخدعه وقال: إنّه يُحرّم عليكم الأطيبين الزنا وشرب الخمر، وصدّه عن ذلك، فلولا أنّه بهرهم فصاحته وإلّا لم ينقادوا له.

قلنا: جميع ما شهد به الفصحاء من فصاحة القرآن فواقع موقعه، لأنّ من قال بالصرفة لاينكر مزيّة القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة، وإنّما يقول: هذه المزيّة ليست ممّا تخرق العادة ويبلغ حدّ الإعجاز، فليس في طرب الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته مايوجب بطلان القول بالصرفة، وأمّا دخولهم في الإسلام فلأمر بهرهم وأعجزهم، وأيّ شيء أبلغ في ذلك من تعذّر المعارضة متى راموها مع تسهّل الكلام الفصيح عليهم إذا لم يعارضوا. فأمّا معارضة مسيلمة فمن أدلّ دليل على القول بالصرفة لأنّه لولم يكن صحيحاً لعارض الفصحاء كما عارض وأوردوا مثل ماأورده...»[1].

وبعدذلك أخذ في الرّد على سائر الوجوه التي قيل في وجه الإعجاز، قال: «وأمّا من قال: إنّ القرآن نظمه وتأليفه مستحيلان كخلق الجواهروالألوان» فقوله باطل لأنّ الحروف كلّها من مقدورنا والكلام يتركّب من الحروف التي يقدر عليها كلّ متكلّم. فأمّا التأليف فإطلاقه مجاز في القرآن لأنّ حقيقته في الأجسام، وإنّما يراد في القرآن حدوث بعضه في أثر بعض، فإن أُريد ذلك فذلك إنّما يتعذّر لفقد العلم بالفصاحة وكيفيّة إيقاع الحروف، لا أنّ ذلك مستحيل، كما أنّ الشعر يتعذّر على المفحم لعدم علمه بذلك، لا أنّه مستحيل منه من حيث القدرة. ومتى أُريد باستحالة ذلك مايرجع الى فقد العلم فذلك خطأ في العبارة دون المعنى.

فأمّا من قال: جهة إعجاز القرآن النظم دون الفصاحة، فقد بيّنا أن ذلك لايقع فيه التفاضل، وفي ذلك كفاية، لأنّ السبق الى ذلك لابدّ أن يقع فيه

---

(١) تمهيد الأُصول الذي وضعه شرحاً على القسم النظري من جمل العلم والعمل: ص٣٣٤ـ ٣٣٨.

مشاركة بمجرى العادة.

وأمّا من جعل جهة إعجازه ما تضمّنه من الإخبار عن الغيوب، فذلك لايشك أنّه معجز لكن ليس هو الذي قصد به التحدّي وجعل العَلَم المعجز، لأنّ كثيراً من القرآن خال من الإخبار بالغيب، والتحدّي وقع بسورة غير معيّنة...

وأمّا من جعل وجه إعجازه انتفاء الاختلاف عنه فإنّما يمكن أن يجعل ذلك من فضائل القرآن ومزاياه، وأمّا أن يجعل ذلك وجه الإعجاز فلا، لأنّ الناس يتفاوتون في انتفاء الاختلاف والتناقض عن كلامهم، فلايمتنع أن ينتفي ذلك كلّه عن كلام المتيقّظ المتحفّظ، فمن أين أنّ ذلك خارق للعادة، وقوله تعالى: «وَلوكانَ مِن عِندِ غيرِاللهِ لَوَجدوا فيهِ اختِلافاً كَثيراً»[1] فإنما يعلم به أنّه لوكان من جهة غيره لوجد فيه اختلاف كثير بعد العلم بصحّة القرآن وكونه صادراً من جهته، فأمّا قبل ذلك فلا[2].

* * *

وهكذا تعرّض القطب الراوندي لحديث الصرفة ـعلى ماذهب إليه المرتضى ـواستوفى البحث فيه على أسلوبه الكلاميّ الجدلي.

قال ـ فيا ذكر من وجوه إعجاز القرآن ـ:

«فأوّل ما ذكر من تلك الوجوه، مااختاره المرتضى، وهو أنّ وجه الإعجاز في القرآن أنّ الله سبحانه صرف العرب عن معارضته، وسلبهم العلم بكيفيّة نظمه وفصاحته، وقد كانوا ـلولا هذاالصرف ـقادرين على المعارضة متمكّنين منها».

قال: استدل المرتضى (رحمه الله) على أنّه تعالى صرفهم عن المعارضة، وأنّ العدول عنها كان لهذا، لا لأنّ فصاحة القرآن خرقت عادتهم... بأنّ الفصل بين الشيئين إذا كثر لم تقف المعرفة بحالهما على ذوي القرائح الذكيّة دون من لم يساوهم، بل يغني ظهور أمريهما عن الروية بينهما، وهذا كما لايحتاج الى الفرق

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) تمهيد الأُصول من جمل العلم والعمل: ص ٣٤٤ـ٣٤٥.

بين الخزّ والصّوف الى أحذق البزّازين، وإنّما يحتاج الى التأمّل، الشديد، المتقارب الذي يشكل مثله، ونحن نعلم أنّا على مبلغ علمنا بالفصاحة، نفرّق بين شعر امرئ القيس وشعر غيره من المحدثين، ولانحتاج في هذا الفرق الى الرجوع الى من هو الغاية في علم الفصاحة، بل نستغني معه عن الفكرة، وليس بين الفاضل والمفضول من اشعار هؤلاء وكلام هؤلاء قدر مابين الممكن والمعجز، والمعتاد والخارج عن العادة... وإذا استقرّ هذا، وكان الفرق بين سور المفصّل وبين أفصح قصائد العرب غير ظاهر لنا ـ الظهور الذي ذكرناه ـ ولعلّه إن كان ثمّ فرق فهو ممّا يقف عليه غيرنا، ولا يبلغه علمنا، فقد دلّ على أنّ القوم صرفوا عن المعارضة، وأخذوا على غير طريقها[١].

وقد عقد (القطب) باباً في الصرفة، وأخذ في تقريرها ورد الاعتراضات الواردة عليها. والظاهر أنه أخذها من كلام السيّد في كتابه أو من تقرير بعض تلاميذه كالشيخ والحلبي وغيرهما...

ومن ثم فإن مايذكره هنا يعدّ من أجلّ معتمد السيّد في اختياره لمذهب الصرفة، فيجدر نقل كلامه بتمامه:

قال: وتقرير ذلك في الصرفة هو أنّه لوكانت فصاحة القرآن فقط خارقة، لوجب أن يكون بينه وبين أفصح كلام العرب التفاوت الشديد الذي يكون بين الممكن والمعجز، وكان لايشتبه فصلٌ بينه وبين مايضاف إليه من أفصح كلام العرب، كما لايشتبه الحال بين كلامين فصيحين، وإن لم يكن بينهما مابين الممكن والمعجز. الا ترى أنّ الفرق بين شعر الطبقة العليا من الشعراء، وبين شعر المحدثين يُدرك بأوّل نظر، ولانحتاج في معرفة ذلك الفصل الى الرجوع الى من تناهى في العلم والفصاحة، وقد علمنا أنّه ليس بين هذين الشعرين مابين المعتاد والخارق للعادة. فإذا ثبت ذلك، وكنّا لانفرّق بين بعض

(١) الخرائج والجرائح: ج ٣ ص ٩٨١-٩٨٤ وراجع مختصره المطبوع (سنة ١٣٠٥): ص ٢٦٩ ونقله في البحار ص ج ٨٩ ص ١٢٧-١٢٨.

قصار السور وبين أفصح شعر العرب، ولا يظهر لنا التفاوت بين الكلامين، الظهور الذي قدّمناه، فَلِمَ حصل الفرق القليل، ولم يحصل الكثير؟! وَلِمَ ارتفع اللبس مع التقارب ولم يرتفع مع التفاوت؟!..

قال: والاعتراضات على ذلك كثيرة، منها:

قولهم: أنّ الفرق بين أفصح كلام العرب وبين القرآن موقوف على متقدّمي الفصحاء الذين تحدّوا به.

والجواب: أنّ ذلك لو وقف عليهم مع التفاوت العظيم، لوقف مادونه أيضاً عليهم، وقد علمنا خلافه.

فأمّا من ينكر الفرق بين أشعار الجاهليّة والمحدثين، فإن أشار بذلك الى عوامّ الناس والأعاجم فلاينكر ذلك، وإن أشار الى الذين عرفوا الفصاحة، فإنّه لايخفى عليهم.

فإن قالوا: الصرف عمّا ذا وقع؟

قلنا: الصرف وقع أن يأتوا بكلام يساوي أو يقارب القرآن في فصاحته، وطريقة نظمه، بأن سُلب كلّ من رام المعارضة التي يتأتى بها ذلك. فإنّ العلوم التي يتمكّن بها من ذلك ضروريّة من فعل الله تعالى بمجرى العادة، وعلى هذا لوعارضوه بشعر منظوم، لم يكونوا معارضين.

يدلّ عليه أنّه (صلى الله عليه وآله) أطلق التحدّي وأرسله، فوجب أن يكون إنّما أطلق تعويلاً على ماتعارفوه في تحدّي بعضهم بعضاً، فإنّهم اعتادوا ذلك بالفصاحة وطريقة النظم، ولهذا لم يتحدّ الخطيب الشاعر، ولا الشاعر الخطيب، ولو شكّوا في مراده لاستفهموه، فلمّا لم يستفهموه دلّ على أنّهم فهموا غرضه، ولولم يفهموه لعارضوه بالشعر الذي له فصاحة كثيرة من القرآن، واختصاص القرآن بنظم مخالف لسائر النُظُم يعلم ضرورة.

ثم عاد الى الاستدلال، قائلاً: والذي يدلّ على أنّه لولا الصرف لعارضوه،

هو أنّه إذا ثبت في فصيح كلامهم مايقارب كثيراً من القرآن، والنظم لايصحّ فيه التزايد والتفاضل، بدلالة أنه يشترك الشاعران في نظم واحد. لايزيد أحدهما على صاحبه، وإن تباينت فصاحتهما.

وإذالم يدخل النظم تفاضل، لم يبق إلّا أن يقال: الفضل في السبق إليه، وذلك يقتضي أن يكون من سبق الى ابتداء الشعر ووزن من أوزانه أتى بمعجز، وذلك باطل. ولايتعذّر نظم مخصوص بمجرى العادة على من يتمكّن من نظوم غيره، ولايحتاج في ذلك الى زيادة علم كما يقول في الفصاحة. فمن قدر على البسيط يقدر على الطويل وغيره، ولوكان على سبيل الاحتذاء، وإن خلا كلامه من فصاحة. فعلم بذلك أن النظم لايقع فيه تفاضل.

ثم أورد الاعتراضات على ذلك من وجوه:

أحدها: أنهم قالوا: يخرج قولكم هذا القرآن من كونه معجزاً على ذلك، لأنّ على هذا المذهب، المعجز هوالصرف، وذلك خلاف إجماع المسلمين.

الجواب: أنّ هذه مسألة خلاف، لايجوز أن يدّعى فيها الإجماع. على أنّ معنى قولنا «معجز» في العرف بخلاف ما في اللغة، والمراد به في العرف: ماله حظّ في الدلالة على صدق من ظهر على يده.

والقرآن بهذه الصفة عند من قال بالصرفة،فجاز أن يوصف بأنّه معجز. وإنّما ينكر العوام أن يقال: القرآن ليس بمعجز، متى أُريد به أنّه غير دالّ على النبوّة، وأنّ العباد يقدرون عليه. وأمّا أنه معجز بمعنى أنّه خارق للعادة بنفسه، وبما يسند إليه، فوقوف على العلماء المبرّزين.

على أنّه يلزم من جعل جهة إعجاز القرآن الفصاحة، الشناعة، لأنّهم يقولون: إنّ من قدر على الكلام من العرب والعجم يقدرون على مثل القرآن، وإنّما ليست له علوم بمثل فصاحته.

الثاني: إذا كان الصرف هو المعجز، فلم لم يجعل القرآن من أركّ الكلام

وأقلّه فصاحة، ليكون أبهر في باب الإعجاز؟!

الجواب: لوفعل ذلك لجاز، لكن المصلحة معتبرة في ذلك، فلايمتنع أنّها اقتضت أن يكون القرآن على ماهوعليه من الفصاحة، فلأجل ذلك لم ينقص منه شيء.

ولايلزم في باب المعجزات أن يفعل ماهو أبهر وأظهر، وإنّما يفعل ماتقتضيه المصلحة، بعد أن تكون دلالة الإعجاز قائمة فيه.

ثم يقال: هلّا جعل القرآن أفصح ممّا هوعليه؟ فما قالوا فهو جوابنا عنه، وليس لأحد أن يقول: ليس وراء هذه الفصاحة زيادة، لأنّ الغايات التي ينتهي إليها الكلام الفصيح غير متناهية.

ثالثها: لوكان المعجز الصرف لما خفي ذلك على فصحاء العرب، لأنّهم إذا كانوا يتأتّى منهم فعل التحدّي، ما تعذّر بعده وعند روم المعارضة، فالحال في أنهم صرفوا عنها ظاهرة، فكيف لم ينقادوا؟

والجواب: لابدّ أن يعلموا تعذّر ماكان متأتّياً منهم، لكنّهم يجوز أن ينسبوه الى الاتفاقات، أو الى السحر، أو العناد، ويجوز أن يدخل عليهم الشبهة.

على أنّهم يلزمهم مثل ما ألزمونا، بأن يقال: انّ العرب إذا علموا أنّ القرآن خرق العادة بفصاحته، فأيّ شبهة بقيت عليهم؟ ولمَ لم ينقادوا؟ فجوابهم جوابنا.

رابعها: إذا لم يخرق القرآن العادة بفصاحته، فلِمَ شهد له بالفصاحة متقدمو العرب...؟

والجواب: جميع ما شهد به الفصحاء من بلاغة القرآن فواقع موقعه، لأنّ من قال بالصرفة لاينكر مزيّة القرآن على غيره بفصاحته، وإنّما يقول: تلك المزيّة ليست ممّا يخرق العادة وتبلغ حدّ الإعجاز... وأمّا دخولهم في الاسلام فلأمر بهرهم وأعجزهم وأي شيء أبلغ من الصرفة في ذلك؟![1].

---

(١) الخرائج والجرائح: ج٣ ص٩٨٧-٩٩٢.

الى هنا يتّحد كلام القطب مع كلام الشيخ في تأييد مذهب الصرفة، ويتعرّض القطب لسائر الوجوه التي قيل بها في باب الإعجاز، وأخذ يناقشها.. وأخيراً يعرّج الى القول بالصرفة ثانياً ويأخذ في تأييده بما ليس في كلام الشيخ.

* * *

قال: ثم لنذكر وجهاً آخر للصرفة، وهو أنّ الأمر لوكان بخلافه، وكان تعذّر المعارضة المبتغاة والعدول عنها لعلمهم بفضله على سائر كلامهم في الفصاحة، وتجاوزه له في الجزالة، لوجب أن يقع منهم معارضة على كلّ حال، لأنّ العرب الذين خوطبوا بالتحدّي والتقريع، ووجّهوا بالتعنيف والتبكيت، كانوا إذا أضافوا فصاحة القرآن الى فصاحتهم، وقاسوا بكلامهم كلامه، علموا أنّ المزيّة بينهما إنّما تظهر لهم دون غيرهم ممّن نقص عن طبقتهم ونزل عن درجتهم دون الناس جميعاً ممّن لايعرف الفصاحة ولا يأنس بالعربيّة، وكان ماعليه دون المعرفة لفصيح الكلام من أهل زماننا ممّن خفي الفرق عليهم بين مواضع من القرآن وبين فقرات العرب البديعة وكلمهم الغريبة، فأيّ شيء أقعدبهم عن أن يعتمدوا الى بعض أشعارهم الفصيحة، وألفاظهم المنثورة، فيقابلوه، ويدّعوا أنّه مماثل لفصاحته أو أزيد عليها، لاسيّما وأكثر من يذهب الى هذه الطريقة يدّعي أنّ التحدّي وقع بالفصاحة دون النظم وغيره من المعاني المدّعاة في هذا الموضع.

قال: فسواء حصلت المعارضة بمنظوم الكلام أو بمنثوره، فمن هذا الذي كان يكون الحَكَم في هذه الدعوى، وجماعة الفصحاء أو جمهورهم كانوا حرب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن أهل الخلاف عليه، لاسيّما في بدوالأمر وقبل أوان استقرار الحجّة وظهور الدعوة؟

ولا نعمد إلّا على أنّ هذه الدعوى لوحصلت، لردّها بالتكذيب من كان في حرب النبيّ (صلى الله عليه وآله) من الفصحاء، لكن كان اللبس يحصل والشبهة تقع لكلّ من ليس من أهل المعرفة. وكان لطوائف الناس من الفرس والروم والترك ومن ماثلهم ممّن لاحظّ لهم فى العربية مايتأكّد الشبهة وتعظم المحنة

ويخفى وجه الحقّ، عند تعارض الأقوال وتقابل الدعوى في وقوع المعارضة موقعها، لأنّ الناظر إذا رآى جلّ أصحاب الفصاحة يدّعي وقوع المعارضة، وقوماً ينكرونها، كان أحسن حاله أن يشك في القولين، فأيّ شيء يبقى من المعجز بعد هذا، والإعجاز لايتمّ إلّا بالقطع على تعذّر المعارضة، والتعذّر لايحصل إلّا بعد العلم بأنّ المعارضة لم تقع، مع توفّر الدواعي وقوّة الأسباب!

قال: وليس يحجز العرب عمّا ذكرناه ورع ولا حياء، لأنّا وجدناهم لم يرعوا عن السبّ والهجاء ولم يستحيوا من القذف والافتراء، وليس في ذلك مايكون حجّة ولاشبهة، بل هوكاشف عن شدّة عداوتهم، وأنّ الحيرة قد بلغت بهم الى استحسان القبيح الذي يكون نفوسهم تأباه، واحرجهم ضيق الخناق الى أن أحضر أحدهم أخبار رستم واسفنديار، وجعل يقصّ بهاويوهم الناس أنّه قد عارض، وأنّ المطلوب بالتحدّي هوالقصص والأخبار، وليس يبلغ الأمر بهم الى هذا، وهم متمكّنون ممّا ترفع الشبهة، فعدلوا عنه مختارين.

وليس يمكن لأحد أن يدّعي أنّ ذلك ممّا لم يهتد إليه العرب، وأنّه لو اتّفق خطوره ببالهم لفعلوه، غير أنّه لم يتّفق. لأنّهم كانوا من الفطنة والكياسة على مالا يخفى عليهم معه أنفذ الأمرين مع صدق الحاجة وفوتها، والحاجة تفتق الجبل!

هب أنّهم لم يتفطّنوا ذلك بالبديهة، كيف لم يقعوا عليه مع التفكّر، لأنّ العرب إن لم يكونوا نظّارين، فلم يكونوا في غفلة مخامرة في العقول، ولايجوز أن يذهب العرب جلّهم عما لا يذهب عنه العامة، وقد كانوا يستعملون في حروبهم من الإرتجاز مالو جلعوا مكانه معارضة القرآن كان أنفع لهم.. انتهى، مع شيئ من التلخيص[1].

فذلكة القول بالصرفة:

يتلخّص مذهب الصرفة ـ على ماقاله وجوه أصحاب هذا الرأي ـ حسبما يلي:

---

(١) راجع الخرائج والجرائح: ج٣ ص١٠٠٧ـ١٠١٠. والبحار: ج٨٩ ط بيروت ص١٣٩ـ١٤١.

أوّلاً: قولة النظّام (مبتدع هذه الفكرة): أنَّ في نثر العرب ونظمهم مالا يخفى من الفوائد، يعني: فصاحة بالغة تضاهي فصاحة القرآن. وقد صرّح بذلك الخفاجي والشريف المرتضى. استناداً الى قوله تعالى ـ حكاية عن العرب ـ: «لونشاءلقلنا مثل هذا...»[1] يدلّ على أنّ العرب حسبت من نفسها القدرة على الإتيان بمثله سبكا وصياغة. لولا أنّه تعالى صرف هممهم عن النهوض لمقابلته، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمعارضته.

ثانياً: ربط ابنُ حزم مسألة الإعجاز بمسألة الجبر في الاختيار، وأن لاميزة جوهريّة في القرآن لولا المنع الخارجي. واستند الى مايوجد في القرآن من تفاوت في درجة البلاغة، ومن سرد أسماء زعم أن لاعجيبة في نضدها بما يفوق كلام العرب. كما أنّ فيه حكاية أقوال آخرين لم تكن معجزة، فلمّا حكاها الله تعالى في القرآن أصارها معجزة ومنع من مماثلته وحال دون إمكان النطق بمثلها أبداً. قال: وهذا برهان كافٍ لايحتاج الى أزيد منه... وحمدالله أن هداه الى هذا البرهان الكافي الشافي.. لولا أنّ الأُستاذ الرافعي سخر من عقليّته هذه الساذجة، قائلاً: بل هوفوق الكفاية، وأكثر من ذلك أنّه لـمّا جعله ابن حزم رأياً له أصاره كافياً ولا يحتاج الى مزيد بيان!

ثالثاً: استند السيّد وأصحابه الى عدم ظهور فرق بيّن بين قصار السور والمختار من كلام العرب، وإلّا لما احتيج الى مراجعة الأذكياء من العلماء.

والنظم لايصحّ فيه التزايد والتفاضل.. كما لايصحّ معارضة المنثور بالمنظوم.. وقاس الخفاجي تلاؤم الكلمات في الجمل بتلاؤم حروف الكلم.. ليكون خارجاً عن اختيار المتكلّم...

ودليلاً على ذلك قالوا: لاشكّ أنّ العرب كانوا قادرين على التكلّم بمثل

---

(١) الانفال: ٣١.

مفردات الجمل وقصار تراكيبها مثل (الحمدلله) و(ربّ العالمين) وهكذا، فأجدر بهم أن يكونوا قادرين على تراكيب أكبر وجمل أطول.

وأيضاً فإنّ الصحابة الأوّلين ربّما تردّدوا في آية أنها من القرآن؟ وكذا بعض السور القصار كالمعوّذتين، رفض ابن مسعود كونهما منه! فلوكان النظم والبلاغة هما الكافيين للشهادة على القرآنية، فما وجه هذا التوقّف وذلك الترديد أو الرفض؟![1].

واخيراً قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ» أي أصرفهم عن إبطالها بالمعارضة... هكذا زعموا..

وقد تقدّم الكلام عليها عند توجيه مذهب السيّد في الصرفة..

مناقشة القول بالصرفة:

تلك دلائل استند إليها أصحاب القول بالصرفة في ظاهر الأمر... لكنّا نعتقد أنّ السبب الداعي لاختيارهم هذا الرأي أمر آخر وراء هذا الظاهر المريب. إذ ليس فيما استمسكوا به مايبعث على هذا الاختيار، ولا سيّما وأصحاب هذاالقول هم جهابذة أقحاح وأئمّة نقد وتمحيص، ليسوا أهل تعسّف في الرأي أو وهن في العقيدة والاختيار! ومن ثمّ فإنّها دلائل ظاهريّة ومعاذير شكليّة كان خلفها شيء آخر لعلّه رصين، لأمرما جدع قصير أنفه!

نعتقد أنّهم واجهوا أولئك الذين قصروا وجه الإعجاز في جانب لفظ القرآن وحروفه وجودة سبكه وأسلوبه .. وهو جانب جدّ خطير، يعلو به شأن الكلام ويرتفع قدره.. إلّا أنّه ليس بمثابة بحيث يخرجه عن حدّ المعتاد غيرالممكن على فصحاء الكلام وبلغاء البيان.. في كلام العرب وغيرهم من أُمم ذات لغة راقية مقطعات رائعة، من بديع النظم ورفيع النثر ممّا يبهر ويعجب!

---

(١) ذكرهما التفتازاني في شرح المقاصد: ج٢ص ١٨٤.

ونرافقهم في هذا الشأن، غير أنّ جهة الإعجاز البياني للقرآن ـ على ما سنذكر ـ لا تنحصر في جودة سبكه وروعة نظمه، والوفير من بدائع المحسّنات اللفظية. إنّ هذا كلّه إنّما هو جزء سبب لروعة القرآن الباهرة... وإنّ وراءه سبباً آخر أقوى هو كامن وراء هذا القالب الجميل، هي: خلابة رُوحه، ونسمة رَوْحه. فخامة معنى في أناقة تعبير. وهما مجتمعين وليدان توأمين، الأمر الذي يعزّ وجوده، بل ينعدم في كلام غيره، ولا سيّما مع هذا الإطناب في الكلام والتنوّع في المرام، ميزة خُصّ بها القرآن الكريم.

وبعد.. فإليك بعض النقاش مع دلائل القوم في ظاهر المقال:

١ـ ليس في كلام العرب مايضاهي القرآن:

فإذ كانت روعة القرآن منبثقةً من تلاحمٍ في جمال لفظه مع جلال معناه، ومن بديع صورته مع كبرياء محتواه، فأين ـ ياترى ـ يوجد له مثيل في مثل هذه الرفعة وذلك الشموخ؟! نعم سوى شؤون كانت مبتذلة، ومعان كانت هابطة وساقطة الى حدّ بعيد.. كانوا يتداولونها! ولَـمُقَارَنَةٌ عبرى بين آيات من الذكر الحكيم، وأروع مقطعات العرب لتكفي شاهدا على ذلك البون الشاسع!

جاء القرآن بسبك غريب على العرب، وعجيب على الناس أجمعين، لا هو شعر ولا هو نثر كنثرهم، نثر في خاصيّة الشعر، لا هدر سجع، ولا هذر كهانة، حلو رشيق، وخلوب رفيع. إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، إنّه يعلو ومايعلى. وإنّه ليحطم ما تحته! كلام قاله عظيم العرب وخلاصتها الفذ الفريد الوليد![1].

(١) نعم نسب الى الجعد بن درهم (مؤدّب مروان بن محمد الملقّب بالحمار، آخر خلفاء بني أُميّة) القول بأنّ فصاحة القرآن غير معجزة، وأنّ الناس يقدرون على مثلها، وعلى أحسن منها...
قيل: هو أوّل من صرّح بذلك، وتجرأ عليه.
قال الأُستاذ الرافعي: ولم يقل بذلك أحد قبله. (الاعجاز: ص١٤٤).

←

كانوا كلّما حاولوا مضاهاته، افتضح بهم الأمر، وفشلوا في نهاية المطاف، وهكذا على مرّ العصور. الأمر الذي سجل على محياه الكريم: أنّه لم يسبق له نظير، ولا يخلفه أبداً بديل !

فإن كان النظّام وأصحابه إنّما أرادوا المضاهاة في مجموع هذه الجوانب والمزايا اللفظيّة والمعنويّة، فنحن نطالبهم أن يأتوا بشاهد من كلام العرب أو غيرهم من باب المثال، ولكنهم أعجز من أن يأتوا بمثله ولواجتمعوا له.

وإن ارادوا المباهاة ببدائع بعض روائع الكلام، فهذا شيء لاننكره، ولكنّه ليس كلّ شأن الإعجاز، ولا وقع التحدّي بمثله.

وقوله تعالى: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُنا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْنَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذا إنْ هذا إلّا أساطِيرُ الأَوّلين»[١].

قولة قالها النضربن الحارث بن كلدة كان من زعماء قريش ومن شياطينهم الأفاكين، صاحب ثروة ونفوذ كلمة. كان يختلف الى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلمّا قدم مكة سمع كلام النبيّ (صلى الله عليه وآله) والقرآن، فزعم أنّه من قبيل ذاك ، فحسب من نفسه القدرة على مماثلته... كما كان قد تعلّم بعضاً من أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم واسفنديار) فكان يقصّها على جهلاء العرب استحواذاً عليهم ليلهيهم عن حديث الإسلام وذكريات القرآن، زاعماً أنّه بذلك يقابل رسول الله في كلامه وتلاوة قرآنه. كان إذا

وله مقالات أُخرى أيضاً أنكروها عليه، فآل أمره الى القتل صبراً. ذبحه ـ كما يذبح الكبش ـ خالد القسري أميرالعراق من قبل هشام بن عبدالملك بأمره.

ذكر ذلك ابن الأثير في حوادث (سنة ١٢٥): ج ٥ ص ٢٦٣. وراجع ص ٤٢٩ أيضاً.

وقد جعل الأُستاذ عرفة ذلك دليلاً على قوله بالصرفة. فهو أوّل من ذهب هذا المذهب... وهو وهم... لأنّه ـ على فرض صحة النسبة ـ إنّما حاول بذلك إنكار أصل الإعجاز... كما وهم في علي بن عيسى الرماني أيضاً قوله بالصرفة... في حين انه جعله أحد الوجوه للإعجاز... راجع: النكت في الاعجاز: ص ١١٠. (قضية الإعجاز القرآني: ص ١٤٨ - ١٤٩).

(١) الانفال: ٣١.

جلس رسول الله (صلى الله عليه وآله) مجلساً يدعوالناس الى الله ويتلو عليهم آياته ويحذّر قريشاً ممّا أصاب الأُمم الخالية .. خلفه النضر في مجلسه إذا قام عنه، ليحدّثهم عن حديث رستم واسفنديار وملوك فارس .. ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منّي، وما أحاديثه إلا «أساطِيرُ الأَوّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً»[١].

قيل: فنزلت فيه: «إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ. وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهِينٍ. هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذلكِ زَنِيمٍ. أَنْ كانَ ذَامَالٍ وَبَنِينَ. أذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطِيرُ الأَوّلينَ. سَنَسِمُهُ عَلىٰ الْخُرْطُوم. إنّا بَلَوْنَاهمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصحابَ الْجَنَّةِ إذْ أقسموا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلاَ يَسْتَثْنُونَ. فَطافَ عَلَيْها طَائِفٌ مِنَ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ»[٢].

... فكانت الآيات صواقع قوارع هدّمت عليهم بنيانهم وأضرمته ناراً ..! هكذا جابهم القرآن بصوته المدوّي الصارخ العنيف، وذرّ أوهامهم هباءً منثوراً .. فلوكانت لهم بقيّة باقية لقاموا في وجهه، ولكن أنّى لهم التناوش من مكان بعيد؟!

وقع أسيراً يوم بدر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا عليُّ عَليَّ بالنضر، فأخذ عليٌّ بشعره وجرّه، وكان رجلاً جميلاً متجمّلاً بشعره، فجاء به الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا محمد، أسألك بالرحم بيني وبينك الاّ أجريتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتني وإن فاديتهم فاديتني. فقال (صلى الله عليه وآله) : لارحم بيني وبينك ، قطع الله الرحم بالإسلام. قدّمه

(١) الفرقان: ٥.

(٢) القلم: ٧ـ ٢٠.

يا عليُّ واضرب عنقه، فقدّمه وضرب عنقه صبراً. لعنه الله[1].

وبعد... فلا يؤخذ من قولة صاحب نخوةٍ وأوهامٍ شاهداً على برهان !

٢ـ الاطّراد من روائع البديع:

زعم ابن حزم أن لا اعجوبة في سرد أسماء... لكن يكذّبه رائعة (الإطّراد)[2] في باب البديع. وهو: أن يطّرد الشاعر أو المتكلّم ـ عند صياغة الكلام إن نظماً أو نثراً ـ في سرد اسماء متعاقبة من غير كلفة ولا حشو فارغ. قال ابن رشيق: فإنّها إذا اطّردت كذلك، دلّت على قوّة طبع الشاعر وقلّة كلفته ومبالاته بالشعر. قال الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ... وأنت امرؤ يرجو شبابك وائل[3]

فأتى كالماء الجاري اطّراداً وقلّة كلفة، وبيّن النسب حتّى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة..

ولما سمع عبدالملك قول ابن صمّة:

أبأتَ بعبدالله خير لِداته ... ذؤاب بن اسماء بن زيد بن قارب[4]

قال ـ كالمتعجب ـ: لولا القافية لبلغ به الى آدم.

وقال ابوتمام:

عبدالمليك بن صالح بن ... علي بن قسيم النبيّ في نسبه

---

(١) ابن هشام: ج ١ ص ٣٨٤. ومجمع البيان: ج ٤ ص ٥٣٨. والدرالمنثور: ج ٣ ص ١٨٠.

(٢) قال ابن ابي الاصبع: هو أن يطّرد للمتكلّم اسماء لآباء ممدوحه منسوب بعضها الى بعض، مرتبة على حكم ترتيبها في الميلاد. من ذلك قوله تعالى: «واتبعت ملّة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب» قال: فالحظّ ما اتفق في هذه اللفظات السّت من انواع البلاغة، لتقدّر نظم القرآن العزيز قدره وتعرف فرق ما بينه في هذا الباب وماجاء فيه من أشعار فصحاء العرب.. ثم جعل يعدّد موارد الروعة في الآية.. (بديع القرآن: ص ١٤١).

(٣) الوائل: صاحب الحاجة وطالب النجاة من المأزق.

(٤) أباء القاتل بالقتيل: أقاده به. واللدة: الترب ومن تربّى معك. وأصله: ولد بكسر الواو.

فهذا سهل العنان، خفيف على اللسان. قال ابن رشيق: وإن كانت الياء في «المليك» ضرورة وتكلّفاً.

وقال بعضهم:

من يكن رام حاجة بعدت ... عنه وأعيت عليه كلَّ العياء

فلها أحمد المرجّى بن يحيى ... بن معاذبن مسلم بن رجاء

فجاء كلامه نسقاً واحداً، إلّا أنّه قد شغل البيت وفصل بين الكلام بقوله: «المرجّى». غير أنّ مجانسة «رجاء» هوّنت خطيئته وغفرت ذنبه.

ثمّ جعل ابن رشيق يعدّد من أنواع الاطّراد وفيها تكلّف من شعراء فصحاء[١].

وزعم أيضاً أنّ في حكاية أقوال الآخرين تحوّلاً من الممكن الى المعجز...! كلام غريب، ولعلّه حسبه نقلاً بالحرف ! ولا شكّ انه نقل بالمعنى، لاسيّما مع النظر الى لغاتهم غيرالعربيّة، ويدلّك عليه سرد قضية واحدة في مواضع من القرآن في مختلف العبارات، وإن كانت في كلّ مرة ذات مزيّة حِكَميّة لا تشترك فيها أُختها. وعليه فالكلام كلامه تعالى، لأنّه من نظمه وتأليفه بالذات. ونسبة الكلام إنّما يتحقّق بالنضد والتأليف. الأمر الذي يكون الإعجاز فيه، أيّاً كان لفظ المنقول عنه.

وأخيراً فإنّ التفاوت في درجة فضيلة البيان، هي أيضاً آية أُخرى، تحلّت بها آيات القرآن الكريم، فكان هناك بليغ وأبلغ وفصيح وأفصح، حسب تفاوت المقامات واختلاف المناسبات. وقد جعل السكّاكي حدّ الإعجاز من بلاغته طرفها الأعلى ومايقرب منه، فلاتستوي مرتبة البلاغة في الآيات، وإن كان الجميع بالغاً حدّ الإعجاز.

* * *

---

(١) العمدة: ج ٢ ص ٨٢ رقم ٦٥.

٣ـ إنّما يعرف ذا الفضل من العلم ذووه:

ليست معجزة نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) بدعا من معاجز سائر الأنبياء (عليهم السلام) إذ كان نبهاء الأُمم وأصحاب الاختصاص هم الذين كانوا يلمسون واقع الإعجاز. وامتياز المعجز عن الممكن ـ فيما يقدّمه الأنبياء ـ إنّما يعرفه أفذاذ الناس... كانت سحرة فرعون هم الذين لمسوا الحقّ في العصا واليد البيضاء فآمنوا به وتبعهم الآخرون وهكذا. فكان سبيل القرآن ـ وهو أرقّ المعاجز وأرقاها ـ سبيل سائر المعاجز يعرفه ذوو الاختصاص من أهل الفنّ، والأذكياء من العلماء، ومن ثمّ فإنّهم هم المراجع في وضح الحقّ ودحض الأباطيل «فَاسألُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ»[1].

ما الفضل إلّا لأهل العلم أنّهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

ومن ثم كانت شهادات أفذاذ العرب الأقحاح، هوالقول الفصل، بشأن القرآن الكريم وأنّها ميزة خارقة فاق بها سائر الكلام.

تلك شهادة طاغية العرب وعظيمها الوليدبن المغيرة: «يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ماهوبشعر ولا بسحر... وإنّ قوله لمن كلام الله...»[2].

وأيضاً قوله: «والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً، ماهومن كلام الإنس ولا من كلام الجنّ. والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة... وإنّه يعلو ومايعلى. وإنّه ليحطّم ما تحته...»[3].

وشهادات فصحاء العرب وسادات قريش من هذا القبيل كثيرة، كلّها تنمّ عن واقعيّة فخيمة لمسها أُولئك الخواصّ، فسار من ورائهم العوامّ..

ذكروا أنّ فصحاء قريش أزمعت على معارضة القرآن، فجمعت لها جمعها، حتى إذا ما نزلت «وَقِيلَ يا أرْضُ ابلَعي ماءكَ ويا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ

---

(١) النحل: ٤٣. (٢) تفسير الطبري: ج٢٩ ص٩٨. (٣) مستدرك الحاكم: ج٢ ص٥٠٧.

وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»[١]... نظر بعضهم الى بعض حيارى مذهولين.. فقد يئسوا ممّا طمعوا فيه وعرفوا أنّه ليس بكلام مخلوق...[٢].

وبذلك تبيّن أنّ لاموضع لقوله: «جميع ما شهد به الفصحاء فواقع موقعه، إذ لاتنكر مزيّة القرآن على غيره، وإنّما هي ليست ممّا تخرق العادة!» إذ شهادتهم إنّما كانت بكونه فوق مستوى البشر، وأنّه ليس من كلام المخلوقين، وكفى به دليلاً على كونه معجزاً خارقاً للعادة، إذ لا يقصد من الإعجاز سوى كونه فوق مقدور الإنسان، هذا لاغير!

قوله: والنظم لايصحّ فيه التزايد والتفاضل...

ولعلّه على العكس فإنّ التفاضل في النظم والأسلوب شيء معروف، وبذلك قد فاق شعر شاعر عتيد على شعر شاعر جديد، وكان أهل الصناعة المضطلعون بالرويّ والقصيد قد فاقوا في نظمهم على المبتدئين المتكلّفين، وكان الأسلوب هوالذي أشال بهؤلاء وأطاح بهؤلاء!

قال أبوعثمان الجاحظ: أجود الشعر مارأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه أُفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

قال ابن رشيق: «وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سمعه، وخفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلي في فم سامعه. فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجّته المسامع فلم يستقرّ فيها منه شيء[٣].

وأنشد الجاحظ:

---

(١) هود: ٤٤. (٢) العمدة لابن رشيق: ج ١ ص ٢١١، ومجمع البيان: ج ٥ ص ١٦٥.

(٣) العمدة لابن رشيق: ج ١ ص ٢٥٧.

وبعض قريض القوم أبناء علّة   يكدّ لسان الناطق المتحفّظ

وأيضاً:

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه   لسان دعيّ في القريض دخيل

واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفّته وسهولته، واللفظة كأنّها حرف واحد، وأنشد قول الثقفي.

من كان ذا عضد يدرك ظلامته   إنّ الذليل الذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ماقلّ ناصره   ويأنف الضيم إن أثرى له عدد(١)

اذن فالنظم نظم، ووزنه وزن شعر، لكن شتّان مابين النظمين، هذا عذب فرات، وذاك ملح أجاج، في هذا سهولة وفي ذاك وعورة. وهكذا القرآن، فاق سائر الكلام في عذوبة نظمه، وسهولة أُسلوبه، في روعة وأناقة وجلال، وهذا من سرّ إعجازه الخارق..

وأمّا الدليل الذي أقاموه، من أنّ القادر على الأبعاض قادر على الجملة... فقد أجاب عنه التفتازاني بأنّ حكم الجملة يخالف حكم الأجزاء، ولوصحّ ماذكر لكان كلّ من آحاد العرب قادراً على الإتيان بمثل قصائد فصحائهم كامرئ القيس وأضرابه.

وأمّا تردّد الصحابة في بعض الآيات والسور، فلعلّه كان لرعاية الاحتياط والاحتراز عن أدنى ملابسة... على أنّ الإعجاز في جميع مراتبه وفي جميع الآيات، ليس ممّا يظهر لكلّ أحد على سواء..(٢).

قوله: لو عارضوه بشعر منظوم لم يكونوا معارضين...

هذا إذا كان التحدّي ناظراً الى جانب النظم والأُسلوب فحسب، أمّا إذا كانت فضيلة الكلام هي الملحوظة في هذه المباراة، والمقصودة من تلك المباهاة، فهذا ممّا لايفترق فيه بين منظوم الكلام ومنثوره، شعره وخطبه، في

---

(١) ينبو السيف: يكلّ ولايكون قاطعا. وأثرى: كثر وتوفر.

(٢) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٨٤.

أيّ صيغة بني عليها الكلام أو رصفت حروفه وكلماته، ما دامت العبرة بجودة التعبير وحسن الأداء، هذا.. ولا سيّما قد أُطلق التحدي في القرآن إطلاقاً: لو يأتوا بحديث مثله... أي في شرف الكلام وفضيلته... شعراً منظوماً أو كلاماً منثوراً... أيّا كان نمطه إذا كان يماثله في الأُبّهة والبهاء... ومع ذلك فقد كلّت قرائحهم أن يقابلوه وضنّت أذهانهم أن يعارضوه... لـمّا رأوه فوق مستواهم السحيق، فقصرت الأيدي أن تناله وهو في مستواه ذلك الرفيع.

وفي الختام نعود على ما بدأنا به من توجيه كلام الشريف المرتضى في الصرفة، بأنّها من جهة فقد العرب للإمكانات اللازمة في صياغة كلام مثل القرآن، فقد سُلبوا التوفيق عليه وخذلهم الله على إصرارهم في معاندة الحقّ. فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لايهدي القوم الفاسقين.

دحض شبهة الصرفة:

هذا وقد هبّ العلماء جميعاً قديماً وحديثاً يفنّدون مزاعم القول بالصرفة، إمّا برهاناً عقلياً أو خطابة وجدلاً بالتي هي أحسن، في دلائل ومسائل نعرض أهمّها ونقتصر عليها، لأنّ فيها الكفاية والوفاء.

وقبل أن نرد التفصيل نقدّم خلاصة من تلك الردود والدلائل:

أوّلاً: مخالفة هذا المذهب لظاهرة التحدّي القائمة على المباهاة، ولا مباهاة على صنيع لاميزة فيه سوى سلطة صانعه على منع الآخرين قهريّاً من مماثلته!

كمن باهى بوضع يده على رأسه وتحدّى الآخرين أن يصنعوا بمثله، لكنّهم لمّا أرادوا مماثلته أخذ بيدهم ومنعهم من ذلك منعاً، أفهل يعدّ ذلك من المباهاة؟!

أو كمن استهدف غرضا دقيقاً مباهياً، لكنّه سلب صاحبه بندقته، ولولاه لتمكّن من مماثلته... ليس هذا تحدّياً ولا مباهاة البتة..

والخلاصة: أنّ المباهاة بالصنيع إنّما تُتعقّل إذا كان الصنيع ذاته مشتملا على مزيّة خارقة وبديعة عجيبة، ليس إلّا.

ثانياً: لكان ينبغي أن يتعجّبوا من انفسهم هذا التحوّل المفاجئ لهم، بالأمس كانوا قادرين واليوم أصبحوا عاجزين. فلم يكن موضع إعجاب بالقرآن الكريم، ولا أن تبهرهم روعته، في بديع نظمه وعجيب رصفه...

وأنّ شهادتهم برشاقة أُسلوبه وأناقة سبكه وتأليفه، فضلاً عن فخامة معانيه ورصانة مبانيه لأعظمُ دليلٍ على سموٍّ وشموخٍ لمسوه في جوهر القرآن و وجدوه في ذاته، لا شيء سواه...

ثالثاً: لامباهاة مع مسلوب القدرة، هو والميت سواء، ولا تحدّى مع الأموات، قلّوا أم كثروا فإنّ كثرتهم لاتجدي شيئاً بعد كونه من ضمّ الحجر الى المدر، ولا حراك في الجماد.

ومن ثمّ فمن المستغرب مازعمه ابن حزم من قياس ماهنا بمسألة الجبر وسلب الاختيار «لاَ يُسأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسأَلُونَ» [1] ! فقد ذهب عنه أن لاعلاقة بين المسألتين ولا تناسب بين المفهومين: المباهاة وسلب الاختيار !

أمّا السيّد وأصحابه، وكذا النظّام -في احتمال- فلم ينكروا اعتلاء جانب القرآن بمافاق سائر الكلام، إمّا في فصاحته البالغة، كما ذكره السيّد. أو لإشتماله على الأُمور الغيبيّة، كما ذكره النظّام... وإنّما عجز القوم عن مماثلته، لفقدهم العلوم التي كان يمكنهم بذلك مقابلته، ولعلّ البشريّة أجمع تعوزه تلك **القدرة المحيطة على جمع الامتيازات المشتمل عليها القرآن الكريم. وقدنبّهنا ذلك مسبقاً.**

وبعد... فإليك موجز أهمّ كلمات الأعلام في المقام.

كلمة أبي جعفر الطوسي:

وأوّل من ردّ على المرتضى قوله بالصرفة، هو تلميذة الأكبر ابوجعفر محمدبن الحسن الطوسي في كتابه (الاقتصاد) معتذراً لنصرته السيّد في (شرح الجمل) بأنّه حيث شَرَحَ كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه! قال:

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

«وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة، لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها ودون النظم بانفراده ودون الصرفة. وإن كنت نصرت في شرح الجمل القول بالصرفة، على ماكان يذهب إليه المرتضى (رحمه الله) من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه»[١].

ثمّ أخذ في الرّد على القول بالصرفة، قال:

«واعلم أنّه لوكان وجه الإعجاز سلب العلوم، لكانت العرب إذا سلبوا هذه العلوم خرجوا عن كمال العقل... قال: وبهذا أجبنا من قال: لم لايجوز أن يكون من تأتّى منه الفعل المحكم، معتقداً أو ظانّاً دون أن يكون عالماً. بأن قلنا: مالأجله تأتّى الفعل المحكم هو أمر يلزم مع كمال العقل، فلايخرج عنه إلّا باختلال عقله. والعلم بالفصاحة من هذا الباب، فلوسلبهم الله هذه العلوم لكانوا خرجوا من كمال العقل، ولوكان كذلك لظهر واشتهر، وكان يكون أبلغ في باب الإعجاز من غيره. ولمّا لم يعلم كونهم كذلك وأنّ العرب لم يتغيّر حالهم في حال من الأحوال، دلّ ذلك على أنّهم لم يسلبوا العلوم، وإذا لم يسلبوها وهم متمكّنون من مثل هذا القرآن كان يجب أن يعارضوا، وقد بيّنا أنّ ذلك كان متعذّراً منهم، فبطل هذا القول»[٢].

كلمة الإمام يحيى العلوي:

وقد فصل الكلام في تفنيد هذا المذهب، الإمام الزيدي يحيى بن حمزة العلوي، في كتابه (الطراز). احتمل اولاً في تفسير المذهب وجوهاً ثلاثة ـ حسبما قدّمنا ـ ثم أقام على بطلانه أيضاً براهين ثلاثة نذكرها باللفظ:

قال: «والذي يدلّ على بطلان هذه المقالة براهين:

البرهان الأوّل منها: أنّه لوكان الأمر كما زعموه، من أنّهم صرفوا عن

---

(١) الاقتصاد: ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) المصدر: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

المعارضة مع تمكّنهم منها، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأن يميّزوا بين أوقات المنع، والتخلية، ولو علموا ذلك لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجّب، ولوتذاكروه لظهر وانتشر على حدّ التواتر، فلمّا لم يكن ذلك، دلّ على بطلان مذاهبهم في الصرفة.

لايقال: إنّه لانزاع في أنّ العرب كانواعالمين بتعذّر المعارضة عليهم، وأنّ ذلك خارج عن العادة المألوفة لهم، ولكنّا نقول: من أين يلزم أنّه يجبُ أن يتذاكروا ذلك ويظهروه، حتّى يبلغ حدّ التواتر، بل الواجب خلاف ذلك، لأنّا نعلم حرص القوم على إبطال دعواه، وعلى تزييف ماجاء به من الأدّلة، فاعترافهم بهذا العجز من أبلغ الأشياء في تقرير حجّته، فكيف يمكن أن يقال بأن الحريص على اخفاء حجّة خصمه يجب عليه الاعتراف بأبلغ الأشياء في تقرير حجّته، وهو إظهاره واشهاره.

لأنّا نقول هذا فاسد، فإنّ المشهور فيمابين العوام، فضلاً عن دهاة العرب، أن بعض من تعذّر عليه بعض ماكان مقدوراً له، فإنّه لايتمالك في إظهار هذه الأعجوبة والتحدّث بها، ولا يخفى دون هذه القضية، فضلاً عنها، فكان من حقّهم أن يقولوا: إنّ كلّ واحد منّا يقدر على هذه الفصاحة، ولكن صار ذلك الآن متعذّراً علينا لأنّك سحرته عن الإتيان بمثله، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على فسادها.

البرهان الثاني: لوكان الوجه في إعجازه هوالصرفة كما زعموه، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلمّا ظهر منهم التعجّب لبلاغته وحسن فصاحته، كما أُثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: إنّ أعلاه لمورق، وإنّ اسفله لمغدق، وإنّ له لطلاوة، وإنّ عليه لحلاوة، فانّ المعلوم من حال كلّ بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحيّر لبّه، وماذاك إلّا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كلّ موعظة، وحكاية كلّ قصّة، فلوكان كما زعموه من الصّرفة، لكان العجب من غير ذلك، ولهذا فإنّ نبيّاً

لوقال: إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمّانة في كفّي، وأنتم لا تقدرون على ذلك، لم يكن تعجّب القوم من وضع الرمّانة في كفّه، بل كان من أجل تعذّره عليهم، مع أنّه كان مألوفاً لهم ومقدوراً عليه من جهتهم، فلوكان كمازعمه أهل الصّرفة، لم يكن للتعجّب من فصاحته وجه، فلمّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة.

البرهان الثالث: الرجع بالصرفة التي زعموها، هو أنّ الله تعالى أنساهم هذه الصّيغ فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولا شك: أنّ نسيان الأُمور المعلومة في مدّة يسيرة، يدلّ على نقصان العقل، ولهذا فإنّ الواحد إذا كان يتكلّم بلغة مدّة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لايعرف شيئا من تلك اللغة، لكانَ ذلك دليلاً على فساد عقله وتغيّره، والمعلوم من حال العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدّي بالقرآن وأنّ حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ماعوّل عليه أهل الصّرفة، وكلامهم يحتمل أكثر ممّا ذكرناه من الفساد،وله موضع أخصّ به،فلاجرم اكتفينا هاهنا بما أوردناه»[١].

كلمة عبد القاهر الجرجاني:

وللشيخ عبدالقاهر الجرجاني ردّ لطيف على القائلين بالصرفة، أورده في رسالته (الشافية) وقد أوفى المطلب حقّه، فأجدر به أن ينقل بلفظه قال:

«اعلم أنّ الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهّم أنّ التحدّي كان الى أن يعبّر عن أنفُس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه دون أن يكون قد أطلق لهم وخيّروا في المعاني كلّها. ذاك لأنّ في القول بها على غير هذا الوجه أُموراً شنيعة، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها. وذاك أنّه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نُقصوا في

(١) الطراز (في أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز): ج٣ ص ٣٩٢ـ ٣٩٥.

قرائحهم وأذهانهم، وعُدموا الكثير ممّا كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها ـ وكلّ كلام اختلفوا فيه من بعد أن أُوحي الى النبيّ (صلى الله عليه وآله) وتحدّوا الى معارضة القرآن ـ قاصرة عمّا سمع منهم من قبل ذلك، القصور الشديد. وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر، وخذلتهم قوى قد كانوا يصولون بها، وأن تكون أشعار شعراء النبيّ (صلى الله عليه وآله) التي قالوها في مدحه، وفي الردّ على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية..

ثمّ أورد إعتراضاً بأنّهم إذا لم يشعروا بهذا النقصان الحاصل في فصاحتهم، فكيف عرفوا مزيّة القرآن على كلامهم، وإذا لم يعرفوا مزيّة القرآن، فكيف اعترفوا بعجزهم عن نيلها!

وأمّا إذا أحسّوا بنقصان حدث في أنفسهم، فعند ذلك فاللازم أن لايعترفوا بمزيّة القرآن على كلامهم، بل بهذا العجز النفسي الحاصل لهم قهراً، فيتذاكروا ـ ولو عند مايخلو بعضهم لبعض ـ: مالناقد نقصنا في قرائحنا، وماهذا الكلول الحادث في أذهاننا؟!

ثم قال: وفي سياق آية التحدّي ما يدلّ على فساد هذا الزعم، إذ لايقال عمّا إذا منع الإنسان عن الشيء قهراً عليه، مع قدرته عليه قبل المنع ـ: انّي قد جئتكم بمالا تقدرون على مثله. بل كان يجب أن يقال: إن لي القدرة على أن أحول بينكم وبين مقدوركم، وأسلبكم القدرة على أمر كان متعارفاً عندكم.

ويقول ـ في خاتمة الفصل ـ: ينبغي أن يقال لهم: ماهذا الذي أخذتم به أنفسكم، وماهذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن؟ ومادعاكم إليه؟ وماأردتم منه؟ أوهل يكون لكم قول يحكى، فتكونوا أُمة على حدة أم قد أتاكم في هذا الباب علم لم يأت الناس؟ ...»[١].

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن: ص١٤٦ ـ ١٥٥.

الإمام الرازي:

ولفخر الدين أبي عبد الله الرازي كلمة موجزة في دحض شبهة القول بالصرفة، قالها ردّاً على مقالة النظّام بأنّ القرآن كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام، والعرب إنّما لم يعارضوه لأنّ الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به.

قال الرازي: ويدلّ على فساد ذلك وجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّ عجز العرب عن المعارضة ـ لو كان ـ لأنّ الله أعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، بل يجب أن يكون تعجّبهم من تعذّر ذلك عليهم، بعد أن كان مقدوراً عليه لهم، كما أنّ نبيّاً لو قال: معجزتي أنّي أضع يدي على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذراً عليكم ـ ويكون الأمر كما زعم ـ لم يكن تعجّب القوم من وضعه يده على رأسه، بل من تعذّر ذلك عليهم. ولمّا علمنا بالضرورة أن تعجّب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظّام.

الثاني: أنّه لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدّي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدّي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدّي والقرآن. ولمّا لم يكن كذلك بطل ذلك.

الثالث: أنّ نسيان الصيغ المعلومة في مدّة يسيرة يدلّ على زوال العقل، ومعلوم أنّ العرب ما زالت عقولهم بعد التحدّي، فبطل ما قاله النظّام[1].

كمال الدين الزملكاني:

وقال الزملكاني ـ تعقيباً على مانسبه الى النظّام من القول بالصرفة حسبما

(١) نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز للإمام الرازي: ص٧٩ـ٨٠ طبع دار العلم للملايين ١٩٨٥.

نقلناه عنه ـ: وهذا خلف من القول، إذ لوكان كذلك لكان ينبغي أن يتعجّبوا من حالهم دونه، فإنّ من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين، بأن يحبس الله أيديهم، لايعجب منه، بل من حالهم...

ولكان ينبغي أن يعارضوه بماقبل صرفهم من كلامهم الفصيح..

ولأنّ سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى، فلا يجدي اجتماعهم قوّة وظهوراً على المعارضة وهو مخالف لقوله تعالى: «قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القرآن لاَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»[1].

قال: وأمّا قصّة زكريا (عليه السلام) ـ صمته ثلاثة أيام ـ فحجّة له فيا نحنُ بصدده، إذ الآية كانت في سلبه النطق، لا في نطق غيره...[2].

سعدالدين التفتازاني:

وقال التفتازاني: قد استدل على بطلان الصرفة بوجوه:

الأوّل: أنّ فصحاء العرب إنّما كانوا يتعجّبون من حسن نظمه وبلاغته وسلاسته في جزالته، ويرقصون رؤوسهم عندسماع قوله تعالى: «وقِيلَ ياأرضُ ابلَعي مَاءكِ ...» الآية لذلك، لا لعدم تأتّي المعارضة مع سهولتها في نفسها!

الثاني: أنّه لوقصد الإعجاز بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلوّ طبقته...

الثالث: قوله تعالى: «قُل لَئِن اجْتَمَعَت الانْس والجنّ».. الآية فإنّ ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير في مقام التحدّي إنّما يحسن فيا لا يكون مقدوراً للبعض ويتوهّم كونه مقدوراً للكلّ فيقصد نفي ذلك ...[3].

العلاّمة كاشف الغطاء:

وقال العلاّمة كاشف الغطاء ـ بعد إبطال القول بالصدفة بشأن الأنبياء

---

(١) الاسراء: ٨٨.

(٢) البرهان الكاشف عن وجوه إعجاز القرآن: ص٥٣ـ ٥٤.

(٣) شرح المقاصد: ج٢ ص١٨٥.

(عليهم السلام) بان اتفق لهم العلم بأسباب سحر لم يعثر عليه سحرة عصرهم، وأنّ هذا يشبه القول بأنّ وجود العالم بالصدفة والبخت والاتفاق لا عن صنيع صانع وتدبير واضع. قال: كما اتضح من جميع ذلك منتهى فساد القول بأنّ إعجاز القرآن ليس هو بجوهره وذاته، بل بالحجز عنه والصرفة دونه. إن ذلك إلّا رأي عازب، وقول كاذب، قول من لم يجعل الله له من معرفة البلاغة حظّاً، ولا حصّل من شرائف حقائقها ومعانيها إلّا حكاية ولفظاً، فمذ ضايقه العجز والجهالة لجأ الى هذه المقالة، وضلّ يخبط في أمثال هذه الضلالة. ولست أرى لهذه الشبهة صورة صدق ولباس حقّ، يدعو الى توفّر العناية في شأنها وإيضاح بطلانها، لا سيّما وكلّ من عنى بهذا الشأن وتصدّى لعلم بلاغة القرآن، قدشنّع على هذا القول وبالغ في بطلانه وإحالته على أنّ من نسب إليه ذلك لم ينقل عنه الاستناد الى حجة ولا ضعيفة ، والتعويل على شبهة ولاسخيفة، وإنّما هو رأي رآه، أو احتمال أبداه[١]،

هبة الدين الشهرستاني:

وقال السيد هبة الدين الشهرستاني: نعم، جنح أُناس الى القول بالإعجاز لسبب منعة إلهية، ولصرف «الصرفة». وأرادوا من الصرفة أنّ الله سبحانه كما قديلهم العباد أحياناً، كذلك قد يصرف الهمم والأفكار عن أن يباري القرآن أحد. مذهب أعوج أعرج. أو كما قيل: حرفة عاجز وحجّة كسول، لا يليق إسناده الى علمائنا الفحول. لأنّ الله عزّ شأنه فيّاض عدل، ذو رأفة وفضل، فهو أرفع شأناً من أن يأمر الإنس والجنّ، أن يباروا القرآن، ويرضى منهم بمباراة بعضه لو تعذّر عليهم مباراة كلّه. ثم يعترض سبيلهم ويصرف منهم القوّة والهمّة، ويمنعهم من أن يأتوا بما تحدّاهم به...

---

(١) الدين والإسلام: ج ٢ ص ١٣٧.

والظاهر من ظواهر الآيات أن القرآن في ذاته، متعال بميزاته، حائز أرق الميزات وأبلغ المعجزات، وينبغي أن يكون كذلك، إن أُريد مدحه وفضله. أمّا لوحصرنا وجه الإعجاز في نقطة الصرفة... فيتمّ حتى مع كونه كلاماً مبذولاً مرذولاً للغاية، ففي الوجوه الوجيهة السالفة غنية وكفاية...»[1].

مصطفى صادق الرافعي:

وكلمة أخيرة قالها الأُستاذ الرافعي: فذهب شيطان المتكلّمين أبواسحاق النظّام الى أنّ الإعجاز كان بالصرفة، وهي أنّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة... قلنا: وكأنّه من هذا القبيل هوالمعجزة لا القرآن. وهذا الذي يروونه عنه أحد شطرين من رأيه، أمّا الشطر الآخر فهو الإعجاز إنّما كان من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية والآتية..

وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أنّ الله سلبهم العلوم.. التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيؤوا بمثل القرآن. فكأنّه يقول: إنّهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأُسلوب ولا يستطيعون ماوراء ذلك ممّا لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم... وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى.

غير أنّ النظّام هوالذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرّف.. وقد جاء رأيه في مذهب الصرفة دون قدره، بل دون علمه، بل دون لسانه..

... وهو عندنا رأي لوقال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه

---

(١) المعجزة الخالدة: ص٩٨.

وابتدعوه، لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض مايحاولونه إذا عمدوا الى القول فيما لايعرفون ليوهموا أنّهم قد عرفوا !

وإلّا فإنّ من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه، وهو بعد قادر عليه مقرن له، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلّا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة. ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب والمرء ينسى ويذكر، وقد يتراجع طبعه فترة لاعجزاً، وقد يعتريه السأم ويتخوّنه الملال، فينصرف عن الشيء وهُوَلَهُ مطيق، وذلك ليس أحقّ بأن يسمّى عجزاً من أن يسمّى تهاوناً، ولاهو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل ثقة.

وعلى الجملة فإنّ القول بالصرفة لايختلف عن قول العرب فيه: «إنْ هٰذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر»[١] وهذا زعم ردّه الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضرباً من العمى «أَفَسِحْرٌ هٰذا أَمْ أنتم لا تُبْصِرونَ»[٢] فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد..[٣].

وفي الختام لابأس أن نعرف أنّ الشيخ العماري (مبعوث الأزهر في السودان) حَسِبَ من كلمات أمثال الرافعي والشهرستاني وكاشف الغطاء، وحتى المتقدّمين كصاحب الطراز والتفتازاني والجرجاني وأضرابهم... خطاباتٍ لاتفي دليلاً، فحاول ترجيح قولة ابن حزم لكثرة دلائله (التي سردها في الفِصَل ونقلها العماري في مجلة الأزهر)[٤]... قلت: يالها من رزيّة، إذ اصبحت سفاسف الأوهام دلائل، وأمّا شواهد العقول فرذائل!! ولا سيّما ما اسهبه ابن حزم، لم نجد فيها مايروي الغليل أو يشفي العليل... فإن كان القوم لايملكون دليلاً ـ على مازعمه العماري ـ فإنّ خصومهم أفلس ودلائلهم أضمر...بلا كلام.

---

(١) المدثر: ٢٤.

(٢) الطور: ١٥.

(٣) إعجاز القرآن: ص١٤٤-١٤٦.

(٤) راجع رسالة الاسلام لسنتها الرابعة: العدد الأوّل ص٥٩- ٧٢.

شهادات و إفادات

لم تكن العرب لتجهل موضع الرسول(صلى الله عليه وآله) وصدقه وإخلاصه في دعوته. كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد لمسوا من حقيقة القرآن أنّه الكتاب الذي لا ريب فيه، وقد بهرهم جماله وحسن أُسلوبه وعجيب بيانه. نعم سوى حميّة جاهلية حالت دون الاستسلام للحقّ الصريح والاعتراف بصدق رسالته الكريمة. فلم تكن محاولاتهم تلك إلّا تملّصات هزيلة وتخلّصاً معوجّاً عن سحر بيانه وانفلاتاً من روعة جلاله وهيمنة كبريائه.

كانت قضيّة الإعجاز القرآني بدأت تفرض ثقلها على كاهل العرب، شاءت أم لم تشأ . وقد أدركت قريش من أوّل يومها ما لهذا الكلام السماوي من روعة وسحر وتأثير، ولم يكد يملك أي عربيّ صميم ـ إذ يجد ذوقه الأصيل سليقةً وطبعاً ـ إلّا أن يرضخ لأُبّهة بيانه الخارق، معترفاً بأنّه كلام الله وليس من كلام البشر:

الوليد بن المغيرة المخزومي:

هذا هو طاغية العرب وكبيرها الأسنّ وعظيمها الوليد بن المغيرة المخزومي يقول:

«يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي

جنونٍ. وإنّ قوله لمن كلام الله...»[١].

قاله على ملأ من قريش وذلك بعد أن سمع القرآن لأوّل مرّة، على أفواه المسلمين يرتّلونه ترتيلاً، فأعجبه قرآنه وبهرته جذبته.

وإنّ قريشاً لهابت تلك المفاجأة الخطيرة، ومن ثمّ تآمرت على أن تحول دون إشاعة النبأ، فقالوا: لئن صبا الوليد ـ وهو ذو حسب ومال ـ لتصبأنّ قريش كلها.

قال أبوجهل: أنا أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل على الوليد بيته، فقال له: ألم تر أنّ قومك قد جمعوا لك الصدقة! (يريد التأنيب عليه بأنّه إنّما قال كلامه الآنف طمعاً في المال) قال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبوجهل: يتحدّثون أنّك إنّما تدخل على اصحاب محمد (صلى الله عليه واله) لتصيب من طعامهم! قال الوليد: أقد تحدّثت به عشيرتي؟! فلا تقصر عن سائر بني قصيّ... فعزم أن لا يقرب أحداً من المسلمين بعد ذلك.

وله شهادة أُخرى نظيرتها، قالها عندما مّر على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يتلو في صلاته بضع آيات من سورة المؤمن، فانقلب الى مجلس قومه مندهشا قائلاً:

«والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق. وإنّه يعلو ولا يعلى عليه»[٢].

وفي رواية أُخرى ـ ذكرها القاضي عياض ـ: لمّا سمع الوليد بن المغيرة من النبيّ (صلى الله عليه وآله) يقرأ: «إنّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الإحسانِ وإيتاءِ ذِي

---

(١) تفسير الطبرى: ج ٢٩ ص ٩٨.

(٢) المعجزة الخالدة للسيد هبة الدين الشهرستاني: ص ٢١. والطلاوة ـ مثلثة الطاء ـ البهجة والنضارة. وأغدقت الأرض: أخصبت وابتلّت بالغدق وهو المطر الغزير.

الْقُرْبىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»[١] أعجبته فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، ماهذا بقول بشر[٢].

ورواها أبوحامد الغزالي ناسباً لها الى خالدبن عقبة، ولعلّه أخوالوليدبن عقبة بن أبي معيط. جاء الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: أقرأ عليّ القرآن! فقرأ عليه: «إنّ الله يأمُرُ بِالْعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي الْقُرْبىٰ».. الخ.

فقال له خالد: أعِد! فاعاد (صلى الله عليه وآله) فقال خالد: «والله انّ له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اسفله لمغدق، وان اعلاه لمثمر، ومايقول هذا بشر»[٣].

وهكذا جاء في الإصابة وفي الذيل «وماهذا بقول بشر». أمّا الإستيعاب وأُسدالغابة فتوافقان مع نسخة الغزالي.

قال أبوعمر: لاأدري هوخالدبن عقبة بن أبي معيط أو غيره وظنّي أنّه غيره[٤].

وأيضاً روى الحاكم بإسناده الصحيح، أنّ الوليدبن المغيرة جاء الى النبي (صلى الله عليه وآله) فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رقّ له، فبلغ ذلك أباجهل فأتاه فقال: يا عم، إنّ قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال الوليد: لِمَ؟ قال: ليعطوكه، فإنّك أتيت محمداً لتتعرّض لما قِبلَه! قال: قدعلمت قريش أنّي من أكثرهم مالاً. قال أبوجهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الشفا للقاضي عياض: ص٢٢٠. وراجع الشرح للملا علي القارئ: ج١ ص٣١٦.

(٣) إحياء العلوم: باب تلاوة القرآن ج١ ص٢٨١ ط١٣٥٨.

(٤) الاصابة لابن حجر: ج١ ص٤١٠. والإستيعاب بهامشه: ج١ ص٤١٢. واسدالغابة لإبن الأثير: ج٢ ص٩٠.

كـاره له. قال: وماذا أقول، فوالله مـا فيكـم رجل أعلم بـالأشعار منّي ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منّي ولا بأشعار الجنّ، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا. «ووالله إنّ لقوله الذي يقول حلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغـدق أسفلـه، وإنّه ليعلوومـا يعلى، وإنّه ليحطّـم (أوليحكـم) ماتحتـه». قال أبوجهل: لايرضى عنك قومك حتى تقـول فيه. قال: فدعني حتى أفكـر، فلمّا فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً»[1].

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري[2].

وهكذا ائتمـروا فيا يصنعون عنـدما تفدالعرب في مواسم الحج فيستمعوا الى قرآنه فيـنـجذبون إليـه انجـذاباً. فتوافقـوا على أن يترصّدوا لقـبائل العرب عـند وفودها للحجّ في مداخـل مكة، ويأخذوا بسبل الناس، لايمرّبهم أحد إلّا حذّروه من الإصـغاء الى مـايـقولـه محمـدبـن عبـدالله (صلى الله عليـه وآله) فيـقولـوا: إنّه لسحريفرق به بين المرء وأخيه وأبيه وبين المرء وزوجه و ولده وعشيرته!

كـان الـوليد قد حضر المـوسـم فاستغلّت قـريش حضـوره فاستماروه بشأن دعوة محمد (صلى الله عليه وآله) فـأشار عليهم بتهمة السحر لمّا لم يجدوا سبيلاً الى رميه بجنون أو شعر أو كهانة!

قـال: يا معشـر قريش، إنّه قـد حضر هذا الموسـم، وإنّ وفود العـرب ستقدم عليكم فـيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ويردّقـولـكم بعضه بعضاً!

قالوا: فأنت يا أباعبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا، أسمع. قالوا: نقول: كاهن!

---

(١) المدثر: ١١.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٥٠٧. وراجع الدرالمنثور: ج ٦ ص ٢٨٣، وجامع البيـان للطبري: ج ٢٩ ص ٩٨.

قال: لا والله ماهو بكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه[١].

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما بخنقه[٢]. ولا تعالجه ولا وسوسته.

قالوا:فنقول: شاعر، قال: وما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ماهو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم[٣].

قالوا: فما نقول يا أباعبد شمس؟

قال: «والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ أصله لعَذق[٤]، وإنّ فرعه لجناه وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عرف أنّه باطل». وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحرجاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته،وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لايمرّبهم أحد إلّا حذّروه إيّاه، وذكروا لهم أمره[٥].

وكانوا إذا رفع النبيّ(صلى الله عليه وآله)صوته بالقرآن، جعلوا يصفّقون ويصفّرون ويخلطون بالكلام لئلّا تسمع قراءته. «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُوا لِهَٰذا الْقُرآن وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»[٦].

---

(١) زمزمة الكاهن: رنة صوته عند قراءة الاوراد على نحو ماتفعله الفرس عند شرب الماء من صوت مصيصة..

(٢) خنق الجنون: كناية عن بحة صوته. وتعالجه: تعاطيه امورا غير منتظمة كناية عن هذيه.

(٣) إشارة الى ماكان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه أي ينفخ مايدمدمه من اوراد.

(٤) قال السهيلي: العذق بفتح العين النخلة. استعارة من النخلة التي ثبت أصلها وقوي، وطاب فرعها إذا اجني أي اقتطف ثمرها. (الروض الأنف: ج ٢ ص ٢١).

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٦) فصّلت: ٢٦.

قال ابن عباس: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. قال: بالتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا قرأ القرآن، قريش تفعله[١].

الطفيل بن عمرو الدوسي:

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي شاعراً لبيباً من أشراف العرب، كان قد قدم مكّة ورسول الله (صلى الله عليه وآله) بها. فمشى إليه رجال من قريش، وقالوا له: يا طفيل، إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا[٢] وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا، فلا تكلّمه ولا تسمعن منه شيئاً.

وكانت قريش قد تخوّفت من إسلام الطفيل، الشاعر المفلّق، وللشعر عند العرب مكانة سامية، فإذا أسلم اندفعت العرب وراءه.

قال الدوسي: فوالله مازالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئاً ولا أُكلّمه، حتّى حشوتُ في أُذني حين غدوتُ الى المسجد كرسفاً، فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

قال: فغدوت الى المسجد وإذا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قائم يصلّي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلّا أن يسمعني بعض قوله: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إنّي لرجل لبيب شاعر مايخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحاً تركته.

---

(١) الدر المنثور للسيوطي: ج ٥ ص ٣٦٢- ٣٦٣.
(٢) أي أوجد معضلة فينا، والمعضلة هي المشكلة.

قال: فتبعته الى بيته، وحدّثته الحديث، وقلت: له: فاعرض عليّ أمرك! قال: فعرض (صلى الله عليه وآله) عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن. «فلا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه» فأسلمت وشهدت شهادة الحقّ... فرجع الى قومه وكان داعية الإسلام، وأسلمت معه قبيلة دوس[١].

هذه شهادة شاعر لبيب له مكانته عند العرب وله معرفته وذوقه وسليقته، جذبته روعة كلام الله وقلبته من كافروثنيّ مشرك الى داعية من دعاة الإسلام!

النضربن الحارث:

كان أبوجهل قد أزمع على أن ينال من محمد (صلى الله عليه وآله) فأخذ حجراً وجلس ينتظر قدومه (صلى الله عليه وآله) حتى إذا جاء وقام للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود جاعلاً الكعبة بينه وبين الشام. فلمّا سجد احتمل أبوجهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنى منه رجع منهزماً منتقعاً لونه[٢] مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده. فقامت إليه رجال من قريش وقالوا له: مالك يا أباالحكم، قال: قمت إليه لأفعل به ماقلت لكم البارحة- وكان قد عاهد الله ليفضخنّ رأسه بحجر ما أطاق حمله[٣]- فلمّا دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لاوالله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته[٤] ولا أنيابه لفحل قط، فهمّ بي أن يبتلعني!

فلما قال لهم ذلك أبوجهل، قام النضربن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبدمناف وكان من رؤساء قريش، فقال: يا معشر قريش، إنّه والله قد نزل بكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٢١- ٢٥. وأُسدالغابة: ج ٣ ص ٥٤.

(٢) انتقاع اللون: تغيّره. (٣) الفضخ: الشدخ والكسر. (٤) القصرة- بفتحتين- اصل العنق.

فيكم، وأصدقكم حديثاً، واعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بماجاءكم به، قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قدرأينا الكهنة وتخالجهم[١] وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر! لاوالله ماهو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا اضنافه كلّها، هزجه ورجزه وقلتم: مجنون! لا والله ما هوبمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه قال: يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنّه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

قال ابن هشام: وكان النضر هذا من شياطين قريش وكان ممّن ينصب العداء لرسول الله (صلى الله عليه وآله)[٢] ومن ثم لم تكن شهادته تلك اعترافاً بصدقه، ولا إيماناً بكتابه، وإنّما هي إثارة لشحناء قريش وتأليباً لعدائهم نحو دعوة الإسلام.

وسنأتي على بعض مواقفه التعنّتيّة مع رسول الإسلام (في فصل القرعات). وقع اسيراً يوم بدر، فقتله رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيمن قتله صبراً[٣].

عتبة بن ربيعة:

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال:

حدّثت أنّ عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم الى محمد فأُكلّمه وأعرض عليه أُموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه

---

(١) التخالج: هواجس نفسيّة مضطربة.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢١. (٣) الدر المنثور: ج ٣ ص ١٨٠.

أيّها شاء، ويكفّ عنها؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا ابا الوليد، قم إليه فكلّمه. فقام إليه عتبة حتى جلس الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال:

يا ابن أخي، إنك منّا حيث قد علمت من السطة[١] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم[٢] وعيّبت به آلهتم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أُموراً تنظر فيها، لعلّك تقبل منها بعضها!

فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قل يا أبا الوليد، أسمع!

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً، سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا...

قال: وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه[٣] لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التابع[٤] على الرجل حتى يداوى منه!

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم! قال (صلّى الله عليه وآله): فاسمع منّي! قال عتبة أفعلُ!

فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقرأ من مفتتح سورة فصّلت:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرحمانِ الرَّحِيمِ. كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذيراً...» فمضى (صلى الله

---

(١) سطة كعدة مصدر محذوف الفاء مأخوذ من الوسط بمعنى الشرف، يقال وسط في حسبه أي صار شريفا.

(٢) الحلم: العقل. (٣) الرئي: مايتراءى للإنسان من الجنّ. (٤) التابع: من يتبع الإنسان من الجنّ.

عليه وآله) يقرأها عليه، وهو منصت لها.

قال: وكان عتبة ينصت لقراءته (صلى الله عليه وآله) وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أباالوليد ما سمعت؟ فأنت وذاك!

فقام عتبة الى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلمّا جلس إليهم قالوا: ماوراءك ياابا الوليد؟

قال: ورائي أنّي قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطّ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة!

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أباالوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا مابدا لكم[1].

وهي أيضا شهادة ضافية من كبار قريش وزعماء العرب وسادتهم.

أُنيس بن جنادة:

هو أخو أبي ذرالغفاري، كان أكبر منه، وكان شاعراً معارضاً يفوق أقرانه عندالمعارضة. ينبئك عن ذلك حديث إسلام أخيه أبي ذر جندب بن جنادة، قال: والله ماسمعت بأشعر (أي أكثر شعراً وأحسن نظماً) من أخي أُنيسَ، لقد ناقضَ (أي عارَضَ) اثني عشر شاعراً من معاريف شعراء الجاهلية، فغلبهم، وكان قاصداً مكة فقلت له: فليستخبر من حال رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣١٣-٣١٤.

فراث عليّ أي أبطأ، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال:

«لقيت رجلاً بمكة على دينك ـ (إذ كان أبوذر يصلّي الى ربه منذ ثلاث سنين)ـ يزعم أنّ الله أرسله».

قلت: فما يقول الناس؟ قال: «يقولون شاعر، كاهن، ساحر»، قال أبوذر: ـوكان أُنيس أحد الشعراءـ قال انيس: «لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر! والله إنّه لصادق، وإنّهم لكاذبون..»..

قوله: أقراء الشعر أي أوزانه وقوافيه[١].

ثلاثة من أشراف قريش يتسلّلون بيت الرسول:

كانت قريش ربّما تتسلّل ليلاً الى استماع القرآن من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو أحد أصحابه، لترى ما في هذا الكلام من سرّالتأثير. فقد اتّفق أنّ أباسفيان بن حرب[٢] وكذا أبوجهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفي وكان لمّاذاً خبيثاً يتظاهر بغير ما يبطنه، خرجوا ليلاً الى بيته (صلى الله عليه وآله) من غير أن يعلم كلّ بصاحبه. فجلس كلّ واحد في مخبئه لا يعلم به أحد حتى مطلع الفجر، يستمعون الى قرآنه وهو قائم يصلّي في بيته (صلى الله عليه وآله) وعند الصباح أخذ كلّ منهم طريقه الى بيته حتى إذا جَمَعهم الطريق، فشلوا وتلاوموا، وقال بعضهم لبعض، لا تعودوا لمثل ذلك، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً وكان ذلك تأييداً لموضع محمد (صلى الله عليه وآله) ثم

---

(١) الشفا للقاضي عياض: ص٢٢٤. وشرح الشفاء للملّا علي القاريّ: ج١ ص٣٢٠ ط اسلامبول ١٢٨٥. وراجع صحيح مسلم: ج٧ ص١٥٣. والمستدرك للحاكم: ج٣ ص٣٣٩. والاصابة: ج١ ص٧٦ وج٤ ص٦٣.

(٢) ويروى مكان أبي سفيان، الوليدبن المغيرة. قال الرفاعي: وهؤلاء الثلاثة من بلغاء قريش الذين لايعدل بهم في البلاغة أحد.. (إعجاز القرآن)ـ في الهامش- ص٢١٣.

انصرفوا، ولكن من غير أن ينقضي عجبهم أو يرتوي ظمؤهم الى استماع هذا الكلام السحريّ العجيب، ومن ثمّ عادت مسيرتهم في الليلة الثانية والثالثة، وفي كلّ ليلة يفتضحون عندالصباح، حتى تعاهدوا فيما بينهم أن لايعودوا أبداً.

وفي صباح اليوم الثالث جاء الأخنس الى أبي سفيان يسترئيه فيما سمعه من محمد(صلى الله عليه وآله) فقال: «والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا مايراد بها!» فقال الأخنس وأنا كذلك، والذي حلفت به!

ثمّ رجع الى أبي جهل ودخل عليه وقال: يا أباالحكم، مارأيك فيما سمعت من محمد(صلى الله عليه وآله)فقال: ماذا سمعتُ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الرُّكب وكنّا كفرسي رهان!

والآن قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لانؤمن به أبداً ولا نصدّقه. فقام عنه الأخنس وتركه![1].

هكذا تحكّم الحسد والعصبيّة في نفوس قريش، فحال دون قبولهم للحقّ الصريح، فأخزاهم الله.

«قُلْ موتوا بِغَيْظِكُم»[2]. «كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»[3].

فصحاء قريش تحاول معارضة القرآن:

ذكر أبوالحسن ابن رشيق القيرواني (توفي سنة ٤٥٦) بشأن مايعين على جيّد الشعر ـ وأنّ الطعام الطيّب، والشراب الطيّب، وسماع الغناء ممّا يرقّ الطبع، ويصفّي المزاج، ويعين على الشعر ـ : أنّ قريشاً لمّا أرادت معارضة

---

(١) ابن هشام: ج ١ ص ٣٣٧ـ ٣٣٨. (٢) آل عمران: ١١٩ (٣) المجادلة: ٢١.

القرآن، عكف فصحاؤهم الـذين تعاطوا ذلك على لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة الى أن بلغوا مجهودهم. فلمّا سمعوا قول الله عزّوجل «وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ،ويَاسمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالمِينَ» يئسوا ممّا طمعوا فيه، وعلموا أنّه ليس بكلام مخلوق ...[١].

وفي المجمع: فلمّا اخذوا فيا أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام ولايشبه كلام المخلوقين، وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا...[٢].

قال الزمخشري: ولما اشتملت عليه الآية من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما قوله (ابلعي) و(أقلعي) وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بازاء تلك المحاسن التي هي اللّبّ وماعداها قشور...[٣].

سنأتي على محاسن الآية ودقائق مزاياها ـ بتقرير من جهابذة الفن ـ عند ذكر الشواهد على النكت البلاغيّة في القرآن، في فصل قادم إن شاء الله.

جذبات وجذوات[٤]

«اللهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كتاباً مُتَشابهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلىٰ ذِكْرِ الله ذٰلكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ»[٥].

---

(١) العمدة لابن رشيق: ج١ ص٢١١. (٢) مجمع البيان: ج٥ ص١٦٥.

(٣) الكشاف: ج٢ ص٣٩٨.

(٤) من تلك الجذوة التي جذبت موسى عليه السلام نحو الشجرة «فَلَمّا أتَاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ المباركةِ مِنَ الشّجَرَةِ أن يا مُوسى إنّي أَنَا اللهُ رَبُّ العالمين» القصص: ٣٠.

(٥) الزمر: ٢٣.

نعم هو أحسن حديث سمعته العرب بل البشرية جمعاء، كتاباً متشابهاً، لا يختلف أُسلوبه في التعبير والأداء، في أبدع لفظ وأفخم معنى، في روعة وأناقة وإكبار، لا يختلف أوّله عن آخره ولا أطرافه عن وسطه.

مثاني، تتكرّر قراءته من غير ملل ولا كسل، بل هو المسك ما كرّرته يتضوّع.

إنّها الأنفس البشريّة تهتزّ وجداً عند استماعه، وتطرب خفّة عند تلاوته، إنّها جذبة روحيّة تنجذب النفس انجذاباً من داخلها حيث جذوات الروح الملتهبة وليس وَهْماً أو خيالاً شعرياً في تيه الهيام.

«إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»[١].

نفوس مستعدّة:

«كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»[٢].

نعم، تلك قلوب واعية تتفتّح مسارها تلقاء آيات الذكر الحكيم، لا لشيء سوى أنّها نفوس مستعدّة صنعها خالق السماء وهاهي كلماته المشرقة وجدت مواضعها فهبطت إليها.

«وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشاهدين وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ»[٣].

وفد نصارى نجران:

جاءت ركب النصارى عشرون رجلاً أو قريب من ذلك، الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو بمكة، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما

---

(١) ق: ٣٧. (٢) فصلت: ٣. (٣) المائدة: ٨٣.

فرغوا من مسألة رسول الله(صلى الله عليه وآله) عما أرادوا، دعاهم رسول الله(صلى الله عليه وآله) الى الله عزّ وجل و تلا عليهم شيئاً من القرآن، فإذا هم لمّا سمعوا القرآن-فاضت أعينهم من الدّمع، فاستجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه وعرفوا من أمره ما قد وصفت لهم كتبهم.

ولمّا قاموا عنه اعترضهم أبوجهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيّبكم الله من ركب! بعثكم من وراء كم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بماقال! مانعلم ركباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ماأنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً[1].

قيل: ونزلت فيهم: «الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ من قبله هُم به يؤمنون. وإذا يُتلى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنّا بِهِ إنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّنَا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُوْلئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَين بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمّا رَزَقناهُمْ يُنْفِقُونَ. وَإذا سَمِعوا اللَّغْوَ أَعْرَضوا عَنْهُ وقَالُوا لَنا أعمالُنا وَلَكُمْ أعمالكم سلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلينَ»[2][3].

سويد بن الصامت الشاعر:

وقدم سويد بن الصامت، أخو بني عمرو بن عوف (وكان ابن خالة عبدالمطلب) مكة حاجّاً أو معتمراً، وكان سويد يسمّيه قومه: الكامل، لجَلَده وشعره[4] وشرفه ونسبه، وكان له علم بكتب السالفين. فتصدّى له رسول الله

---

(١) أي لم نقصر لأنفسنا في مكسبة الخير والصلاح.

(٢) القصص: ٥٢-٥٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣٢.

(٤) ومن شعره الرقيق قوله:

ألا ربّ من تدعو صديقاً ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يفري

مقالته كالشهد ما كان شاهداً ... وبالغيب مأثور على ثُغرة النحر

←

(صلى الله عليه وآله) حين سمع به، فدعاه الى الله والى الإسلام. فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما الذي معك؟ قال: مجلّة لقمان -يعني صحفا فيها حكمة لقمان-[1]. فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) اعُرضها عليّ، فعرضها عليه. فقال له: إنّ هذا الكلام حسن. والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) القرآن و دعاه الى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إنّ هذا لَقَوْلٌ حسن. ثم انصرف عنه وقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج. وكان رجال من قومه يقولون: إنّا لنراه قد قتل وهو مسلم[2].

إسلام سعد وأسيد:

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد بعث مصعب بن عمير بن هاشم مع وفد الأنصار (الذين بايعوا رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلة العقبة الأُولى على نبذ الشرك واجتناب المحارم) وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فنزل على أبي امامة أسعد بن زرارة بن عدس، فكان يصلّي بالقوم، لأنّ أوساً وخزرجاً كره بعضهم أن يؤمّه بعض.

واتفق أنّ أسعد خرج بمصعب، يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر

يسرّك باديه وتحت أديمه ... نميمة غش تبتري عقب الظهر
تبين لك العينان ما هو كاتم ... من الغلّ والبغضاء بالنظر الشزر
فرشني بخير طالما قد بريتني ... فخير الموالي من يريش ولا يبري

قوله: مأثور، هو السيف الموشى. ويقال: راشه اي قوّاه. وبراه أي أضعفه.

(سيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٦٧).

(١) قال السهيلي: ولقمان هذا كان نوبيّاً (من أهل توبة) من أهل ايلة، وهو لقمان بن عنقاء فيما ذكروا. وابنه الذي يذكره القرآن هو ثاران فيما ذكر الزجّاج وغيره.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٦٨.

فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، على بئر يقال لها: بئر مرَق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم.

وكان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، يومئذ سيّدي قومهما من بني عبدالأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه. فلمّا سمعا به قال سعد لأُسيد: لا أباً لك، انطلق الى هذين الرجلين اللذين أتيادارينا ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيادارينا، فإنّه لولا أنّ أسعد منّي حيث عرفت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

فأخذ أُسيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد، قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلّمه.. فوقف أُسيد عليهما مشتّماً، فقال: ماجاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإنْ رضيت قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ماتكره! قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما.

فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأعليه القرآن.

قالا (أي أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير): فوالله لقد عرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلّم، في إشراقه وتسهّله!

ثمّ قال أُسيد: ما أحسن هذاالكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له تغتسل فتطهر وتطهّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقّ، ثم تصلي، ففعل وركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ...

ثم أخذ أُسيد بن حضير حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقدجاءكم أُسيد

بغيرالوجه الذي ذهب به.

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين، فوالله مارأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدّثت انّ بني حارثة قد خرجوا الى أسعدبن زرارة ليقتلوه، وذلك أنّهم قدعرفوا أنّه ابن خالتك، ليخفروك [١].

فقام سعدبن معاذ مغضباً مبادرا، تخوفًا للذي ذكر له. فأخذ الحربة من يد أُسيد وقال: والله ما أراك أغنيت شيئاً! ثمّ خرج إليهما، فلمّا رآهما سعد مطمئنّين، عرف أنّ اسيد إنّما أراد منه أن يسمع بنفسه منهما، فوقف عليهما متشتّماً، وقال لأسعدبن زرارة: يا أباامامة أما والله، لولا مابيني وبينك من القرابة مارمت هذا منيّ، أتغشانا في دارنا بما نكره!

فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع... الى آخر ماذكره لأُسيد.

فرغب سعد في الإسلام كأخيه أُسيدوفعل مثل مافعل وشهد الشهادتين.

ثمّ أقبل عائداً الى نادي قومه ومعه أسيدبن حضير، فلمّا وقف على القوم، قال: يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً!

قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلّا مسلماً ومسلمة [٢].

بكاء النجاشي:

وفي الهجرة الأُولى الى أرض الحبشة، أرسل إليهم النجاشي يستخبر

---

(١) الإخفار: نقض العهد والغدر. وفي نسخة: ليحقروك بالحاء المهملة والقاف من التحقير.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٢ ص٧٧ـ ٨٠.

أحوالهم، فتقدّم جعفربن أبي طالب، وكان لسان القوم، وقال: أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام،ونسيء الجار، ويأكل القوي الضعيف، فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله- الى أن قال-: فلمّا ضيّقت علينا قريش وحالت بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك شيء ممّا جاء به عن الله؟

قال جعفر: نعم. قال: فاقرأه عليّ!

فقرأ جعفر صدراً من سورة الشورى:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. حم. عسق. كَذٰلِكَ يُوحِي إلَيْكَ وَإلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ ما فِي السَّماوَاتِ وما في الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكادُ السماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلَا إنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

فلمّا استمع النجاشي الى هذا الترنّم المرهف، بكى بكاءً شديداً حتى اخضلّت لحيته، وبكت الأساقفة الذين كانوا حضوراً وكانت صحفهم بين أيديهم وقد ابتلّت بدموعهم، حينما سمعوا ما تلي عليهم من آيات الذكر الحكيم.

ثم قال لهم النجاشي: إنَّ هذا وماجاء به المسيح ليخرجان من مشكاة واحدة، وذكر ابن هشام أنّه أسلم ومات مسلماً وصلّى عليه النبيّ (صلى الله عليه وآله)واستغفر له[1].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص٣٥٩- ٣٦٥.

قـرعات وقمعـات

لم تكن قرعات كـلامه تعالى القامعة بأقلّ تأثيراً في نفوس كافرة مضطربة، من جذبات جذواتـه لنفوس مؤمـنة مطمئـنـة، وإن كانت قريش لتمجّ من سماع القرآن وتتنـفّر منه نفـرةَ الوحش عند اصطيـاد! «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة»[1].

«وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِـي هذا الْقـرآن لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزيدُهُمْ الا نفُوراً»[2].

«وَإذا ذَكَرْتَ رَبَّـكَ فِـي القـرآن وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أدبارِهم نُفُوراً»[3].

«تِلْكَ آيـاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَق فَبأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وآيـاته يُؤْمِنُونَ. وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاك أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيـاتِ الله تُـتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَـا فَبَشِّرْهُ بِـعَذاب أَلِيمٍ. وَإذا عَـلِمَ مِنْ آياتنا شَيْئاً اتَّـخَذَهـا هُزُواً أُوْلئِكَ لَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ. مِـنْ وَرَائِهِمْ جَـهَنَّمُ وَلا يُغْنِـي عَنْـهُمْ مَا كَسَبُـوا شَيْئـاً وَلا مَا اتَّـخَذُوا مِـنْ دُونِ الله أَوْلِيَـاءَ وَلَهُـمْ عَـذابٌ عَظِيـمٌ. هَذا هُـدىً والَّذيـنَ كَفَرُوا بِآيـات رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ»[4].

انظـر الى وقعـات هذا الـكـلام الـدامـغة، إنّـها شـديـدة، تـدهش وتـذهل وتذيب:

---

(١) المدثر: ٥٠ـ٥١.   (٢) الاسراء: ٤١.   (٣) الاسراء: ٤٦.   (٤) الجاثيه: ٦ـ١١.

.. ويلٌ لكلّ أفّاك أثيم!
.. فبشّره بعذاب أليم!
.. أُولئك لهم عذاب مهين!
.. من ورائهم جهنّم ولايغني عنهم ماكسبوا شيئا!
.. ولهم عذاب عظيم!
.. لهم عذاب من رجز أليم!

ستّ قرعات متتالية على رأس مستكبر أصرّ على استكباره كأن لم يسمعها!

لم تكن العرب الواهنة القوى، المتجزئة الأشلاء يومذاك، لتطيق تحمّل هكذا قرعات عنيفة متتابعة شديدة، ومن ثمّ كان اللجوء الى تولول وصراخ وصياح..!

استمع الى الآيات التالية، ثم قايس بين وقعاتها ونفوس منهارة كانت تحاول كفاح القرآن!

«يَوْمَ تكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهنِ. وَلا يَسأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْيَفْتَدِى مِنْ عَذابِ يَوْمِئذٍ بِبَنِيهِ. وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ»[1].

«فَيَومئذٍ وَقَعت الواقِعةُ. وانْشَقّت السَّماء فَهيَ يَومئذٍ واهيةٌ. والمَلَكُ على أرْجائِها وَيَحمِلُ عَرْشَ رَبّكَ فَوقَهمْ يومئذٍ ثَمانيةٌ. يَومئذٍ تُعرَضُونَ لاتَخفىٰ مِنكم خافِيةٌ. فَأمّا مَن أُوتى كتابَهُ بيمينِهِ فيقولُ هاؤُم اقرأوا كتابيه إنّى ظَننْتُ انّي مُلاقٍ حِسابيه. فَهو في عِيشةٍ راضيةٍ. في جَنّةٍ عاليةٍ. قطوفُها دانيةٍ. كُلُوا واشْرَبُوا هَنيئاً بما اسْلَفْتُم في الأيّامِ الخاليةِ. وأمّا مَن أُوتى كِتابَهُ بِشِمالِه فَيقُولُ يا لَيتَنى لَم أُوتَ كِتابِيه. وَلَم أدرِ ما حِسابِيَه. ياليَتَها كانَت القاضِية. ما أغنى عنّى مالِيه. هَلَكَ عَنّى

---

(١) المعارج: ٨-١٤.

سُلطانِيه»[١].

«واصبِر على ما يَقولونَ واهجُرهُم هَجراً جميلاً. وذَرني والمُكذّبين أُولي النَّعمَة ومَهِّلهم قَليلاً. إنَّ لَدَينا أنكالاً وجَحيماً وطعاماً ذاغصّةٍ وعَذاباً أليماً»[٢].

الى غير هنّ من آيات ذوات الجرس الرنّان، وفي تقطيعات متقاربة ومتوازنة، تشبه قرعات الحدّادين المتواصلة ولا سيّما في نفوس آثمة ارتكبت مآسي واجراما.

أُمّ جميل حمّالة الحطب:

هذه امّ جميل العوراء امرأة أبي لهب، تسمع ما نزل فيها وفي زوجها، فتخرج مولولة صارخة كالمجنونة، تعوي في طرقات مكة، وتقول: إنّ محمداً هجاني، وتستنجد بالشعراء أن يهجو محمداً كما هجاها. فيخفّ إليها بعضهم، ويلقّنها هذا الشعر:

مذمّما عصينا. وأمره أبينا. ودينه قلينا [٣].

فقصدت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو في المسجد ومعه بعض أصحابه، وفي يدها فهر من حجارة، فلمّا وقفت عليه أخذالله ببصرها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلا ترى إلّا أبابكر فقالت: أين صاحبك، فوالله لووجدته لضربت فاه بهذا الفهر. ثم انشدت الشعر محابية، وانصرفت[٤].

---

(١) الحاقة: ١٥-٢٩.

(٢) المزمل: ١٠-١٣.

(٣) الإعجاز في دراسات السابقين: ص ٧٥.

ومذمّم، كناية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان المشركون يسمّونه بذلك، كراهية تسميته باسمه الشريف (محمّد). قال (صلى الله عليه وآله): «ألا ترون الى مايدفع الله عني من أذى قريش، يشتمون ويهجون مذمّما، وأنا محمد؟!» (الروض الأنف: ج ٢ ص ١١٤- ١١٥).

(٤) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٨١- ٣٨٢. وفي نسخة الروض: لشدخت رأسه بهذا الفِهر. والفِهر حجارة ملؤ الكف مؤنثة، وتصغيرها فهيرة. ووقع هنا مذكّراً.

أمية بن خلف:

وكان امية بن خلف (من أثرياء قريش) كلّما رآى رسول الله (صلى الله عليه وآله) همزه ولمزه[١] فنزلت:

«بسم الله الرحمن الرحيم. وَيلٌ لِكلِّ هُمَزَةٍ لُمزة. الّذي جَمعَ مالاً وعَدَّدهُ. يَحسَبُ أنّ مالَهُ أخْلَده. كلّا لينبذنَّ في الحُطَمَةِ. وما أدراكَ ما الحُطَمَة. نارُاللهِ الموقَدة. الّتي تَطَّلِعُ على الأفئدةِ. إنّها عليهم مُؤصَدة. في عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ»![٢] [٣].

العاص بن وائل:

وكان العاص بن وائل السهمي ممّن أعجب بنفسه مستهزئاً بمواقف أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله) في أناتهم وصبرهم على الأذى، ولا سيّما المنقطعين عن أهليهم لا عشيرة لهم في مكة ولا ثروة، فقد كان الخبّاب بن الأرت قينا[٤] بمكة يعمل السيوف وكان من الأصحاب المؤمنين. وكان له مال على العاص بن وائل قيمة سيوف باعها منه، فجاء يتقاضاه.

فقال له العاص: يا خبّاب، أليس يزعم صاحبكم أنّ في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضّة وثياب وخدم! فانظرني الى يوم القيامة، حتى ارجع الى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك فوالله، لا تكون أنت وصاحبك يا خبّاب آثر عندالله منّي، ولا أعظم حظّا في ذلك. فنزلت:

«أفَرأيتَ الّذي كَفَر بآياتِنا وقالَ لأُوتَينّ مالاً ووَلَداً. أطَّلعَ الغَيبَ أم اتّخذَ عِندالرحمانِ عَهداً. كَلّا سَنكتُبُ ما يَقولُ ونَمُدُّلَه مِن العَذابِ مَدّاً. ونَرِثُه مايَقولُ ويَأتينا فَرداً. واتّخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهةً لِيكونوُالَهم عِزاً. كلاّ سَيكفُرونَ بِعبادَتهم

(١) الهمز: الغمز. واللمز: التعييب.

(٢) الهمزة: ١-٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٨٢.

(٤) القين: الحدّاد.

ويكونونَ عَليهم ضِداً. ألم تَرَ أنّا أرسَلنا الشّياطِينَ على الكافِرينَ تَؤزّهُم أزّاً. فَلا تَعجَل عَليهم إنما نَعدُّ لَهم عَدّاً»[١].

إنّها قرعات عنيفة وصواعق مرعدة، تدمّر من بقايا أشلاء مبعثرة، خلّفتها أجساد كافرة، لا تطيق تحمّلها ولا تستطيع المقاومة تجاه هجمتها، إلّا الاندمار والاندثار «فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّـى نَسْفاً»[٢].

إنّها لم تخص العاص بن وائل ـ إن صحّ الحديث ـ ولا غيره من عتاة قريش فحسب وإنّما هدفت وهبّت لتذرّ كلّ دعائم الكفر والإلحاد على مرّ الزمان. (والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد).

النضر بن الحارث:

وتقدّم بعض الحديث عن مواقف النضر بن الحارث، كان من عتاة قريش ومن شياطينهم، كان قد تعلّم بعض أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم واسفنديار) وكان يقصّها على جهلاء العرب ليستحوذ عليهم، ويلهيهم عن حديث الإسلام وذكريات القرآن.

كان إذا جلس رسول الله (صلى الله عليه وآله) مجلساً يدعو فيه الى الله ويتلو فيه القرآن، ويحذّر قريشا ممّا أصاب الأُمم الخالية... خلفه النضر في مجلسه إذا قام عنه، فحدّثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس، ثمّ يقول والله ما محمد بأحسن حديثاً منّي، وما أحاديثه إلّا أساطير الأوّلين اكتتبها كما اكتتبتها. قيل: وبذلك جاءت الاشارة في الآية الكريمة «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوّلينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً»[٣].

قيل: ونزلت فيه: «إنّ رَبّكَ هُو أعلَمُ بمن ضَلَّ عَن سَبيلِه وهُو أعلَم بالمُهتَدين. فَلا تُطِع المكَذّبين. ودُّوا لَوْتُدهِن فيُدهِنون. ولا تُطِع كُلَّ حَلّافٍ

---

(١) مريم: ٧٧-٨٤ (٢) طه: ١٠٥ (٣) الفرقان: ٥.

مَهينٍ. هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنميمٍ. مَنّاعٍ للخَيرِ مُعتَدٍ أثيمٍ. عُتُلٍّ بَعد ذلكَ زَنيمٍ. أنْ كانَ ذامالٍ وبنينَ. إذا تُتلىٰ عَليهِ آياتُنا قالَ أساطِيرُ الأوّلينَ. سَنَسِمُه على الخُرطومِ. إنّا بَلوناهُم كَما بَلَونا أصحابَ الجَنّة إذْ أقسَموا لَيَصرِمُنّها مُصبِحينَ. وَلا يَستَثنونَ. فَطافَ عَليها طائِفٌ مِن رَبّكَ وَهُم نائِمونَ. فَاصْبَحَتْ كَالصَريمِ»[1].

إن لوقع هذه الآيات الشديد لتأثيراً بالغاً في نفوس مضطربة لا تؤمن بالله العظيم! وكذلك آيات مرّت بهذا الشأن، قيل: نزلت تفريعاً عنيفاً بمن يحادد الله ورسوله:

«ويل لكلّ أفّاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم»[2][3].

قيل: ونزلت فيه قوله تعالى: «واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشأ لقلنا مثل هذا، إن هذا الآ أساطير الأولين»[4].

وقع اسيراً يوم بدر فقتله رسول الله (صلى الله عليه وآله) صبراً نقمة على المشركين[5].

جُبَيْر بن مُطْعِم:

كان من أشراف قريش ومن علمائهم بالأنساب وطالما بغى على الإسلام والمسلمين ونال من الوقيعة بهم. وهو الذي دعا غلامه الحبشي الذي كان يدعى «وحشيّاً» وكان قذّافاً بحربةٍ له قَذْفَ الحبشة، قلّما يخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عمّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) بعميّ (طعيمة بن عدي) فأنت عتيق[6].

---

(١) القلم: ٧ ـ ٢٠. (٢) الجاثية: ٧ـ٨. (٣) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٨٤.

(٤) الأنفال: ٣١. (٥) الدر المنثور: ج ٣ ص ١٨٠. (٦) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٦٥.

فخرج وحشيّ مع قريش حتى كان يوم أُحد، يقول: فلمّا التقى الناس خرجت أنظر حمزة واتبصّره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأروق يهدّ الناس بسيفه هَدّاً، مايقوم له شيء وإنّي لأتهيّأ له، أُريده وأستتر منه بشجر أو حجرٍ ليدنو منّي، حتى إذا دَنى، وهززت حربتي ودفعتها عليه فوقعت في ثُنّته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته حتى إذا مات، ثم أتيته فأخذت حربتي... فلمّا قدمت مكة أعتقني جبير على صنيعي[1].

وبعد الفتح هرب وحشي الى الطائف، ثم قدم المدينة وتظاهر بالإسلام، ولما علم به النبيّ (صلّى الله عليه وآله) قال له أوحشيّ؟ قال: نعم. قال: ويحك، غيّب عنّي وجهك، فلا أرينّك. فتغيّب عنه في البلاد.

قال ابن هشام: لم يزل وحشيّ يحدّ في الخمر حتى خلع اسمه من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أنّ الله لم يكن ليدع قاتل حمزة[2]

وبذلك تعرف موضع الرجل (جبير) من إيجاع قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله) والنكاية بالإسلام.

وهذا الرجل على جفائه وقساوة قلبه وغيظه على الإسلام، لمّا سمع النبيّ (صلى الله عليه وآله) يقرأ في صلاته بالطور، لان قلبه وشفّت مساربه لدخول الإسلام.

وذلك عند ما أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله) في فداء أُسارى بدر، فلم يجب النبيّ (صلى الله عليه وآله) طلبه، وقال له: لوكان أبوك حيّاً وكلّمني فيهم لوهبتهم له[3].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٧٦. (٢) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٧٧.

(٣) الإصابة: ج ١ ص ٢٢٦. وفي أُسد الغابة: ج ١ ص ٢٧١: «لوكان الشيخ أبوك حيّاً فأتانا فيهم لشفعنا» قال: وكان له عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) يد، وهي أنّه كان أجار رسول الله (صلى الله عليه وآله) لـمّا قدم من الطائف حين دعا ثقيفاً الى الإسلام. وكان أحد الذين قاموا في

يروي البخاري عنه، قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقرأ في المغرب بالطور، فلمّا بلغ هذه الآية «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوات وَالأَرْضَ بَل لاَيُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّك أَمْ هُم المُسيْطِرُونَ»[1]. قال: كاد قلبي أن يطير[2] قال: فكان ذلك أوّل مادخل الإيمان قلبي[3].

وفي رواية: وذلك أوّل ماوقر الإسلام في قلبي[4]، وَقَرأي أثّر.

ولكنه عاد الى شقائه الأوّل حتى كان عام الفتح[5]، وحضر يوم حنين[6].

ونقل البيهقي عن أبي سليمان الخطّابي، قال: إنّما كان انزعاج جبير بن مطعم عند سماع الآيات، لحسن تلقّيه معانيها ومعرفته بما تضمّنته من بليغ الحجّة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشفّ معانيها بذكيّ فهمه[7].

نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم وإيّاه عنى أبوطالب بقوله:

أمطعم انّ القوم ساموك خطة   واني متى أوكل فلست بآكل

(١) الطور: ٣٥-٣٧.   (٢) جامع البخاري: ج ٦ ص ١٧٥.

(٣) الاصابة: ج ١ ص ٢٢٦.

(٤) الشفا للقاضي عياض: ص ٢٣١. وشرحه: ج ١ ص ٣٢٩.

(٥) أسد الغابة: ج ١ ص ٢٧١.

(٦) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٩١

(٧) الاسماء والصفات للبيهقي: ص ٣٩٠. والدرالمنثور: ج ٦ ص ١٢٠. والإتقان: ج ٤ ص ١٧.

محاججات ومخاصمات

هناك للمشركين مخاصمات مع النّبي (صلى الله عليه وآله) دحرتها حجج القرآن الداحضه، وقد أفحمتهم قوّة برهانه وبهرتهم روعة بيانه، فكانت النهاية هي الرضوخ والاستسلام:

مع النضربن الحارث:

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيما بلغني، مع الوليد ابن المغيرة في المسجد، فجاء النضربن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غيرواحد من رجال قريش. فتكلّم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعرض له النضر، فكلّمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى أفحمه. ثم تلا عليهم «إنّكم وَماتَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنّمَ أنتم لَهاوارِدُون. لَوكانَ هٰؤلاءِ آلِهَةً ماوَرَدُوها وَكُلٌّ فيها خالِدون. لَهم فيها زَفيرٌوَهُم فيها لايَسمَعون»[1][2].

مع عبدالله بن الزبعرى:[3]

ثمّ قام رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأقبل عبدالله بن الزبعرى السهمي،

---

(١) الأنبياء: ٩٨-١٠٠ (٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٨٤. والحصب هوالحطب: كلّ ما أوقدت به النار.

(٣) كان من شعراء العرب وخطبائهم العبقريّين. وشعره في قصة أصحاب الفيل ومعروف راجع (سيرة ابن

←

وكان زعيماً من زعماء قريش، حتى جلس معهم. فقال له الوليد بن المغيرة: والله ماقام ابن الحارث لابن عبدالمطلب آنفا وماقعد، وقد زعم محمد أنّا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنّم!...

قال ذلك في حالة تأثّر شديد!

فقال ابن الزبعرى: أما والله، لووجدته لخصمته! فسلوا محمداً: أكلّ مايعبد من دون الله في جهنّم مع من عبده؟! فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح!

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرى! ورأوا أنّه قد احتجّ وخاصم! فذكر ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله) من قول ابن الزبعرى.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّ كلّ من أحبّ أن يُعبد من دون الله، فهو مع من عبده، إنّهم إنّما يعبدون الشياطين، ومن امرتهم بعبادته![1].

قيل: فنزلت بهذا الشأن: «أمِ اتّخذُوا مِن دُونِه آلِهَةً قُل هاتُوا بُرهانَكم هٰذا ذِكْرُ مَن مَعي وذِكرُ مَن قَبلي بَل أكثَرُهم لايَعلَمون الحَقّ فَهُم مُعرِضون. وما أرسَلنا مِن قَبلِكَ مِن رسولٍ إلّا نوحي إليه أنّهُ لا إلٰه إلّا أنا فَاعْبُدونِ. وَقالوا اتّخَذَ الرّحمانُ وَلَداً سُبحانَه بَل عِبادٌ مُكرَمونَ. لايَسبِقونَه بالقَولِ وهُم بِأمرِهِ يَعمَلون. يَعلَم مابَين أيديهِم وما خَلفهم ولايَشفَعونَ إلّا لِمَن ارتَضىٰ وهم مِن خَشيَتهِ مُشفِقون. ومَن يَقُل مِنهم إنّي إلٰهٌ مِن دونه فذٰلكَ نَجزيه جَهنم كذٰلك نَجزي الظالِمينَ»[2].

هشام: ج١ ص٥٩).

(١) أي إنّ الملائكة ومن ذكرهم لم يدعوهم الى عبادتهم، وإنّما عبدوهم بإغواء الشياطين وتسويلاته الخبيثة.

(٢) الأنبياء: ٢٤-٢٩.

مع أبيّ بن خلف:

قال ابن إسحاق:

ومشى أُبيّ بن خلف بن وهب الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعظم بال قد ارفتّ[١] فقال: يا محمّد، أنت تزعم أنّ الله يبعث هذا بعد ما آرمَّ[٢]؟ ثمّ فتّه في يده، ثمّ نفخه في الريح نحو رسول الله (صلى الله عليه وآله)! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): نعم، أنا أقول ذلك يبعثه الله وإيّاك بعد ماتكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار![٣].

قيل: فانزل الله تعالى فيه:

«أوَلم يَرَ الإنسانُ أنّا خَلقناه مِن نُطفةٍ فإذا هُو خَصيمٌ مُبين. وضَرَب لَنا مَثلاً ونَسي خَلقه قال مَن يُحيي العِظامَ وهي رَميم. قُل يُحييها الّذي أنشأها أوّلَ مَرّة وهو بِكلّ خَلْق عَليم. الّذي جَعلَ لكم مِن الشّجَر الأخضَر ناراً فإذا أنتُم مِنه تُوقِدون. أوَلَيسَ الّذي خَلق السّماواتِ والأرضَ بِقادِرٍ علىٰ أن يَخلق مِثلَهم بلىٰ وهو الخلاّقُ العَليم. إنّما أمرُه إذا أرادَ شَيئا أن يَقولَ لَه كُن فَيكون. فَسُبحان الّذي بِيَده مَلكوتُ كُل شيءٍ وإليه تُرجَعون»[٤].

مع الأسود بن المطّلب:

واعترض رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يطوف بالكعبة، الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وامية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم. فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ماتعبد، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر. فإن كان الذي تعبد خيراً ممّا نعبد، كنّا قد أخذنا بحظّنا منه. وإن كان مانعبد خيراً ممّا تعبد كنت قد أخذت بحظّك منه.

---

(١) أي تحطّم وتكسّر.

(٢) اي بلي وفسد.

(٣) سيره ابن هشام: ج ١ ص ٣٨٧.

(٤) يس: ٧٧-٨٣.

قيل: فانزل الله تعالى فيهم:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. قُل يا أيّها الكافِرون. لا أعبُد ماتَعبُدون. ولا أنتم عابِدون ماأعبُد. ولا أنا عابِد ماعَبَدتُم. ولاأنتم عابِدونَ ما أعبُد. لكم دِينُكم وَلي دِين»[١].

قال ابن إسحاق: أي إن كنتم لاتعبدون الله إلّا أن أعبد ماتعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم. لكم دينكم ولي ديني[٢].

مع أبي جهل بن هشام:

قال ابن إسحاق: لمّا ذكرالله عزّوجلّ «شجرة الزّقوم» تخويفاً لمشركي قريش، في قوله: «أذٰلك خيرٌ نزلاً أم شَجرةُ الزقُّوم. إنّا جَعلناها فِتنةً للظالِمين. إنّها شَجرة تَخرُج في أصلِ الجَحيم. طَلْعُها كانّه رُؤوس الشّياطِين. فإنّهم لآكِلُون مِنها فَمالِؤن مِنها البُطون. ثُمّ إنّ لَهم عليها لَشَوباً مِن حَميم. ثم إنّ مَرجِعهم لَإلىٰ الجحيم. إنّهم ألْفَوا آباءَهُم ضالّين. فَهُم علىٰ آثارِهم يهرَعُون. ولَقَد ضَلّ قَبلَهم أكثر الأوّلين. ولَقد أرسَلنا فيهم مُنذِرين. فَانظُر كيفَ كانَ عاقِبَة المُنذَرِين»[٣].

فقد أهاجت هذه الآيات القارعة من غلواء المشركين وجعلتهم حيارى مندهشين يخافون سوء العاقبة القريبة! فعمد أبوجهل ـ على عادته ـ يحاول تهدئة هياجهم المبرّح، قائلاً: يا معشرقريش، أو تدرون ماهي شجرة الزقّوم، التي يخوّفكم بها محمد؟! إنّها عجوة يثرب بالزبد[٤].

فوالله لئن استمكنّا منها، لنتزقّمنّها تزقّماً[٥] قالها مستهزئاً لهياجهم الثائر!

---

(١) الكافرون: ١ ـ ٦.

(٢) الروض الأنف: ج ٢ ص ١٠٨.

(٣) الصافات: ٦٢ ـ ٧٣.

(٤) العجوة ضرب من تمر الحجاز، فيها لذّة. (٥) التزقّم: الابتلاع.

قيل: فانزل الله: «إن يَومَ الفَصْلِ مِيقاتُهم أجمعينَ. يَومَ لايُغني مَولىً عن مَولىً شيئاً ولاهُم يُنصَرون ـالى قوله ـ إنّ شَجرتَ الزّقُّوم.طعامُ الأثيم. كالمُهلِ يغلي في البُطون. كغَلْي الحَميم. خُذوه فَاعتِلُوه إلىٰ سَواءِ الجحيم. ثُمّ صُبُّوا فوق رأسِه مِن عَذابِ الحَميم. ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريم. إنّ هٰذا ما كُنتُم به تَمترون»[1].

قال ابن هشام: المهل كل شيء اذبته من نحاس أورصاص وما أشبه[2].

إنّ هذا ليس بكلام، وإنّما هي صواعق مرعدة وقوارع دامغة، تترىٰ على أشلاء هامدة وبقايا أجساد متفتّتة، لا تطيق تحمّلها حتى وإن جهدت في المقاومة والعناد. «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِن بَاقِيَةٍ»[3].

وبذلك تتجسّد معجزة هذا الكلام وسحره في أُسلوبه هذا الباهر وسلطانه هذا القاهر!

---

(١) الدخان: ٤٠ـ٥٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٨٨.

(٣) الحاقة ٧ـ٨.

مفاخرات ومساجلات

كانت سَنَةُ التسع سَنَةَ الوفود، وذلك بعد أن فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) من غزاة تبوك، فجعلت وفود العرب تترى عليه مستسلمة منخرطة مع الكفّة العليا التي أخضعت قريش ومحالفيها وأحزاب العرب جميعاً.

فمن هؤلاء عطارد بن حاجب التميمي وكان خطيب القوم، قدم على النبيّ (صلى الله عليه وآله) في أشراف بني تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر- وهو شاعر القوم- وعمرو بن الأهتمّ، والحتات بن يزيد، وعيينة بن حفص وغيرهم. وكان الأقرع وعُيينة أسلما من قبل وشهدا فتح مكة وحنينا والطائف، لكنّهما صحبا الوفد.

فلمّا قدم الوفد ودخلوا المسجد، نادوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد! فآذى ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) من صياحهم[1] فخرج إليهم.

فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك، فاذن لشاعرنا وخطيبنا! قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب، فقال:

(الحمدلله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف. وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره

---

(١) قيل: فنزلت: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ» الحجرات: ٤.

عدداً، وأيسره عدّة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ماعدّدنا! وإنّا لونشأ لأكثرنا الكلام، ولكنّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنّا نعرف بذلك! أقول هذا، لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا!...) ... ثمّ جلس.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لثابت بن قيس: قم، فأجب الرجل في خطبته، فقام ثابت وقال:

(الحمدلله الذي السماواتُ والارض خلقه،قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيّه علمُه، ولم يك شيء قطّ إلّا من فضله. ثمّ كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسباً. فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين. ثمّ دعا الناس الى الإيمان به، فآمن برسول الله (صلى الله عليه وآله) المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسباً، وأحسن وجوهاً. وخير الناس فعالاً. ثمّ كان اوّل الخلق إجابةً واستجاب لله حين دعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) نحن، فنحن أنصارالله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله. فمن آمن بالله ورسوله، منع منّا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا، وأستغفرالله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم)

فقام الزبرقان بن بدر، وأنشد:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعاد لنا ... منّا الملوك وفينا تقسم الرُبَع[١]

وجعل يعدّد من هذا القبيل من مفاخرات لا تعدّ و شعارات فارغة الى أن يقول:

إنّا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنّا كذلك عند الفخر نرتفع .. الخ[٢]

---

(١) تقسم الرُبع: كناية عن كونهم رؤساء، حيث كان الرئيس العربيّ يأخذ ربع الغنائم في الجاهلية.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٠٨.

فلما فرغ الزبرقان، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لحسان بن ثابت: قم، يا حسان، فأجب الرجل، وكان حسان يعرض قوله ويقول على منواله، فقام وقال:

إنّ الذوائب[١] من فهر وأخوتهم قد بيّنوا سنة للناس تتّبع
يرضى بهم كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيّة تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرّها البدع
إن كان في الناس سبّاقون بعدهم فكلّ سبق لأدنى سبقهم تبع

الى أن يقول:

إذا نصبنا لحيّ لم ندبّ لهم كما يدبّ الى الوحشيّة الذرع[٢]
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف[٣] من أظفارنا خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوّهم وإن اصيبوا فلا خُور ولا هُلُع[٤]
كأنّهم في الوغى والموت مكتنع اسد بحلية في أرساغها فدع[٥]
خذمنهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ولا يكن همّك الأمر الذي منعوا[٦]
فإنّ في حربهم فاترك عداوتهم شرّاً يخاض عليه السمّ والسلع[٧]
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره فيما أحبّ لسان حائك صنع[٨]
فإنّهم أفضل الأحياء كلّهم إن جدّ بالناس جدّ القول أو شمعوا[٩]

---

(١) الذوائب: السادة، لأنّ ذوائب المرأة تعلو رأسها.
(٢) نصبنا: أظهرنا العداوة، والذرع: ولد البقرة الوحشية
(٣) الزعانف: اطراف الناس واتباعهم. (٤) الخور: الضعفاء. والهلع: الجازعون. واحده هلوع.
(٥) مكتنع: دان. وحلية: مأسدة في اليمن. والارساغ: جمع رسغ، موضع القيد من الرجل. وفدع: اعوجاج الى ناحية. (٦) عفواً: من غير مشقة. (٧) السلع: نبات مسموم.
(٨) صنع: الذي يجيد القول ويحسنه. (٩) شمعوا: هزلوا. وأصله من الطرب واللهو.

ثمّ إنّ للزبرقان بن بدر شعراً آخر، قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

الى أن يقول:

وأنّ لنا المرباع[1] في كلّ غارة ... نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فقال:

هل المجد إلّا السؤدد العَوْد والنّدى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

نصرنا وآوينا النبيّ محمداً ... على أنف راض من معدّ وراغم

بحيّ حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم

نصرناه لمّا حلّ وسط ديارنا ... بأسيافنا من كلّ باغ وظالم

جعلنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفساً بفيء المغانم

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم

ونحن ولدنا من قريش عظيمها ... ولدنا نبي الخير من آل هاشم

الى أن يقول:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تلبسوا زيّاً كزي الأعاجم

قال ابن إسحاق:

فلما فرغ حسان من قوله: قال الأقرع بن حابس: وأبي إنّ هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا...

فلمّا فرغ القوم، أسلموا، وجوّزهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأحسن جوائزهم[2].

---

(١) المرباع: اخذ الربع من الغنيمة.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٠٦-٢١٢.

سخافات وخرافات

على أنّ التأريخ لايخلو من اسماء قوم قد زعموا أنّهم عارضوا القرآن، أو رأوا أنّ باستطاعتهم أن يعارضوه: «لونشاءُ لقلنا مثل هذا إنْ هَذا إلّا أساطِيرُ الأوّلينَ» فمنهم من ادّعى النبوّة وجعل مايلقيه من سفاسفه مازعمه مضاهياً للقرآن كي لاتكون صنعته بلا أداة «أوْ قَالَ أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ»[1].

ومنهم من تعاطى معارضته صناعةً وظنّ أنّه قادر عليها، لكنّه سرعان ماتراجع الى الوراء إما صاغراً أو مستغفراً ربّه من سوء مانواه.

والغريب أنّ مايؤثر عن أناس في التأريخ حاولوا معارضة القرآن، أنّهم أتوا بكلام لايشبه القرآن ولايشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا الى ضرب من السخف والتفاهة، باد عواره، باق عاره وشناره. فمنهم عاقل إستحيى أن يتمّ تجربته فحطّم قلمه ومزّق صحيفته، ومنهم ماكر وجدالناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته، فطوى صحفه وأخفاها عن أعين الناظرين الى حين، ولكن متى ذلك الحين، أنّه الى أبدالآبدين! أمّا الذين أتوا بسخائفهم فقد أبدوا بعوراتهم سفهاً وحمقاً، واليكم نماذج من كلا النمطين، دليلا على صدق التحدّي إعجازاً مع الخلود «وَلَنْ تَفْعَلُوا ...»:

---

(١) الأنعام: ٩٣.

١ ـ مسيلمة الكذّاب:

فمن أُولئك مسيلمة بن حبيب، تنبّأ باليمامة في بني حنيفة على عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بعد أن وفد عليه وأسلم في ظاهر أمره، كان يصانع كلّ إنسان ويتألّفه، ولا يبالي أن يطّلع أحد منه على قبيح، اذ كان اتخذ النبوّة مدعاة الى الملك، حتى عرض على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يشركه في الأمر.. كان وفد بني حنيفة ـ في سنة تسع من الهجرة ـ قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفيهم مسيلمة وقد ستروه بالثياب، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس بين أصحابه معه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات. فلمّا انتهى الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهم يسترونه بالثياب، كلّمه وسأله، فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله): لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه. وكان قد سأله تشريكه في أمر الرسالة.

ثمّ انصرفوا، فلمّا انتهوا الى اليمامة ارتدّ عدوّالله، وتنبّأ وتكذّب لهم، وقال: انّي أُشركت في الأمر مع محمد (صلى الله عليه وآله) ثمّ جعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن:

«لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الحُبْلىٰ أَخْرَجَ مِنْهٰا نَسَمَةً تَسْعىٰ، مِنْ بَيْنِ صِفٰاقٍ[1] وَحَشَى» ثمّ أحلّ لهم الخمر ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بانّه نبيّ، لكنه شريكه، فاصفقت معه بنو حنيفة على ذلك[2].

وكتب الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في اخريات سنة عشر: «من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله، سلام عليك، أمّا بعد، فانّي قد اشركت

(١) الصفاق: الجلد الأسفل دون الجلد الأعلى الذي يسلخ.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٢٣.

في الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون».

وأرسله مع رجلين من قومه، فقدما الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقدّما إليه الكتاب. فلمّا قرأه قال لهما: فماتقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال النبي (صلى الله عليه وآله): «أمَا واللهِ، لَوْلا أنَّ الرُسُل لاتُقْتَلُ، لَضَرَبْتُ أعْناقَكُما». ثمّ كتب الى مسيلمة: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد رسول الله، الى مسيلمة الكذّاب، السلام على من اتّبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين»[1].

وكان قد اتخذ باليمامة حرماً، وكانت قرى لبني اسيد صارت في الحرم، ومن ثمّ كانوا يغيرون على ثمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم دغلاً، فقيل لمسيلمة في ذلك، فقال: انتظر الذي يأتي من السماء، ثمّ أتاه فقال:

«والليّل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أُسيد من محرم».

ثمّ عادوا للغارة وللعدوى واستعدى عليهم، فقال مسيلمة: انتظر الذي يأتيني فقال: «والليّل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أُسيد من رطب ولا يابس». فقالوا له: أمّا النخيل مرطبة فقد جدّوها، وأمّا الجدران يابسة فقد هدموها، فقال: اذهبوا وارجعوا فلا حقّ لكم.

وكان فيم يقرأ لهم: «إنّ بني تميم قوم طهر لقاح، لامكروه عليهم ولاأتاوه، نجاورهم ماحيينا بإحسان، نمنعهم من كلّ إنسان، فإذا متنا فأَمْرُهُم الى الرحمان».

وكان يقول: «والشآء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض أنّه لعجب محض وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجعون».

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص٢٤٧.

وكان يقول: «الفيل ماالفيل، وما أدراك ماالفيل، له ذنب وبيل وخرطوم طويل..».

وكان يقول: «يا ضفدع ابنة ضفدع، نقّبي ماتنقّين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدّرين».

وكان يقول: «والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، اهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوَبَر، وماسبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والباغي فناوؤه».

وجاءه طلحة النمري فقال له: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك؟ قال: رحمان. قال: أفي نور أم في ظلمة؟ قال: في ظلمة. فقال طلحة: أشهد أنّك كذّاب وأنّ محمداً صادق.

ولكن كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر. فثبت معه حتى قتل يوم عقرباء فيمن قتل معه[١].

وكان من المسلمين رجل يقال له نهار الرجّال[٢] قد هاجر الى النبي (صلى الله عليه وآله) وقرأ القرآن وفقّه في الدّين، فبعثه معلّماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشدّ من أمرالمسلمين، لكنه أصبح بعد وفاته (صلى الله عليه وآله) أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، إذ شهد أنّه سمع محمداً (صلى الله عليه وآله) يقول: إنّ مسيلمة قد اشرك معه! فصدّقوه واستجابوا له.

فكان الرجّال لايقول شيئاً إلّا تابعه مسيلمة، وكان ينتهي الى أمره

---

(١) تاريخ الطبري ـ حوادث سنة ١١ ـ: ج ٢ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٨.

(٢) عن أبي هريرة قال: جلست مع النبي (صلى الله عليه وآله) في رهط معنا الرجّال بن عنفوه، فقال: إنّ فيكم رجلاً ضرسه في النار أعظم من أحد، فهلك القوم وبقيت أنا والرجّال، فكنت متخوّفاً لها حتى خرج الرجّال مع مسيلمة فشهد له بالنبوّة. وقتل في حرب خالدبن الوليد لمسيلمة وأهل اليمامة. والرجّال في الرواية المشهورة بالجيم. وفي بعضها بالحاء المهملة.

ويستعين به على تعرّف سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) ومعجزاته في العرب، ليحاكيه ويتشبّه به، لكنّه ما عارضه في شيء قط إلّا انقلبت الآية عليه وأخزاه الله.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان عند القول في الضفدع: ولا أدري ماهيّج مسيلمة على ذكرها ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي ماتنقّين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدّرين، ولا الشارب تمنعين.

وقال الرافعي: وكلّ كلامه على هذا النمط واهٍ سخيف لا ينهض ولا يتماسك، بل هو مضطرب النسج مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى، ولا من الجهل بمعاني الكلام وسوء البصر بمواضعه[1].

وقال الدكتور دراز ـ بشأن سخافة عقله ـ: فقد زعم أنّه يوحى إليه بكلام مثل القرآن، وما صنع شيئاً إلّا أنّه كان يعمد الى آي القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدّل بعضاً، كقوله «إنّا أعطيناك الجماهر فصلّ لربّك وجاهر». أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ سوقيّة ومعان سوقيّة، كقوله: «والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً». وهكذا لم يستطع وهو عربيّ قح أن يحتفظ باسلوب نفسه، بل نزل الى حدّ الإسفاف، وأتى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفكّههم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها. ولا يخفى أنّ هذا كلّه ليس من المعارضة في شيء، بل هو المحاكاة والإفساد. وما مثله إلّا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثالاً لا روح فيه، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن[2].

* * *

(١) إعجاز القرآن: ص ١٧٥.

(٢) النبأ العظيم: ص ٧٤.

قلت: وبذلك يتبيّن فساد ما زعمه بعض أهل الخرف، من أنّه لوكان ما أُتي به باطلاً، لوجب على الله إرغامه، كماقال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ.لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ.ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»[1]. كمازعمه بعض البابيّة في سفاسفهم.

إذ لا تعدّ أمثال هذه الخزعبلات تقوّلا على الله، مالا يتناسب مع كلامه تعالى لا في لفظه ولا في أسلوبه ولا في شيء من معانيه. إنّما هي ترّهات تشبه أطيط بعير أو نهيق حمار.

٢ـ سجاح بنت الحارث التميميّة:

كانت في بني تغلب (وهم أخوالها) راسخة في النصرانيّة، وكانت تعلّمت منهم بعضاً من شؤون الدين، فتنبأت فيهم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاستجاب لها الهذيل وتركت التنصّر، ومالأها جماعة من رؤساء القبائل، وكانت تقول لهم: إنّما أنا امرأة من بني يربوع وإن كان ملك فالملك ملككم فخرجت بهم تريد غزو المسلمين، ومرّت تقاتل بعض القبائل وتوادع بعضها. وكان أمر مسيلمة قد غلظ واشتدّت شوكة أهل اليمامة، فنهدت له بجمعها، وخافها مسيلمة، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوّجها، قال: ليأكل بقومه وقومها العرب فأجابت وانصرفت الى قومها فقالوا: ما عندك ؟ قالت: كان على الحقّ فاتّبعته فتزوّجته...

ولها خلال قصّتها كلمات وتسجيعات، لتوقر من أنفس العرب وتستدرجهم في الاستماع الى هذه التعابير المسجعة التي تشبه كلام الكهّان. وإليك إجمال قصتها:

كانت عندما تريد الخروج قالت: «أعدّوا الركاب، واستعدّوا للنهاب، ثمّ

---

(١) الحاقة: ٤٤ـ ٤٧.

أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب». وكانت قصدت الإغارة على قبيلة رباب، كانت من أضعف القبائل. لكنّها فشلت ورجعت مقهورة.

يقول أصم التميمي في ذلك:

اتتنا أُخت تغلب فاستهدت ... جلائب من سُراة بني أبينا[١]

وأرست دعوة فينا سفاهاً ... وكانت من عمائر آخرينا[٢]

فما كنا لنرزيهم زبالاً ... وما كانت لتسلم إذ أتينا[٣]

ألا سفهت حلومكم وضلّت ... عشيّة تحشدون لها ثبينا[٤]

ثمّ خرجت في جنود الجزيرة حتى بلغت النباج، فأغار عليهم أوس بن خزيمة وهزمهم وقتل منهم وأسر من أسر، فردّت على أعقابها. فاجتمع إليها رؤساء الجزيرة، وقالوا لها: ماذا تأمرين؟ قالت: اليمامة! فقالوا: إنّ شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة، قالت:

«عليكم باليمامة، ودفّوا دفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرّامة، لا يلحقكم بعدها ملامة».

فنهدت لبني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمة، فهابها واحتال في استمالتها، فأرسل إليها بهديّة وطلب منها يستأمنها على نفسه حتى يأتها. فأمرت بنزول الجند على الأمواه[٥] وأذنت له وآمنته فجاءها وافداً في أربعين رجلاً من الأحناف. فأوّل ما بدأها أن قال لها: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لوعدلت، وقد ردّالله عليك النصف الذي ردّت قريش، فحباك به، وكان لها لوقبلت.

---

(١) إستهد: استضعف. والجلائب: جمع الجليبة وهي المجلوبة. والسريّ: الشريف.

(٢) أرسى: أثبت. العميرة: خلايا النحل مجموعة. وتطلق على الحيّ العظيم المنفرد.

(٣) رزى فلاناً: قبل برّه. والزبال: ماتحمله النملة بفمها.

(٤) الثبين: طرف الرداء إذا تثبنه أي تثنيه. وحشده: جمعه.

(٥) الأمواه: المياه جمع ماء.

فقالت: «لايردّ النصف إلّا من حنف، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسهف»[١].

فقال مسيلمة: «سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع. رآكم ربّكم فحيّاكم، ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم. فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربّكم الكُبار، ربّ الغيوم والأمطار».

وقال أيضاً: «لمّا رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت، وأيديهم طفلت، قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنّكم معشر أبرار، تصومون يوماً وتكلفون يوماً، فسبحان الله، إذا جاءت الحياة كيف تحيون، والى ملك السماء ترقون، فلو أنّها حبّة خردلة لقام عليها شهيد، يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور»[٢].

ثمّ دعا مسيلمة سجاحاً الى حصنه، فلمّا أتت ونزلت به أغلق الحصن دونها. فقالت له: انزل، قال: فنحّي عنك أصحابك، ففعلت. فقال مسيلمة: اضربوا لها قبّة وجمّروها، لعلّها تذكر الباه، ففعلوا، فلمّا دخلت القبّة نزل مسيلمة، فقال: ماذا أُوحي إليك؟ فقالت: هل تكون النساء يبتدئن؟ ولكن أنت قل، ماذا أُوحي إليك؟ قال مسيلمة:

«ألم ترى الى ربّك كيف فعل بالحُبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى».

قالت: وماذا أيضاً؟ قال: أُوحي إليّ:

«إنّ الله خلق النساء أفراجاً، وجعل الرجال لهنّ أزواجاً، فنولج فيهنّ قُعساً[٣] إيلاجاً، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً».

---

(١) حنف: مال. السهف: حرشف السمك اطلق على الخيل الصغار.

(٢) طفلت: أي صارت ناعمة كالطفلة. والثبور: الويل والهلاك.

(٣) القعس- بضم القاف- نتوء في الجسد، كناية عن ... وفي الأغاني: «فنولج فيهنّ الغراميل ...» ←

قالت: أشهد أنك نبيّ! قال: هل لك أن أتزوّجك؟ فآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال:

ألا قومي الى ... فقد هيّئ لك المضجع

... الى آخر أبيات ملؤها استهتار وخلاعة، يترفّع القلم عن نقلها[1].

ذكر ابن حجر: أنها بعد مقتل مسيلمة عادت الى الاسلام فأسلمت وعاشت الى خلافة معاوية[2] وماكانت نبوّتها الازفافاً على مسيلمة!

٣ـ طليحة بن خويلد الأسدي:

كان من أشجع العرب وكان يعدّ بألف فارس، قدم على النبيّ (صلى الله عليه وآله) في وقد أسد بن خزيمة سنة تسع فأسلموا، ثم لمّا رجع تنبّأ طليحة وعظم أمره بعد أن توفي رسول الله. وكان يزعم أنّ ذاالنون هوالذي يأتيه بالوحي، ولم يأت بقرآن، لأنّ قومه من الفصحاء لم يكن ليعبّر عليهم ذلك، إلّا أنّهم تابعوه عصبيّةً وطلباً لأمر كانوا يحسبونه كائناً في العرب بالغلبة.

ولم يؤثر منه كلام سوى قوله: «إن الله لايصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً، فإنّ الرغوة فوق الصريح».

وذلك أنّ الصلاة في شرعه كانت مجرد قيام وابتهال الى الله، فيمازعم.

ولما توافته جيوش المسلمين، تلفّف في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبأ لهم والناس يقتتلون، وكان عيينة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة، يقاتل دونه. فلمّا هزّت عيينة، الحربُ وضرس القتال، كرّ على طليحة، فقال: هل جاءك جبرئيل بعد؟ قال: لا، فرجع فقاتل حتى إذا اشتدت الحرب ثانية، جاءه فقال له: لا أباً لك، أجاءك جبرئيل بعد؟ قال: لا والله، فجعل

والغرمول: الضخم من...

(١) راجع تفصيل القصة في الطبري: ج ٢ ص٤٩٦ـ ٤٩٩. (٢) الإصابة: ج ٤ ص٣٤٠.

يقول عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منّا: ثم رجع فقاتل، وكرّ عليه ثالثاً وسأله هل جاءه جبرئيل، وفي هذه المرة قال: نعم! قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إنّ لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه».

فقال عيينة: أظنّ أن قد علم الله أنّه سيكون حديث لا تنساه، يا بني فزارة، هكذا فانصرفوا فهذا والله كذّاب! فانصرفوا وانهزم الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا ـ وقد كان أعدّ فرسه عنده، وهيأ بعيراً لامرأته النوّار ـ فلمّا أن غشوه يقولون ماذا تأمرنا، قام فوثب على فرسه وحمل امرأته ثم نجابها، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل. ثمّ سلك الحوشيّة حتى لحق بالشام، وارفضّ جمعه[1].

٤ ـ الأسود العنسي:

هو مسعود بن كعب من بني مذحج، ويقال له: عبهلة. وكان يلقب ذا الخمار، إذ كان يقول: يأتيني ذوخمار. وكان فصيحاً معروفاً بالكهانة والسجع عالماً بالنسب. وقد تنبّأ على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) وخرج باليمن واتبعته قبائل من مذحج واليمن واستفحل أمره. وكان يدّعي أن ملكين يأتيانه يسمّى أحدهما (سحيقاً) والآخر (شريفاً) وكان إذا ذهب مذهب التنبّؤ أكبّ ثمّ رفع رأسه ويقول: قال لي: كيت كيت. وكان له خدع كثيرة يزخرف بها. قتل قبل وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله) بيوم. قتله فيروز وقيس وداذويه من أبناء الفرس الذين أسلموا باليمن، قتلوه في تواطئ خطير:

وذلك عن طريق امرأة يقال لها: مرزبانة، كان قد اغتصبها، لأنّها كانت من أجمل النساء وكانت مسلمة صالحة، وكانت تحدّث عنه أنّه لا يغتسل من الجنابة. فصنعت سرباً ـ حفيرة تحت الأرض: النفق ـ وأدخلتهم عليه وهو

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ حوادث سنة ١١.

سكران، فخبطوه بأسيافهم، وهم يقولون:

ضلّ نبيّ مات وهو سكران والناس تلقى جلّهم كالذبان

النور والنار لديهم سيّان[١]

وذكر ابن جرير: أنّ الأسود العنسي كتب الى عمّال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورؤساء الأجناد: «ايها المتورّدون علينا، امسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفّروا ما جمعتم، فنحن أولى به. وأنتم على ماأنتم عليه».

وكان اللعين قد خرج واستغلظ أمره واستولى على صنعاء وقتل شهربن باذان الذي خلف أباه باذان على صنعاء بأمر من رسول الله(صلى الله عليه وآله) وتزوّج بامرأته (آزاد)- وهي ابنة عم فيروز، ولعلها التي كانت تلقب بمرزبانة، على ماجاء في رواية السهيلي الآنف- وقد أسند أمر جنده الى قيس بن عبد يفوث، وأسند أمر الأبناء (الفُرس الذين قطنوا اليمن) الى فيروز وداذويه. وكانوا من ذي قبل من عمّال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاستمالهم وهدّدهم على قبول ولايته، فقبلوا مكرهين.

قال: واستخف بقيس وبفيروز وداذويه، وتزوّج امرأة شهر، ابنة عمّ فيروز.

يقول فيروز: ونحن في هذه الشدّة، إذ جاءنا كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)قدم علينا به وَبَربن يحنس، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا والنهوض في الحرب، والعمل في الأسود إمّا غيلة وإمّا مصادمة وأن نبلّغ عنه مَنْ رأينا أنّ عنده نجدة وديناً، فعملنا في ذلك، وكاتبنا الناس ودعوناهم، فرأينا أمراً كثيفاً[٢].

قال: وقد احسّ بذلك الأسود، يقال: أخبره به شيطانه. فأرسل الى

---

(١) الروض الانف: ج ٤ ص٢٢٦. وذكره ابن هشام في السيرة: ج ٤ ص٢٤٦.

(٢) كثف: غلظ كثروالتف.

قيس، وقال له: إنّ هذا ـ وأشار الى شيطانه ـ يقول لي:

«عمدت الى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل منك كلّ مدخل، وصار في العزّ مثلك، مال ميل عدوك وحاول ملكك، وأضمر على الغدر، إنّه يقول: يا أسود يا أسود، يا سوأه يا سوأه، اقطف قُنّته[1] وخذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك أو قطف قُنّتك». فقال قيس: كذب وذي الخمار، لأنت أعظم عندي من أن أحدّث نفسي بذلك. فقال العنسي: ما أجفاك، أتكذّب الملك! قد صدق الملك لكني عرفت الآن أنك تائب!

ثمّ خرج قيس من عنده وجاء الى جُشَيش وفيروز وداذويه وأخبرهم بالخبر، وقال: إذن فما الرأي؟ قالوا: نحن على حذر. فبيناهم على ذلك إذ أرسل إليهم العنسي، وقال لهم: «ألم أُشرّفكم على قومكم، ألم يبلغني عنكم!» فقالوا: أقلنا مرّتنا هذه، فقال لهم: لايبلغني عنكم فأقتلكم قالوا: فنجونا ولم نكد. لكنّه لم يزل في ارتياب من أمرنا وأمر قيس. ونحن أيضاً في ارتياب من أمره.

قال فيروز: إذ جاءنا اعتراض عامر بن شهر بن باذان، وذي زود، وذي مران، وذي كلاع، وذي ظليم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا النصر، وإنّما اهتاجوا لذلك حين جاءهم كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشأن العنسي يحرّضهم عرباً وغير عرب على رفع فتنته. فكاتبناهم أن لا يحرّكوا شيئا حتى نبرم الأمر.

قال: فدخلت على آزاد، امرأته، فقلت لها: يا ابنة عمّ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك وطأطأ في قومك القتل، أي اسرع فيهم القتل، وسفل بمن بقي منهم وفضح النساء، فهل عندك من ممالأة عليه؟! فقالت: عليّ أمره. قلت: إخراجه؟ قالت: أوقتله. قلت: أو قتله؟! قالت: نعم، والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، مايقوم لله على حقّ، ولاينتهي له على حرمة: قالت: فإذا عزمتم فاعلموني، أخبركم بمأتى هذا الأمر.

---

(١) القنّة: كالقلّة لفظا ومعنى، وهو أعلى الشيء ورأسه.

قال: فاجتمع أمرنا على أن نغدر به، فأتيت آزاد وأخبرتها بعزيمتنا وانتظرت رأيها، فقالت: هو متحرّس، وليس في القصر ناحية إلّا والحرس محيطون بها، سوى هذا البيت فإنّ ظهره الى مكان كذا، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه، فإنّكم دون الحرس، وليس دون قتله شيء. قالت: وإنّكم ستجدون فيه سلاحاً وسراجاً.

فتقدّم جشيش وداذويه فاقتلعا بطانة البيت، فدخل فيروز وأغلق الباب وجلس عند آزاد كالزائر. وإذا بالأسود دخل عليها فاستخفّته غيرةً، وأخبرته برضاع وقرابة، فصاح به وأخرجه.

قال: فنقبنا البيت من خارج ودخلنا وفيه سراج تحت جفنةٍ. وإذا به يمرّبباب البيت إذ سمع غطيطاً، فعاجله فيروز فخالطه وهو مثل الجمل، فأخذ برأسه وقتله، فدقّ عنقه ووضع ركبته في ظهره فدقّه. ثمّ قام ليخرج فأخذت المرأة بثوبه، وهي ترى أنّه لم يقتله. فقالت أين تدعني؟ قال أخبر أصحابي، فأتاهم فقاموا معه وأرادوا حزّ رأسه، فاضطرب فلم يمكن ضبطه، فقال: اجلسوا على صدره، فجلس اثنان على صدره، وأخذت المرأة بشعره، إذ سمعت منه بربرة (صياح ونخير) فألجمته بمئلاة[1] فأمرّوا الشفرة على حلقه، فخار كأشدّ خوار ثور. فابتدر الحرس الذين كانوا حول المقصورة، فقالوا: ماهذا ماهذا؟ فقالت المرأة: النبيّ يوحى إليه! فخمد.

قال: وكتبنا بذلك الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان قد أتاه الخبر من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي. فأصبح رسول الله (صلى الله عليه وآله) يبشّر أصحابه بهلاك عدوّالله، فقال: قتل العنسي البارحة. قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين! قيل: ومن هو؟ قال فيروز، فاز فيروز[2]. تلك كانت نهاية أمر اللعين عدوّالله.

---

(١) هي خرقة تمسكها المرأة عندالنوح تشيربها. (٢) فيروز معرّب پيروز، بمعنى المظفَّر.

قال فيروز في كيفيّة قتله: إنّي لمّا خرجت إليه كنت قد خلفت سيفي فقلت إن رجعت الى سيفي خفت أن يفوتني، فضربت بيدي على رأسه، وأخذت رأسه بيدولحيته بيد، ثم لويت عنقه فدققتها.

قال أبوجعفر: وكان أوّل أمره الى آخره ثلاثة أشهر[١].

٥ـ ابن المقفّع:

عبدالله بن المقفّع الفارسي الماهر في صنعة الإنشاء والأدب[٢] وهوالذي عرّب (كليلة ودمنة) بأسلوبه الأدبي البديع، صاحب كتاب (الدّرة اليتيمة) المعروفة. زعموا أنّه اشتغل بمعارضة القرآن مدّة ثمّ مزّق ما جمع واستحيى لنفسه من إظهاره.

يقال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبوشاكر الديصاني[٣] وعبدالملك البصري[٤] وابن المقفع في المسجد الحرام يستهزئون بالحاجّ ويطعنون في الإسلام والقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض القرآن كلّ واحد منّا ربعه، وإذا نقضناه بطلت نبوّة محمد (صلى الله عليه وآله) وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام!

فتوافقوا على أن يجتمعوا بعد عام ويأتوا بما عملوا في نفس المكان. فلما كان من قابل واجتمعوا، وإذا هم لم يأتوا بشيء!

قال ابن أبي العوجاء: أمّا أنا فمنذ افترقنا تفكّرت في هذه الاية «فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً»[٥]. فلم اقدر على موازاتها في الفصاحة والبيان،

---

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٤٦٣ـ ٤٧٣.

(٢) أسلم على يد (عيسى بن علي) عمّ المنصور. ولعلّه لذلك (لمنافسة كانت بينه وبين عمّه) أمر عامله بالبصرة (سفيان بن معاوية) بشنق ابن المقفّع نكاية به، بحجّة زندقته في ظاهرالأمر كان ذلك عام (١٤٣).

(٣) ستأتي ترجمتها.

(٤) لم نعثر له على ترجمته.

(٥) يوسف: ٨٠.

فقد شغلتني عن التفكّر في غيرها!

وقال عبدالملك: وأنا منذ فارقتكم كنت مفكرا في هذه الآية «يا أيّها النّاسُ ضُربَ مَثلٌ فاستمِعوا له إن الّذينَ تَدعُون مِن دُونِ اللهِ لَن يَخلقوا ذُباباً ولواجتَمعوا لَه وإن يَسلبُهم الذّبابُ شيئاً لا يَستَنقِذوه مِنه ضَعفَ الطّالِبُ والمطلوب»[١] فلم أقدر على مناظرتها!

وقال أبوشاكر: وأنا أيضاً منذ مفارقتي إيّاكم ظللت متفكّراً في هذه الآية «لَوْكانَ فِيهِمَا الِهَةٌ إلّا الله لَفَسَدتا»[٢]. فلم أقدر على أن أماثلها!

فقال ابن المقفّع: يا قوم، إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا مذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية «وقيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ وياسماءُ اقلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ واستَوَتْ علىٰ الجُودي وقِيل بُعداً للقومِ الظالمين»[٣] فلم استطع ان آتي بنظيرتها!

قال هشام بن الحكم[٤] وهو يراقب الجماعة: فبينما هم في ذلك، إذ مرّبهم الإمام جعفربن محمد الصادق(عليه السلام)وعلم ماهم فيه، فقال لهم ـمتهكّماًـ: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً»[٥].

قال: فنظر القوم بعضهم الى بعض، وقالواـ معجبين بالأمرـ: لئن كان للإسلام حقيقة، وإلّا لما انتهت وصاية محمد (صلى الله عليه وآله) الى مثل جعفربن محمد(عليه السلام)والله مارأيناه قطّ إلّا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته. ثم تفرّقوا مقرّين بالعجز[٦].

---

(١) الحج: ٧٣. (٢) الأنبياء: ٢٢. (٣) هود: ٤٤.

(٤) كان من أعاظم صحابة الإمام الصادق(عليه السلام)مشهوراً بالكلام وحسن المناظرة كان كوفياً ونشأ بواسط واتّجر ببغداد. توفي سنة ١٩٩. (٥) الاسراء: ٨٨.

(٦) الاحتجاج للطبرسي: ج ٢ ص ١٤٢ـ ١٤٣. وأوردمختصره في بحارالأنوار: ج ٨٩ ص ١٦ نقلاً عن مختصر الخرائج: ص ٢٤٢.

هذا وقد أنكر العلماء نسبة ذلك الى ابن المقفّع، الذي هومن أبصرالناس باستحالة المعارضة. إنّما يعرف ذاالفضل من الفضل ذووه.

قال الرافعي: هذه النسبة مكذوبة عليه، وأنّ ابن المقفّع من أبصرالناس بعدم إمكان معارضة مثل القرآن، لا لشيء إلّا لأنّه من أبلغ الناس. وإذا قيل أنّ فلاناً يزعم إمكان المعارضة فاعلم أنّه إمّا جاهل أحمق أو عالم أعمته العصبيّة، وابن المقفع ليس واحداً منهما، ذلك الرجل العاقل الخبير بموضع نفسه من كلام الله المجيد.

قلت: إن صحّت الرواية -ولم تصحّ- فلعلّه كان مجاراة مع بني جلدته من أهل الأدب وربما كانوا يلحدون في آيات الله، فأراد بهذه التجربة إفحامهم وإقناعهم بواقع الأمر.

يدلك على ذلك قصّته الاخرىٰ -في المسجدالحرام- مع أصحابه، عند مامرّوا بالإمام جعفربن محمد الصادق (عليه السلام) فعمدالى التنويه بمقامه الرفيع:

روى الصدوق (عليه الرحمة) بإسناده المتصل الى أحمدبن محسن الميثمي، قال: كنت عند أبي منصور المتطبّب، فقال: أخبرني رجل من أصحابي، قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفع في المسجدالحرام. فقال ابن المقفع: ترون هذا الخلق؟ وأومأ بيده الى موضع الطواف. ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانيّة، إلّا ذلك الشيخ الجالس -يعني جعفربن محمد- (عليه السلام) فأمّا الباقون فرعاع وبهائم.

فقال: له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟
قال: لأنّي رأيت عنده مالم أرعندهم.

فقال ابن أبي العوجاء: ما بدّ من اختبار ما قلت فيه منه.

فقال له ابن المقفّع: لا تفعل، فإنّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك.

فقال: ليس ذارأيك، ولكنّك تخاف أن يضعف رأيك عندي، في إحلالك

إيّاه المحلّ الذي وصفت! فقال ابن المقفع: أمّا إذا توهّمت عليّ هذا فقم إليه، وتحفّظ ما استطعت من الزلل، ولا تثن عنانك الى استرسال يسلمك الى عقال، وسمه مالك أو عليك!

قال: فقام ابن أبي العوجاء الى الإمام وتكلّم معه وحاججه طويلاً - في شرح يطول - ثم رجع وهو مبهور بفضله (صلوات الله عليه) ونبوغه. فقال: يا ابن المقفّع، ماهذا ببشر، وإن كان في الدنيا روحانيّ يتجسّد، إذا شاء ظاهراً، ويتروّح إذا شاء باطناً، فهو هذا! ثمّ ذكر له حديثه معه[1].

وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ ابن المقفع كان يرى - بفضل ذكائه وفرط عقله - مكانة أئمّة المسلمين، الأحقّاء بمقام الإمامة، سموّاً ورفعة وشموخاً، تلك كانت عقيدته الباطنة، وربّما كان يتألّم من تقدّم غير الأهل من أهل الهرج والضوضاء، فكان يقوم في وجههم ويعارضهم بقوّة بيانه وصريح حجّته، ومن ثمّ رموه بالزندقة والإلحاد. هذا ماأظنّه بحقّ الرجل وربّما لاأشك في استقامة طريقته على غرار استقامة سائر أبناء الفرس الذين أسلموا يوم أسلموا وكانوا يرون الحقّ مع أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) وإن كان في ذلك رغم أنوف اشياع امية وبني العباس!

٦ - أبوشاكر الديصاني:

هو عبدالله أبوشاكر الديصاني، نسبة الى الفرقة الديصانيّة، مذهب قديم من ثنوية المجوس له كتاب (النور والظلمة). كان يسكن الكوفة وله مع هشام بن الحكم مناظرات، وأخيراً أسلم على يد الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في مباحثة جرت معه، فاستسلم وتشهّد الشهادتين وتاب الى الله ممّا كان فيه. عاش الى حدود المائة والخمسين.

---

(١) كتاب التوحيد: باب القدرة ح ٤ ص١٢٦.

وقد مرّت قصة معارضته للقرآن إن صحّت. نعم له محاججات على مذهبه القديم الثنوي استناداً الى آيات متشابهة في القرآن، ذكرها المجلسي في بحارالأنوار، وغيره[١].

٧ـ ابن أبي العوجاء:

هو عبدالكريم بن ابي العوجاء، خال معن بن زائدة، زنديق مغترّ. كان تلميذاً للحسن البصريّ فانحرف عن التوحيد. وكان يقول: إنّ صاحبي كان مخلّطاً يقول طوراً بالجبر وطوراً بالقدر! فما أعتقد له مذهباً! وقد جرى بينه وبين الإمام الصادق(عليه السلام) احتجاجات. ولما أخذ ليضرب عنقه، قال: لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرّم وأحلّل.

كان عبدالكريم يفسد الأحداث فتهدّده عمرو بن عبيد، فلحق بالكوفة، فدلّ عليه محمد بن سليمان أمير البصرة فقتله وصلبه، وكان ذلك في خلافة المهدي بعد الستين والمائة[٢].

له مع الإمام الصادق (عليه السلام) مناظرات كثيرة في مختلف شؤون الدين ولاسيّما فيما زعمه من مناقضات في القرآن الكريم[٣]، وسنذكرها في مجال مناسب قادم. أمّا قصة معارضته للقرآن فقد مرّت في قصة ابن المقفّع.

٨ـ ابن الراوندي:

أبوالحسين أحمد بن يحيى الراوندي البغدادي، (المتوفي سنة ٢٤٥). نسبته الى راوند من قرى كاشان. كان من العلماء الافذاذ، ومن النقّاد من أهل الكلام،

---

(١) بحارالأنوار: ج ٤ ص ١٤٠. وسفينة البحار: ج ١ ص ٤٧٥. وتجده في الملل والنحل للشهرستاني: ج ٢ ص ٥٥.

(٢) الكنى والألقاب: ج ١ ص ٢٠١. ولسان الميزان: ج ٤ ص ٥١ـ ٥٢.

(٣) راجع توحيد الصدوق: ص ٢٥٣.

له مجالس ومناظرات مع أرباب الأُصول من أصحاب المذاهب ولاسيّما أهل الاعتزال،.فإنّ له نقداً حرّا على أُصول مذهبهم في المعتقدات، ومن ثم رمي بالزندقة والإلحاد.

يقال: إنّه وضع كتابه (الفرند) طعناً في الدين ذكر فيه: «أنّ المسلمين احتجّوا لنبوّة نبيّهم بالقرآن الذي تحدّى به النبيُّ فلم تقدر العرب على المعارضة. فيقال لهم: أخبرونا لو ادّعى مدّع لمن تقدّم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن، فقال: الدليل على صدق بطلميوس أو اقليدس، أنّ اقليدس ادّعى أنّ الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه، أكانت نبوّته تثبت؟»[1].

لكن يظهر من مناظراته مع أرباب الجدل، أنّ كلماته مثل هذه، إنّما قالها جدلاً وإفحاماً لدليل الخصم، لا لعقيدة الخلاف واقعاً ، انظر الى مانقله صاحب كتاب (معاهد التخصيص) عن مناظرة وقعت بينه وبين أبي علي الجبائي (رئيس المعتزلة في وقته)، قال له ابن الراوندي: ألا تسمع شيئاً من معارضتي للقرآن؟ قال الجبائي: أنا أعلم بمخازي علومك ، ولكن احاكمك الى نفسك ، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلاؤماً، ونظماً كنظمِهِ، وحلاوة كحلاوته؟ قال: لا والله. قال: قد كفيتني. فانصرف حيث شئت.

قال الرافعي: أمّا ماقيل من معارضته للقرآن فلم يعلم منها شيء سوى هذه المناظرة[2].

قلت: على فرض صحّتها، فهي صريحة في عقيدته بكبرياء القرآن وعظمته الخارقة، ومن ثمّ فهي على العكس أدلّ، وأنّه إنّما جارى الخصوم في أنّه هل يمكن المعارضة أم لا؟

---

(١) تأريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر): ج٢ ص٦١. (٢) الإعجاز: ص١٨٣ بالهامش.

هذا وقد رمي الى الرفض والتشيّع، رفضاً لعقائد أهل السنّة القائلين بالجبر والقدر، ولعلّه شايع مذهب أهل البيت في مسائل العقيدة الإسلاميّة الأُولى.

وكيف كان، فلم يثبت أنّه عارض القرآن أو حاول معارضته، مع أنّه الرجل العالم العارف بمواقع الكلام.

قال الشريف المرتضى -في كتاب الشافي-: إنّ ابن الراوندي إنّما عمل الكتب تشنيعاً على مغالطات المعتزلة، ليبيّن لهم عن استقصاء نقصانها، وكان يتبرّأ منها تبرؤّ ظاهراً، وينتحي من علمها وتصنيفها الى غيره. وله كتب سداد مثل كتاب الإمامة والعروس... وعن صاحب الرياض: يبدو من كتب السيّد أنّه كان يحسن الظنّ به، مستقيماً في عقيدته...[1].

يذكر الخيّاط المعتزلي عن ابن الراوندي -نقلاً عن كتابه في الإمامة- أنّه طعن على المهاجرين والأنصار قائلاً: إنّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) استخلف عليهم رجلاً بعينه واسمه ونسبه، وأمرهم أن يقدّموه ولا يتقدّموا عليه وأن يطيعوه ولا يعصوه، فأجمعوا جميعاً إلّا نفراً يسيراً -خمسة أو ستة- على أن أزالوا ذلك الرجل عن الموضع الذي وضعه فيه رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأقاموا غيره، استخفافاً منهم بأمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وتعمّداً منهم لمعصيته[2].

وقد كشف الخيّاط عن هذا الرجل الذي استخلفه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في موضع آخر من كتابه الانتصار، قال: ولكن ليس الاقتصاد في التشيّع هو ما قصد إليه صاحب الكتاب -يريد ابن الراوندي في كتاب الإمامة- من أنّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) استخلف على أُمّته من بعده

(١) الكنى والألقاب: ج ١ ص ٢٨٨.

(٢) كتاب الانتصار في الردّ على ابن الراوندي لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمّد بن عثمان الخيّاط المعتزلي (قرن ٣ و٤): ص٣ تحقيق الدكتور نيبرّج طبع القاهرة ١٣٤٤ هـ-١٩٢٥م.

عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) باسمه ونسبه ونصّهم (ونصّه ظ) عليه، فقصدت الأُمّة إليه فأزالته عن الموضع الذي جعله فيه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأقامت غيره، اعتماداً لمعصيته واستخفافاً بأمره، ثم قصدت الى القرآن فنقصت منه وزادت فيه، وقصدت بمثل ذلك الى السُّنن[1].

٩ـ أبوالطيّب المتنبّي:

كذلك نسب الى أبي الطيّب أحمدبن الحسين المتنبي (المتوفى قتيلاً سنة ٣٥٤) أنّه ادّعى النبوّة في حدثان أمره، وكان ذلك في بادية السماوة (العراق) وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم. وقيل أنّه تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أُنزل عليه، منه:

«والنجم السيّار، والفلك الدوّار، والليل والنهار، إنّ الكافر لفي اخطار امض على سنّتك، واقف أثر من قبلك من المرسلين، فإنّ الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه، وضلّ عن سبيله».

لكنّه كلام ليس من طبقة شعره ولا في وزن كلامه، كما لا يخفى على من راج ديوانه.

وإنّما لقّب بالمتنبّي لأنّه فاق الشعراء في شعره وأعجز الأُدباء في أدبه، فلكأنّه تنبّأ وأتى بالمعجزات، كما قال ابن جنّي: سمعت أبا الطيب يقول: إنّما لقّبت بذلك لمكان قولي:

أنا ربّ الندى وربّ القوافي ... وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أُمّة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود
مامقامي بأرض نخلة إلّا ... كمقام المسيح بين اليهود

وقال الواحدي بشأنه:

---

(١) كتاب الانتصار للخيّاط المعتزلي: ص١٦٤.

مارأى الناس ثاني المتنبّي أيّ ثان يُرى لبكر الزمان
وهو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

وهو من فحول شعراء الشيعة، وله في مديح أميرالمؤمنين(عليه السلام)قصائد وأبيات منها قوله:

أبا حسن لوكان حبّك مدخلي جهنّم كان الفوز عندي جحيمها
وكيف يخاف النار من بات موقنا بأنّ أميرالمؤمنين قسيمها

وكم لأعداء أهل البيت مفتريات ألصقوها برجالات الأدب والكمال من الشيعة الأبرار، حسداً من عند أنفسهم وبغضاً لموالي هذا البيت الرفيع[1].

١٠ـ ابوالعلاء المعرّي:

أحمدبن عبدالله بن سليمان،(المتوفى سنة٤٤٩)، كان نسيج وحده بالعربية، وفاق أهل زمانه أدباً وذكاءً، وقد أعجبه محضر الشريف المرتضى فكان مولعاً بالحضور لديه، حتى عدّ من شعراء مجلسه. وقال فيه:

يا سائلي عنه لمّا جئت أسأله ألاّ هوالرجل العاري من العار
لوجئته لرأيت الناس في رجل والدهر في ساعة والأرض في دار[2]

وزعم بعضهم أنّه عارض القرآن في قوله: «أقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بليل، ما بين الأشراط ومطالع سهيل، أنّ الكافر لطويل الويل، وأنّ العمر لمكفوف الذيل، تعدّ اتّق مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تنج وما اخالك بناج». وقوله: «أذلّت العائذة أباها، وأصاب الوحدة وربّاها، والله بكرمه اجتباها، أولاها الشوف بماحباها، أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عقباها...»[3].

---

(١) الكنى والألقاب: ج٣ص١٣٩.
(٢) الكنى والألقاب: ج٣ ص١٩٤.
(٣) معجم الادباء لياقوت: ج٣ص١١٠.

لكنّه كلام ليس يشبه من كلام أديب شاعر بليغ. قال الرافعي: وتلك ولا ريب فرية على المعرّي أراده بها عدوّ حاذق، لأنّ الرجل أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه. ولأنّه هو الذي أثبت إعجاز القرآن فيما كتبه ردّاً على ابن الراوندي فيما نسب إليه.

قال ـ بشأن إعجاز القرآن ـ: «وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجّة ومقتدٍ، أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمد(صلى الله عليه وآله) كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوّه بالإرجاز، ماحُذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الإرب... وأنّ الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذاب نسق، فتبارك الله رب العالمين»[1].

نعم يجوز أن يكون الكلام الآنف إنّما قاله مداعبة لا عن جدّ وعن واقعيّة أرادها. قال الخطيب: إن يكن ذلك من كلام أبي العلاء فلن يكون إلّا عن معابثة أرادها وقعد لها، وإلّا فإنّ أبا العلاء لا يرضى بنفسه أن تنزله الى هذا السخف في مقام الجدّ أبداً. وإنّه إذا كان أبو العلاء يتّهم في دينه، فإنّه لا يتهم في أدبه، وإن ذوقه للكلام وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه يحميه من أن يزلّ أو ينزلق فيتصدّى لمعارضة القران ويلقي بنفسه في البحر ليكون من المغرقين. وهو الذي دأب على أن يزيّن كلامه وأدبه بما يقبس من كلمات القرآن وآياته، فهل من يفعل ذلك يتصدّى لمعارضة القرآن؟! المعرّي أعقل من هذا وأعرف الناس بمكانة القرآن![2].

---

(١) معجم الأُدباء: ج٣ ص١١٠.

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين: ص٥٠٤.

محاكاة وتقاليد صبيانيّة

وأخيراً قامت أفراد وجماعات زاعمة بإمكانها معارضة القرآن، فجاؤوا بتلفيقات غريبة اقتباساً من اسلوب القرآن ومن نفس تعابيره في تقليد أعمى، لابراعة فيه ولا جمال، سوى أنّها سخافات وخرافات لايتعاطاها ذو عقل حكيم.

منها ماجاء في رسالة (حسن الإيجاز) التي زعم كاتبها، وهو مسيحيّ متطرّف، أنّه عارض القرآن في سُوره القصار فكأن بإمكانه معارضته في السور الكبار، هكذا زعم المسكين!

فممّا عارض به سورة الحمد، وزعم أنّه أخصر منه لفظاً وأجمع منه معنى، قوله:

«الحمد للرحمان، ربّ الأكوان، الملك الديّان، لك العبادة، وبك المستعان، إهدنا صراط الإيمان».

وقد أسهب سيّدنا الأستاذ (دام ظله) في تسخيف هذا التائه وتزييف مزعومته، وفنّد اسلوبه على قواعد الكلام بشكل فنيّ دقيق، منها قوله: «ولست أدري ماذا أقول لكاتب هذه الجمل، ألم يشعر بأنّ المألوف من معارضة الكلام بمثله، أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلام مستقلّ في اسلوبه وتعبيراته، لكنّه يماثل كلام المعارض في قوّة البيان وقدرة التأثير، في مستوى رفيع واسلوب بديع، الأمر الذي يمتاز به القرآن الكريم. وليس معنى المعارضة أن يقلّد في

اسلوب التعبير ويبدّل من مواضع الكلمات بتصرّف وتغيير في ألفاظه. إذ هذا وإن أمكن وكان سهلاً، لكنّه مع ذلك يذهب برونق الكلام وربّما يطيح به الى حضيض الابتذال، كما حصل بالفعل لهذا المعارض السفيه. وليس مالفّقه تقليدياً ممّا يفي بما وفّاه سورة الحمد من جليل المعنى وقوّة التعبير»[١].

* * *

وهكذا زعم الكاتب أنّه عارض سورة الكوثر، بكلمات لفّقها من غير مانظم ولا اسلوب ولا محتوى معقول، وزاد شناعة أنّه لعق إناءً كان قدلعقها كذّاب يمامة من قبل، جاء في تلفيقه:

«إنّا أعطيناك الجواهر، فصلّ لربّك وجاهر، ولا تعتمد قول ساحر».

وماذاك إلّا تقليد مفضوح عن قولة مسيلمة:

«إنّا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربّك وهاجر، وإنّ مبغضك رجل كافر».

قال سيّدنا الأُستاذ (دام ظله): لم يلتفت هذا المعتوه أنّ إعطاء الجواهر لايستدعي إقامة الصلاة والجهربها، لأنّ نعمة الثروة اخسّ نعم الله على الإنسان الذي شرّفه بجلائل النعم العظام، كالحياة والعقل والإيمان، ثمّ ماوجه تعريف الجواهر، أهي لام العهد أم لام الجنس للاستغراق أم لغيره؟ وأخيراً ماوجه المناسبة بينه وبين قوله: «لا تعتمد قول ساحر» أيّ ساحر؟ معيّن أم غير معيّن؟

ولعلّ قولة مسيلمة كانت أقرب الى نظم السورة، بعد أن كان الأصل أيضا تقليداً وسرقة محضة. الأمر الذي ليس من المعارضة في شيء[٢].

البابية والبهائية:

البابيّة فرقة مبتدعة ابتدعها (علي محمدبن ميرزا رضا البزّاز الشيرازي)

---

(١)و(٢) راجع البيان: ص ١١٢.

ولدسنة ١٢٣٦ في شيراز و وزد كربلاء سنة ١٢٥٥ لتعلّم العربيّة والدروس الدينيّة، فصادف أن تتلمذ عند السيّد كاظم الرشتي (المتوفى سنة ١٢٥٨). فكان يدعو شيخه البابَ الأعظم، وبعد وفاته ادّعى لنفسه البابيّة (الوسيط بين الغائب المنتظر والناس). ثم ارتقى بنفسه الى مرتبة المهدويّة و وصف نفسه بصفة «بقية الله» وأمر أتباعه بإدخال جملة «أشهد أنّ علي محمد الباب بقية الله» في الأذان. وانتهى أمره الى شنقه بأمر (ناصرالدين شاه القاجاري) في ميدان تبريز سنة ١٢٦٦ وعمره إذ ذاك ٣١ سنة.

وقد تدرّج المعتوه من درجة البابيّة الى دعوى المهدويّة فإلى دعوى النبوّة، والأُلوهيّة أخيراً.

وله في كلّ هذه المدارج مقالات سخيفة كان يمليها عليه شيطانه الأخرس، وكان يصدرها بصورة ألواح قدسيّة نازلة من السماء، كما زعم.

ومن سخافاته الهذيانيّة ما سطّره في لوح الحمد:

«استحمد حمداً ما حمده أحد من قبل ولايستحمده أحد من بعد، حمداً طلع وأضاع وتشعشع وأشرق وأنار وبرق فأبار، فارتفع، وتسطّع فامتنع، حمداً شرّاقاً ذوالإشتراق، وبرّاقاً ذوالإبتراق، وشقّاقاً ذوالإشتقاق، وترّاقاً ذوالارتقاق، ورتّاقاً ذوالارتتاق، ورقّاقاً ذوالارتفاق وحقّاقاً ذوالاحتقاق، وسيّاقاً ذوالاستياق، وحذّاقاً ذوالاحتداق، وقلّاقاً ذوالاقتلاق... ويختم اللوح بقوله: جملاً كملاً زقعاً بهيّاً، بحياناً جملاناً، جمولاناً، وعظماناً».

وفي لوح البهاء: «بسم الله البهيّ الأبهى، لا اله إلّا هوالواحد البهيّان، بهاءالسماوات والأرض ومابينهما، فوق كلّ ذي البهاء، لن يقدر أن يمتنع عن مليك سلطان أبهائه من أحد لا في السماوات ولا في الأرض ولا مابينهما إنه كان بهاء باهياً بهياءً...».

وفي لوح القدم: «بسم الله الأقدم الواحد القدّام المقدّم القدوم القدمان المتقدّم المقتدم المقدوم المتقادم المستقدم القيدوم، المقادم ذي القدامين، القدم

ذي القدماء، ذي القدمات، ذي الأقادم... الى أن يقول:

اشهد يا إبراهيم إنّه لا اله إلّا أنا الرّحام الرّحيم، لن يرى في الأسماء إلّا الله أنّك ربّ العالمين، لم يكن لما خلقت من أوّل ولا آخر، وكل مايرى قائمون ولن يقدر أحد أن يحصي ظهورات ربّك من أوّل الذي لاأوّل له الى آخر الذي لا آخر له. قل في كلّ الظهورات لا اله إلّا الله وأنّ مظهر نفسه لحقّ لا ريب فيه، كلّ بأمرالله من عنده يخلقون...».

وفي لوح القائم: «وإنّني أنا القائم الذي كلّ ينتظرون يومه وكلّ به يوعدون، قد خلقني الله بأمره وجعلني قائماً على كلّ نفس بما قد آتاني الله من الآيات وإنّه هوالمهيمن القيّوم... الى أن يقول: قل كلّ شيء هالك إلّا وجهه، كذلك يظهر الله صدق مانزل لعلكم تتذكّرون... ويختم اللوح بقوله: ولعمري أنّ أمرالله في حقّي أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكّرون. قل إنّه رُبّي في العرب ثم من بعد أربعين سنة قد نزّل الله عليه الآيات، قل إنّي ربيت في الأعجمين وقد نزّل الله عليّ من بعد ما قد قضى من عمري خمسة بعد عشرين سنة آيات التي كلّ عنها يعجزون. إنّا كنّا نستنسخ ماكنتم به تعملون...»[1].

أمّا البهائية فهم أخلاف فرقة الباب تاهوا في بيداءالضلال كما تاه أسلافهم. وأوّل من استخلف الباب هوالميرزا يحيى بن عباس النوري الملقّب بصبح أزل، وأصبح خليفة الباب سنة ١٢٦٥هـ ق، وارتحل هو وأصحابه الى بغداد، وتغيّب هناك عن أعين الناس، وكان الواسطة بينه وبين أغنام البابيّة أخاه الميرزا حسين علي الملقّب ببهاء الله الذي تغلّب على أخيه (صبح أزل) بعدئذ وعزله وقام مقامه وإليه تنتمي الفرقة البهائية.

وإليك من كلمات (صبح أزل) أنزلها بصورة آيات !!:

---

(١) فلسفه نيكو ج ٤ ص٤٤ـ ٥٠، ودهخدا حرف الباء.

«سبحان الذي نزّل الكتاب بالحقّ فيه آيات اللوح هدىً وبشرى لقوم يسمعون، أن اتبع حكم ربّك لا اله إلاّ هو كلّ إليه ترجعون. وأنّ في الحيْنِ قد خرجن الحوريات من قصرٍ بحكم ربّك العزيز الحميد، وأنّ من دعائهنّ قل هذا الحرف، فلمّا جاء الرجال الذين يقاتلون من الله بالحقّ فإنّا نحن لفائزون. وأنّ وعدالله لمفعول. قل الحكم في يوم الأمر كان من لدي لمشهوداً أن ارجعن وسبّحن ربّ الخلق الذي بيده ملكوت كلّ شيء وأن لا اله إلاّ هوالغنيّ الحميد»[١].

ومن سخائف كلمات البهاء في كتابه (المبين) طبع (١٣٠٨هـ ق) في بومباي: «يا هذا الهيكل ابسط يدك على من في السماوات والأرض وخذزمام الأمر بقبضة إرادتك إنّا جعلنا في يمينك ملكوت كلّ شيءافعل ماشئت ولا تخف من الذين هم لا يعرفون ـ الى أن يقول ـ ترتفع أيادي كلّ شيء الى الله المقتدر العزيز الودود، سوف نبعث من يدك أيادي القوّة والقدرة والاقتدار وتظهر بها قدرتي لمن في ملكوت الأمر والخلق ليعرف العباد أنّه لا إله إلاّ أنا المهيمن القيوم...»[٢].

القاديانيّة:

القاديانيّة: فرقة هندية إسلامية مبتدعة، ابتدعها الميرزا غلام احمد القادياني (١٢٤٨ـ ١٣١٩هـ ق) كان من أولاد الأثرياءالكبار في الهند. كانت داعيته ـ حسبما زعم ـ تطهير الإسلام من الشوائب والدخائل، ومن عقيدتهم تكفير أصحاب سائر المذاهب وعدم التزاوج معهم وتحريم الاقتداء بهم في الصلاة. وعدم جواز الصلاة على موتى غيرمذهبهم. ونحو ذلك من مزاعم غريبة.

---

(١) فلسفه نيكو: ج ٤ ص ٦٠.

(٢) المصدر: ص ١٠٤.

ومن كتبهم (حمامة البشرى الى أهل مكة وصلحاء امّ القرى) و(القصائد الأحمدية) و(المسيح الموعود والمهدي الموعود) و(مواهب الرحمان). كلّها بقلمه[١].

وذكر السيد هبة الدين الشهرستاني: أنّ أصل هذا الهندي من «بلخ» من قرية «مزار شريف» بافغانستان. وكان آباؤه ارتحلوا الى مدينة «سبزوار» من بلاد «خراسان» ثمّ ارتحلوا منها الى قرية «قاديان» في منطقة «پنجاب» شمالي الهند، أيام الاحتلال الانكليزي... فجعل غلام أحمد وهو شاب يافع يتعلّم الانكليزيّة والعربيّة ويدرس العلوم الدينيّة، ليُسْتَخْدم عند الانكليز على مزارع القرية هناك براتب «عشرين روپيّة» شهريّا. وفي سنة ١٨٨٠م أعلن في كتابه «برهان أحمدي» أنّه المهدي الموعود ثمّ أعلن في سائر كتبه بنزول الوحي عليه، ومن جملة ما اوحي إليه: نسخ حكم الجهاد من شريعة الاسلام ووجوب طاعة الانكليز في البلاد! فأعانته السلطة على دعوته وأعلنت برسميّة مذهبه. وفي سنه ١٨٨٩م ادّعى النبوّة رسميّاً، وزعم أنّه المسيح، وأسقط من اسمه لفظة «غلام».

وممّا زعم أنّه اوحي إليه ـ ماجاء في كتابه «حمامة البشرى» ـ: «فالهمني ربي مبشراً بفضل ماعنده وقال: انك من المنصورين. وقال: يا أحمد بارك الله فيك، مارميت إذ رميت ولكنّ الله رمى. لتنذر قوماً ماانذر آباؤهم. ولتستبين سبيل المجرمين... وقال: أنت على بيّنة من ربّك رحمة من عنده وما أنت بفضله من المجانين ويخوفونك من دونه أنّك بأعيننا سميتك المتوكّل... ويمكرون ويمكرو الله.. فأدخل الله في لفظ اليهود معشر علماء الإسلام الذين تشابه الأمر عليهم كاليهود. وتشابهت القلوب والعادات، والجذبات والكلمات من نوع المكائد والبهتانات والافتراءات، وأنّ تلك العلماء قد أثبتوا هذا التشابه على

(١) فلسفة نيكو: ج ٤ ص ٦٩ دهخدا حرف الغين ومعجم المطبوعات: ج ٢ ع ١٤١٩.

النظارة بأقوالهم وأعمالهم، وانصرافهم واعتسافهم، وفرارهم من ديانة الإسلام... وكونهم من المسرفين العادين. وكنت أظنّ بعد هذه التسمية أنّ المسيح الموعود خارج. وماكنت أظنّ أنّه أنا. حتى ظهر السّر الخفي، وسمّاني ربي عيسى في إلهام من عنده. إنّا جعلناك عيسى بن مريم، وأنت منّي بمنزلة لا يعلمها الخلق، وانت اليوم منّي بمنزلة توحيدي وتفريدي...» إلى آخر ما لفّقه من ترّهات...[1].

(١) راجع المعجزة الخالدة: ص١١٧ـ ١١٩.

مصطنعات وتلفيقات هزيلة

هناك مزاعم اصطنعتها أصحاب شبهة التحريف، فحسبتها قرآناً وعلى شاكلته فيما زعموا ونسبوها الى الوحي سفهاً وحمقاً، وليست سوى تلفيقات هزيلة نسجتها عقول ضعيفة، لانظم لها ولا تأليف معروف، فضلاً عن ضحالة المعنى وضآلة المحتوى الى مستوى سحيق.

نعم تصانع الأخباريون مع إخوانهم الحشويين على اختلاق روايات وحكايات اساطيريّة عن سور وآيات زعموهن مُسقَطات من الذكر الحكيم... وبذلك حاول الفريقان قصارى جهدهم على هدم أساس الإسلام والإطاحة بصرحه الرفيع وحصنه المنيع... يا لها من عقليّة هزيلة وفكرة هابطة... إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً... كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قوي عزيز...! يريدون ليطفئوا نورالله بأفواههم والله متمّ نوره ولوكره الكافرون... وهانحن نعرض نماذج من سخائف تلكم المخاريق، لتكون هي بذاتها شاهدة صدق على ذلك البون الشاسع بين رفيع كلامه تعالى، والوضيع من تلك السقطات.

من ذلك ما اختلقته عقليّة برهميّة حاقدة على الإسلام والمسلمين هو صاحب (دبستان المذاهب)، فحسب فيما حسب في أوهام خياله، سورة قرآنية ساقطة من القرآن، ناسباً ذلك الى بعض فئات الشيعة نسبة عمياء، إذ لا أثرلها في أقلّ رسالة أو أدنى كتاب منسوب إليهم إطلاقاً، وإنّما هدرت منه من غير

هوادة، ولم يُعلم مستنده ولا الذي قصّ عليه هذه القصة الخيالية. نعم كان الرجل ذا شذوذ عقليّ مفرط يتقبّل كلّ ما يلقيه عليه المشعوذون ممّن أحسّوا منه هذا الشذوذ، فضلاً عمّا كانت تحمله ضلُوعُه من الحقد على ابناء الاسلام وكان يحاول مبلغ جهده الحثيث ولكن في ستار خبيث على تشويه سمعة الاسلام ليدس التحريف في عقائد الفرق والملل أيّاً كانوا وأيّ مذهب سلكوا، رغبةً في ترويج مذهب أبيه (آذركيوان) وكان قد دعا إليه منذ عهد أكبرشاه التيموري (٩٦٣-١٠١٤).

أمّا صاحب الدبستان، وإن اختلفت الآراء في معرفة اسمه ونسبه، لكن المحقّق هو (المُؤبّد كيخسرو اسفنديار) حفيد (آذركيوان ـ المتوفّى سنة ١٠٢٧هـ) مؤسس المذهب الكيواني. وكانت ولادة المؤلّف قبل موت جدّه ببضع سنين في مدينة (پتنه ـ من أعمال الهند) وعاش حتى ما بعد سنة السبعين بعد الألف، على مايظهر من تأريخات جاءت قيد الحوادث في كتابه الآنف.

وأوّل من أشاد بشأن كتابه هذا هو (فرنسيس غلادوين) الانجليزي ترجمه الى الانجليزية عام (١٧٨٩م). وفي عام ١٨٠٩ (في ذي القعدة ١٢٢٤هـ ق) طبع الكتاب بنصّه لأوّل مرّة في (كلكتا) بدستور من المندوب البريطانى في الهند (ويليام بيلي)...[١]

أمّا لماذا اهتمّ العجوز المستعمر بهذا الكتاب ونشره وطبعه؟! لأمر ما جدع قصيراً أنفه!

والسورة المزعومة هذه غير منسجمة اللفظ ولا ملتئمة المعنى الى حدّ بعيد، بما لا يقاس بكلام العرب فضلاً عن كلام الله المعجز. وإليك مقتطفاً من نصها:

«يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين انزلناهما يتلوان[٢] عليكم آياتي،

---

(١) راجع ما حققه الأُستاذ رحيم في المجلد الثاني من الكتاب المطبوع سنة ١٣٦٢ وقد ذكرنا بعض الكلام عنه عندالبحث عن شبهة التحريف.

(٢) كيف النور النازل يتلو الآيات؟!

ويحذّرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم. إنّ الذين يوفون بعهدالله ورسوله في آيات[١] لهم جنات النعيم. والذين كفروا من بعدماآمنوا بنقضهم ميثاقهم وماعاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم. ظلموا أنفسهم[٢] وعصوا لوصي الرسول، اولئك يسقون من حميم. إنّ الله الذي نوّر السماوات والأرض بمايشاء، واصطفى من الملائكة والرسل، وجعل من المؤمنين[٣]. أُولئك في خلقه يفعل الله مايشاء[٤]، لا إله إلّا هوالرحمان الرحيم.. قد خسرالذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضون[٥]... ولقد أرسلنا موسى وهارون، فبغوا هارون[٦] فصبر جميل... فاصبر فسوف يبصرون... وجعلنا لك منهم وصيّا لعلّهم يرجعون[٧]... إنّ علياً قانتاً بالليل، ساجداً يحذر الآخرة[٨] ويرجو ثواب ربّه. قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون[٩] سيجعل الأغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون. إنّا بشّرناك بذريّته الصالحين... فعليهم منّي صلوات ورحمة أحياء وأمواتا يوم يبعثون[١٠]. وعلى الذين يبغون عليهم من بعدك غضبي أنّهم قوم سوء خاسرين[١١][١٢]

والعجيب أنّ المحدّث النوري -مع معرفته بالعربيّة- استندها حجّة قاطعة على زعمه التحريف فيماروواه أهل الخلاف[١٣]... وليته تدبّرها ولم يتسرّع الى

(١) كيف الوفاء بعهدالله ورسوله في آيات؟!

(٢) ما محل اعراب هذه الجملة الفعلية، أهي خبرعن مبتدأ محذوف؟!

(٣) ما معنى «وجعل من المؤمنين»؟! (٤) ما معنى «أولئك في خلقه يفعل الله مايشاء»؟!

(٥) لماذا ارتفع خبركان؟! (٦) كيف يكون هارون مبغياً؟!

(٧) ما معنى «وجعلنا لك منهم وصيّاً لعلّهم يرجعون»؟! (٨) كيف انتصب خبر «إنّ» مرّتين؟!

(٩) بماذا يستوى الذين ظلموا... وكيف يعلمون بعذابه؟!

(١٠) لماذا كانوا امواتاً يوم يبعثون؟! (١١) لماذا نتصب نعت موصوف مرفوع؟!

(١٢) راجع دبستان المذاهب تحقيق رحيم رضا زاده ملك: ج١ ص٢٤٦-٢٤٧.

(١٣) فصل الخطاب: ص١٧٩ رقم (سح-٦٨) من الدليل الثامن.

قبول ماترفضه العقول.!

* * *

وحكي عن أبي موسى الأشعري عندما كبر وخرف في اخريات حياته السوداء أنّه كان يقول -في مجتمع قراء البصرة-: إنّا كنّا نقرأ سورة كنّا نشبّهها في الطول والشدّة ببراءة فأنسيتها، غير أنّي حفظت منها «لوكان لابن آدم واديان من المال لا بتغى وادياً ثالثاً، ولايملأ جوف ابن آدم إلّا التراب»، وزاد بعضهم: «ويتوب الله على من تاب».

قال: كنّا نقرأ سورة أُخرى نشبّهها بإحدى المسبّحات، فأنسيتها غير أنّي حفظت منها «يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم»... وزاد السيوطي: «فتسألون عنها يوم القيامة».

لا تدري كيف توافق المحدّث النوري[1] مع هذا العجوز الخرف في أوهامه وخرافاته، وقد قال تعالى: «وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ»[2]... وقد كان قد اشربّ في قلبه السفه والحمق من أُوليات حياته وإلّا فكيف يخفى على ذي حجى الفرق الواضح بين كلامه تعالى وهذا المختلق من ألفاظ وكلمات لامحتوى لها ولا ائتلاف. وليته نسي هاتين كمانسي غيرهما من بقية السورتين الموهومتين.

* * *

وأغرب من ذلك ما وهمه بشأن دعاءي القنوت المرويّين عن طرق العامّة، فحسبهما سورتين تحاكيان سور القرآن... والبون شاسع والفسحة واسعة بينهما وبين نظم القرآن وتراكيب ألفاظه...

وهما: «اللهمّ إنّا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولانكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك»... «اللهم إيّاك نعبدولك نصلّي ونسجد، وإليك نسعى

---

(١) فصل الخطاب: ص ١٧١ رقم (ب-٢). (٢) يس: ٦٨.

ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجدّ إنّ عذابك بالكفار ملحق...».

ونقل المحدّث النوري عن الإتقان: أنّ عمر بن الخطاب قنت بهما بعد الركوع[1]. ومع ذلك فقد زعمهما سورتين قرآنيّتين اسقطتا من المصحف الشريف، ياله من ضحالة الفكر.. يا للعجب «أليس منكم رجل رشيد؟!».

وأيضاً زعم من قول سلمة بن مخلد الأنصاري: آيتان لم تكتبا في المصحف، وهما: «إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم، القوم الذين غضب الله عليهم، اولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين، جزاء بما كانوا يعملون»... دليلاً على اختياره...[2].

لاندري ماهي المناسبة بين مفاتح الآيتين المزعومتين وخواتيمهما؟! وكيف خفي ذلك على مثل النوري العائش في أوساط عربيّة بسامراء يومذاك؟!

... الى أمثالها من سفاسف القول هي أشبه بمهازل الكلام... وقد ذكرنا تفاصيلها في مسألة (شبهة القول بالتحريف) وأبدينا أوجه التخلّص منها... وأنّها لا تعدو مزاعم زعمها أهل الحشو من أهل الحديث، وساندهم إخوانهم من الفئات الأخباريّة أصحاب العقول الساذجة! والله هو العاصم.

---

(١) فصل الخطاب: ص ١٧٢ برقم (و-٦).

(٢) المصدر: ص١٧٣ برقم (يج- ١٣).

مقارنة عابــرة

وأنّ مقارنة عابرة بين كلامـه تعالى النازل قرآناً، وبين كلام أفصح العرب المعـاصر للـنزول، لتجعـل الفرق بيّنـاً بينهما، وأن لامضاهاة هنـاك ولا تماثل، كمالا تنـاسب بين الثـريّا والثرى، ذاك نجم لامع وهذه أرض هـامدة، لايشبه أحدهما الآخر في شيء ومن ثم أذعنـت العرب بأنّه ليس من كلام البشر الذي تـعارفوه وكان في متناولهم يمارسونه نعم هوكـلام الله الوحي النازل على رسوله، هذا شيء كانوا قد لمسوه.

وقـد مرّت عـليـك نماذج مـن خُطَـب العـرب وأشعـارهم وكـانت من النمط الأرقى المعروفة يومـذاك . فإذا ماقارَنْتَـها مع آي القرآن الحكيم واسـلوبه البديع، تجد هذا الفرق بوضوح.

مـثلاً، هذا (قسّ بـن ساعدة الأيـادي)[1] ما تزال العـرب تفتـخر بجلائل خطبـه القديمة حتى اليـوم، في حين أنّها لا تعدو سرد ألفـاظ لافائدةفـي ذكرها سوى تـلـفيق سـجـع أو رعاية وزن، لاغير. وإلـيك من خطـبـه: «أيّها الـنـاس، اجتمعوا فاسمـعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ماهو آت آت. في هذه آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وامّـهات، وذاهب وآت، نجومٌ تَمُور،

(١) كان أخطب العرب وكان يضرب به المثل «أخطب من قُسّ بن ساعدة». يقال شهده النبي(صلى الله عليه وآله)وهو يخطـب في سـوق عكاظ، وقد اعترفـت الـعرب بفضله وبيـانه. راجع البيان والتـبيين للجاحظ: ج ١ ص٢٤٧.

وبحور لا تغور، وسقف مرفوع، ومِهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات ابراج.
مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون؟! أرَضُوا فأقاموا، أمْ حُبِسوا هناك فناموا.
يا معشر أياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، اين المعروف الذي لم يُشكر، والظلم الذي لم ينكر، اَقْسَمَ قُسٌّ قَسَماً بالله، أن لله دِيناً هو أرضى من دينكم هذا...».

* * *

هذا وقد أعجب صاحب كتاب (الإعجاز في دراسات السابقين) هذا الكلامُ العربيّ القديم فقال في وصفه: إنّه ثمرة من ثمار البلاغة العربيّة الطيّبة الناضجة.! وضربه مثلاً لما كان للعرب من خطب مفحمة وحكم رائعة معجبة، يترقرق عليها ماء الحُسن والملاحة، فيها روعة آسرة وجمال أخّاذ... الى آخرما يقول في تقريض بيان أسلافه أعراب البادية الأقحاح![1].

ولكن... ياترى، أيّة ميزة لهذا الكلام الذي يشبه كلام الكهنة في أسجاع متكلّف بها، وأرداف متمحّل فيها، ليس فيها تلك الروعة والجمال البارع الذي نجده في قوله تعالى من سورة الفجر: «ألَم تَرَ كيفَ فَعلَ رَبّكَ بِعادٍ. إرَمَ ذاتِ العِماد.التّي لَمْ يُخلَق مِثلُها في البِلاد. وثَمودَ الّذينَ جابُوا الصَّخرَ بِالوادِ. وفِرعَون ذي الأوتادِ. الّذينَ طَغَوا في البِلادِ. فأكثَروا فيها الفَساد. فَصَبّ عَليهم رَبُّكَ سَوطَ عَذاب. إنّ رَبّكَ لَبِالمِرصادِ...»[2].

إنّه تعالى ذكر الظالمين وأردف ذكرهم بما يهول من عظيم قدرتهم وخطير فسادهم في الأرض، وأخيراً كان مآلهم الى سياط الجحيم. يا أيّها الإنسان إنك كادح الى ربّك كدحاً فملاقيه. فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره.

هذا هو اسلوب القرآن في وعظه الحكيم، يهدّ الإنسان هدّاً، ويهزّ من

---

(١) الخطيب في الإعجاز: ص٥٠٣. (٢) الفجر: ٦-١٤.

مشاعره هزاً، ثمّ يهيمن عليه بسطوة بيانه وقوة كلامه في كلا تبشيره وإنذاره!

* *

وهذا امرؤ القيس، ألمع شعراء الجاهلية، نراه في أجود قصائده، قد ضاق به الكلام حتى لجأ الى غرائب الألفاظ الوحشيّة غير المأنوسة ولا مألوفة الإستعمال، كالعقنقل والسجنجل والكهنبل والمستشزرات وأمثالها ممّا تركها سائر العرب حتى عافتها كتب تراجم اللغة! الأمر الذي عيب على امرئ القيس.

كما عيب استعماله كلمات لاموضع لها ولا مناسبة مع مقصود شعره، قال ـ في مطلع قصيدته المعلّقة ـ :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

لم يقتنع في وصف المنزل بقوله «بسقط اللوى» حتى أكمل بيان حدوده الأربعة، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، كأنّما يريد بيع منزله، فيخشى أن أخلّ بحدٍّ منه أن يفسد بيعه أو يبطل شرطه، وما هذا إلّا تطويل بلا طائل، وهو من أكبر معايب الكلام.

وأيضاً فإنّه حاول إبكاء غيره ليرافقه في البكاء على فراق حبيبه، وهذا من السخف في الرأي، أن يدعو الأغيار الى التغازل مع عشيقته فلايغار، وهل يرضى صاحب حميّة أن يتواجد صديق له على من يهواه؟!

وأخيراً فما وجه تأنيث الضمير في «لم يعف رسمها» العائد الى المنزل، مؤوّلا الى الديار، كمازُعم! وهكذا في «نسجتها» بتأويل الريح. وكان الأولى هو التذكير، لأنّ الحمل على المعنى في غير المبهمات (كالموصولات) ضعيف في اللغة.

وأضعف منه زيادة «من» في الاثبات، فإنّه شاذّ في اللغة.

قال ابن هشام: شرط زيادتها تقدّم نفي أو نهي أو استفهام بهل. وزاد

الفارسي: بعد أداة الشرط أيضا. نعم أهمله الكوفيّون جريا على طريقتهم في اتباع الشواذ، ولا يقاس عليه في الفصيح. قال ابن مالك:

وزيد في نفي وشبهه فجرّ نكرة كما لباغ من مفرّ

واشتراط كون المدخول نكرة قال ابن هشام: لغرض إفادتها توكيد العموم في مثل «أحد» و «ديّار» وهما صيغتا عموم إذا وقعتا بعد النفي وشبهه. وهكذا جاء في القرآن الكريم، نحو «وما تسقط من ورقة». «ماترىٰ في خلقِ الرّحمٰن مِن تفاوتٍ». «هل ترىٰ مِن فطور».

أما لفظتا «جنوب» و«شمأل» فهما اسماخاص لايفيدان العموم ولاسيّما في الإثبات.

كما أنّ من شأن الرياح أن تعفو الآثار وتمحوها محواً، لا أن تستحكمها وتنسجها نسجاً كما نسجه امرؤ القيس في عقليّته الغائرة.!

قال الباقلّاني: وضرورة الشعر دلّته على هذا التعسف[1]!

* * *

ذكر السيد صدرالدين المدني بشأن حسن الابتداء، أنّ من شرائطه التأنّق في الكلام فيأتي بأعذب الألفاظ وأجزلها وأرقّها، وأسلسها سبكاً وأتقنها مبنىً وأوضحها معنىً. خالياً من الحشو والركاكة والتعقيد.

قال: وقد أطبق علماء البيان على أنّ القرآن في مفتتحات سوره ومطالع مقاطع آيه، أتى بأحسن وجوه الكلام وأبلغها، وأجودها سلاسةً، وأسبكها نظماً، وأوفاها بغرض البيان، وبذلك قد فاق الأقران.

يدلّك على ذلك مقارنته مع مطالع سائر الكلام من خطب وقصائد فصحاء العرب يومذاك.

هذا امرؤ القيس تراه مجيداً في الشطر الأوّل من مطلع معلّقته، حيث وقف

---

(١) إعجاز القرآن بهامش الإتقان: ج ٢ ص١٣- ١٥.

واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل. وهو من كثير المعنى في قليل اللفظ. لكنّه هبط كلامه في الشطر الأخير، حيث أتى بألفاظ لا طائل في ذكرها، سوى الإبعاد عن مقصود الكلام. فلا تناسب بين الشطرين من بيت واحد هو مطلع قصيدة قد جَدَّ فيها جِدّه، فيما زُعم.![1].

ومما عيب على امرئ القيس أيضاً قوله:

كأنيّ لم أركب جواداً للذّة ولم اتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزُقّ الرويّ، ولم أقلْ لخيلي كُري كرّةً بعد اجفال[2]

فإنّه قابل لفظتين بلفظتين مع عدم التناسب فكان فيه تكلّف.. قاله ابن رشيق.

قال: ومنهم من يقابل لفظتين بلفظتين، ويقع في الكلام حينئذ تفرقه وقلّة تكلّف، فمن المتناسب قول علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض كلامه: «أين من سعى واجتهد، وجمع وعدّد، وزخرف ونجّد، وبنى وشيّد» فاتبع كلّ لفظة ما يشاكلها، وقرنها بما يشبهها (وهذا من لطيف الكلام).

قال: ومن الفرق المنفصل قول امرئ القيس، وذكر البيتين...

قال: وكان قد ورد على سيف الدولة رجل بغداديّ يعرف بالمنتخب، لا يكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين، ولا يذكر شعرٌ بحضرته إلّا عابه، وظهر على صاحبه بالحجّة الواضحة، فأنشد يوماً هذين البيتين، فقال: قد خالف فيهما وأفسد، لو قال:

كأنّي لم أركب جوادا، ولم أقل لخيلي كرّي كرّة بعد اجفال
ولم أسبأ الزّق الرويّ للذّة ولم اتبطّن كاعبا ذات خلخال

---

(١) راجع أنوار الربيع: ج ١ ص ٣٥.

(٢) سبأ الخمر: شراها ليشربها. والزّق: الخمر. والرويّ من الشّرب: التام المشبع. وإجفال الخيل: نفوره وشروده.

لكان قد جمع بين الشيء وشكله، فذكر الجواد والكرّ في بيت، وذكر النساء والخمر في بيت! فالتبس الأمر بين يدي سيف الدولة، وسلّموا له ما قال!

فقال رجل ممّن حضر: ولا كرامة لهذا الرأي، الله أصدق منك حيث يقول:

«إنَّ لك أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ. وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ»[1].

فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظمأ. فسرّ سيف الدولة، وأجازه بصلة حسنة.

هذا... وقد حاول صاحب الكتاب تبرير موقف امرئ القيس في تفرقته هذه غير المتناسبة، وأتى بتكلّف وتأويل ظاهرين...

وأمّا الآية الكريمة فقد فنّد مزعومة القائل بأنّها نظيرة البيتين، قال: وأمّا احتجاج الآخر بقول الله عزّوجلّ فليس من هذا في شيء لأنّه تعالى أجرى الخطاب على مستعمل العادة، وفيه مع ذلك تناسب، لأنّ العادة أن يقال: جائع عريان، ولم يستعمل في هذا الموضع عطشان ولا ظمآن. وقوله تعالى: «تظمأ» و«تضحى» متناسب، لأنّ الضاحي هو الذي لا يستره شيء عن الشمس، والظمأ من شأن من كانت هذه حاله[2].

وأيضاً قوله:

وهرّ تصيد قلوب الرجال ... وافلت منها ابن عمرو حُجُر

قال ابن رشيق: وقد يأتي القدماء من الاستعارات بأشياء يجتنبها المحدثون ويستهجنونها، ويعافون أمثالها ظرفا ولطافة، وإن لم تكن فاسدة ولا مستحيلة، فمنها قول امرئ القيس ـ وذكر البيت ـ قال: فكان لفظة «هرّ» واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة، ولو أنّ أباه حُجرا من فارات بيته ما أسف على إفلاته

---

(١) طه: ١١٨-١١٩.

(٢) العمدة لابن رشيق: ج ١ ص٢٥٨- ٢٥٩.

منها هذا الأسف.

قال: واين هذا من استعارة زهير حين قال يمدح:

ليث بعثّر يصطاد الرجال اذا ماكذّب الليث عن اقرانه صدقا

لاعلى ان امرأالقيس أتى بالخطأ على جهته ولكن للكلام قرائن تحسنه، وقرائن تقبحه كذكر الصيد في هذين البيتين[١].

قال: ومثل قول امرئ القيس في القبح قول مسلم بن الوليد:

وليلة خُلست للعين من سنة هتكت فيها الصباعن بيضة الحجل

فاستعار للحجل -يعنى الكلل- بيضة، كما استعارها امرؤ القيس للخدر في قوله:

وبيضة خدر لايرام خباؤها تمتعت من لهوٍبها غيزمعجل

وكلاهما يعني المرأة، فاتفق لمسلم سوءالاشتراك في اللفظ، لأنّ بيضة الحجل من الطير تشاركها، وهي لعمري حسنة المنظر كما عرفت...[٢].

ثم ذهب في بيان الاستعارة وأنّها من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها فنزلت موضعها وهي كثيرة في القرآن[٣].

وكذا قوله في التشبيه لغرض المبالغة في التهويل:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومستَونة زرق كأنياب أغوال

وقد جاء نظيره في القرآن لغرض المبالغة في التقبيح:

«طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشياطين»[٤].

غير أنّ المشبّه به وقع في القرآن معرّفا وفي البيت منكراً، وهذا من عيب الكلام، إذ لاتهويل بشيء مجهول غيرمعروف. أمّا الآية فقد جاء التشبيه فيها بمالايشك أنّه منكر قبيح ...[٥].

---

(١) العمدة: ج ١ ص ٢٧١. (٢) المصدر: ص ٢٧٢. (٣) المصدر: ص ٢٦٨- ٢٧٥.
(٤) الصافات: ٦٥. (٥) العمدة: ج ١ ص ٢٨٨.

وكذلك في كثير من أشعاره نقد كثير، ذكره أهل الصناعة عرضا وفي طيّ كلامهم عن نكات ودقائق شعريّة أو أدبيّة، وربّما أتوا بشعر امرئ القيس واضرا به مثلا، ولو أرادوه غرضا لأصابوا منه الكثير في الكثير.. هذه حالة ألمع شعراء الجاهلية وعظيم العرب فصاحة وبياناً... ضربناه لك مثلاً، وعليه فقس من سواه...

أمّا القرآن الكريم فقد مضت عليه قرون متطاولة، وحاولت خصومه الكثير النيل منه بشتى الوسائل والحيل، فهل ساعدهم التوفيق أم باؤوا بالخيبة والفشل صاغرين، وأصبحوا العوبة إخوانهم الشياطين وأضحوكة الإنس والجنّ أجمعين.!

* * *

هذا... وقد تحمّس صاحب الدراسات[1] لهكذا أشعار ساقطة وتافهة في نفس الوقت وقد أخذته الحميّة الجاهليّة الأُولى، فقام مدافعاً عن موقف شاعر مستهتر خليع قضى حياته الكدرة في البذخ والترف والابتذال الشنيء...

إنّه صوّر من امرئ القيس شخصيّة تأريخية لامعة، قد حشّد في معلّقته الحياة العربيّة كلّها، ما تراه العين، وما ينبض به القلب، وماتقلّه الأرض، وماتسوقه السماء... وفي معلّقته مشاهد للحياة، كأنّك في مركب من مراكب الفضاء تطوف في الدنيا في مشارق الأرض ومغاربها في لحظات!

قال: وأقف بك عند مشهد صغير من تلك المشاهد التي تحفل بها هذه المعلّقة. في هذا المشهد يحدّث امرؤ القيس عن نفسه، حين وقف على أطلال الديار التي كانت يوماً ما تضمّ محبوبته فهاج ذلك ذكريات كثيرة عنده، كان أشدّها يوم ارتحلت مع قومها وهم يرتحلون، فوقف كما يقف المرء على ميّت عزيز له، يقول:

---

(١) عبدالكريم الخطيب في كتابه (الإعجاز في دراسات السابقين): ص١٣٠ فما بعد.

كـأنـيّ غـداة الـبين يـوم تحمّـلوا لـدى سـمـرات الحـيّ نـاقـف حنظل[١].

قـال: إنّك تجد من كـلّ كلمة من هـذا البيت مطلـعا من مطالع الروعة، ومدخلاً يدلف بك الى مشهـد من مشاهد الإنسان في صراعه مع عواطفه، فلا تـملك مـن نـفسك إلاّ أن تـعطـف على تـلك الـنفوس التي ذهـب بهـا الوجد وأحرقها الأسى.!

قلت: ولعلّ صاحبنا هذا هوناقف حنظل هواجسه، فجعل يهذو عن أبيات لاعذوبة فيها ولا روعة ولاجمال، وانّما هي بـيداءقاحلة لاغضاضة فيها ولاطراوة. والمعنى الذي أراده مفهوم عامّ يتصوّره كلّ عاميّ مسترسل.

* * *

وذكر ابن رشيق بشأن المبالغة: أنّ الـناس مختلفـون فيها، فمنهم من يؤثـرها ويقول بتفضـيلها ويراهـا الغاية القصـوى في الجودة، كما قيل: أشعـرالناس من استجيد كذبه[٢] ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيباً وهُجنة في الكلام.

قال بـعض الحذّاق بـنقد الشعـر: المبـالـغة ربما أحـالت المـعنى ولبسـته على السامع، فليسـت لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنّها لا تقع موقع القبول كما لايقع الاقتصاد وماقاربـه، لأنّه ينبغي أن يكـون من أهمّ أغراض الشـاعـر والمتكلّم أيضاً الإبانـة والإفصـاح وتقريـب المعنى على السامـع، فـإنّ العرب إنّما فضلّت بالبيـان والـفصاحة وحـلامنطقهـا في الصدور وقبلته الـنفوس لأساليب حسنة، وإشارات لطيفة، تكسبه بياناً وتصوّره في القلوب تصويراً.

فمن أحسـن المبـالغة وأغـربها عـند الحذّاق: التقصّـي، وهوبلوغ الشـاعر أو المتكلّم مايمكن من وصف الشيء، كقول عمروبن الأيهم التغلبيّ:

ونـكـرم جـارنـا مـادام فـيـنـا ونـتـبـعه الـكرامة حيـث كـانا

---

(١) البين: الفراق. والسّمرة: شجرضخم له شوك .وناقف الحنظل: هوالذي يشق الحنظل ليخرج ثمره المرّ.

(٢) نسبه ابن رشيق الى نابغة بني ذبيان.

ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات، وفي ذلك تهويلٌ مع صحّة لفظ لا تحيل معنىً، كقول الله تعالى:

«أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ»[١].

فأمّا الغلوّ فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة... ويقع فيه الاختلاف، من ذلك قول امرئ القيس:

كأنّ المدامَ وصوبَ الغمام ... وريحَ الخزامى ونشرَ القُطُر

يُعَلُّ به بردُ أنيابها ... إذا غرّد الطائر المستحر

فوصف فاها بهذه الصفة سحراً عند تغيّر الأفواه بعد النوم، فكيف تظنّها في أوّل الليل؟! فقد بالغ وأتى بالمستحيل، فكان كذباً صريحاً وهجنة في الكلام.

ومثل ذلك قوله يصف ناراً:

نظرت اليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تُشَبُّ لقُفال

وفيه من الإغراق ما يلحقه بالمستحيل، يقول: نظرت إلى نار هذه المرأة تشبّ لقفّال، والنجوم كأنّها مصابيح رهبان. وقد قال:

تنوّرتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

وبين المكانين بعد أيام، وإنما يرجع القُفّال من الغزو والغارات وجه الصباح، فإذا رأوها من مسافة أيام وجه الصباح وقد خمد سناها وكلّ موقدها فكيف كانت أوّل الليل؟!! وشبه النجوم بمصابيح الرهبان، لأنّها في السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع، لا سيّما مصابيح الرهبان، لأنّهم يكلّون من سهر الليل فربّما نعسوا ذلك الوقت[٢].

ومن أبيات الغلو قول مهلهل:

---

(١) النور: ٤٠.

(٢) العمدة لابن رشيق: ج ٢ ص ٥٥ـ ٥٦.

فلولا الريح أسْمِع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وقد قيل: إنّه أكذب بيت قالته العرب، وبين حجر- وهي قصبة اليمامة- وَبين مكان الوقعة عشرة أيام، وهذا أشد غلوّا من قول امرئ القيس في النار. لأنّ حاسّة البصر أقوى من حُاسّة السمع وأشد ادراكاً...

ومنها قول النابغة في صفة السيوف:

تَقُدُّ السلوقيَّ المضاعف نسجُه ويوقدن بالصُفّاح نار الحباحب[1]

وقد عيب على امرئ القيس -في شعره الآنف- مضافاً الى غلوّه في المبالغة، تعبيره عن أسنان حبيبته بالأنياب، لأنّها أوّلاً اسم للسنّ خلف الرباعيّة، وليست مطلق الأسنان. وثانياً أكثر استعمال الأنياب في الحيوانات الضارية المهولة، كماشبّه هوالسهام المسنونة بأنياب الأغوال في قوله:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

واستعار بعضهم الأنياب للشر، أنشد ثعلب:

أفرُّ حِذار الشّر، والشرّ تاركي وأطعنُ في أنيابه، وهو كالح[2]

وهكذا قُبّح تشبيه امرئ القيس بَنان حبيبته بالديدان الحمر الدقاق تعيش في الرمال، في قوله:

وتعطُو بَرخْص غير شَثْن كأنّه أساريعُ ظبي أومساويك أسحِلِ[3]

شبّه بنانتها بالأسروعة (دودة في الرمل) ليناً، وبياضاً، وطولاً، واستواءً، ودقّة، وحمرة رأس. قال ابن رشيق: كأنّه ظفر قد أصابه الحنّاء. وربّما كان رأسها أسود...

قال: إلّا أنّ نفس الحضري إذا سمع قول أبي نؤاس:

---

(١) العمدة: ج ٢ ص ٦٢. (٢) كلح وجهه: عبس وتكشّر.

(٣) تعطو: تتناول. برخص: أراد بنانا رخصاً ليناً. غيرشثن: ليس بخشن. والأساريع: جمع الأسروعة وهي دودة صغيرة تعيش في الرمال. ظبي: اسم موضع فيه رمل. أسحِل: شجر المخيطا تتخذ من عروقه مساويك كالاراك.

تعاطيكها كفّ كأنّ بنانها ... اذا اعترضتها العين صف مداري

أوقول الرومي:

أشار بقضبان من الدرّ قُمّعَتْ ... يواقيتَ حُمراً فاستباح عفافي[١]

أوقول ابن المعتز:

أشرن على خوف بأغصان فضّة ... مقوّمة أثمار هن عقيق

كان ذلك أنهش في نفسه وأحبّ إليها من تشبيه البنان بالدود في قول امرئ القيس...! نعم إذا كان ذلك في الهجو كان قريباً، كقول حسّان:

وأُمّكَ سوداء نوبيّة ... كأنّ أناملها الحُنْظُبُ

والحنظب ـ كقنفذ ـ بحاء مهملة: دابّة من خَشاش الأرض مثل الخنفساء[٢] قيل: هو ضرب من الخنافس طويل[٣].

وهل هذا التشبيه البشع في شعر امرئ القيس في وصف أنامل محبوبته وأسنانها، يشبه شيئاً من توصيفات جاءت في القرآن الكريم للحورالعين؟!!

انظر الى هذا الوصف الجميل:

«وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمثال اللّؤلُؤالمَكنُونِ»[٤].

«مُتّكِئين علىٰ فُرشٍ بَطائِنُها مِنْ استَبرَق وجَنىٰ الجنّتَينِ دان. فِيهنّ قاصِراتُ الطّرفِ لَم يَطمِثهُنّ إنسٌ قَبلهُم وَلاجانّ. كأنّهُنّ الياقُوتُ والمرجان»[٥].

«ومِن دُونِهما جَنتانِ. مُدهامّتانِ. فيهماعَينانِ نَضّاخَتانِ. فِيهما فاكِهةٌ ونَخلٌ ورُمّان. فِيهنّ خَيراتٌ حِسان. حُورٌ مَقصوراتٌ في الخِيام. لَم يَطمِثهُنّ إنس قَبلَهم ولاجانّ. مُتّكئين علىٰ رَفرفٍ خُضْرٍ وعَبقَريّ حِسان»[٦].

فقدجاء وصف جمالهنّ مقروناً بوصف عفافهنّ، ممّا هو أقرب الى النفس

---

(١) قمّعت المرأة بنانها بالحناء: خضّبتها.

(٢) الخشاش ـ مثلّثة ـ حشرات الأرض، واحدتها خشاشة.

(٣) العمدة: ج ١ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٤) الواقعة: ٢١ ـ ٢٢.

(٥) الرحمان: ٥٤ ـ ٥٨

(٦) الرحمان: ٦٢ ـ ٧٦.

وأرغب في غريزة حبّ الإختصاص التي جبلت عليها طبيعة الإنسان!

وقول أبي تمّام الطائي، يرثي خالدبن زياد الشيباني في قصيدة يمدح أباه فيها:

ويصعد حتى يظنّ الجهول بأنّ له حاجة في السماء

يريد من الصعود: الرفعة في القدر والمنزلة، لكنّه بنى على تناسي التشبيه فزعم أنّه يحاول الصعود الى السماء على حقيقته... وهذا التشبيه والتناسي خاليان من أيّ لطف وظرافة.!

وقايس بينه وبين قوله تعالى: «إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»(١) انظر الى جرس لفظه ولطف تعبيره...

وقوله تعالى: «رفيعُ الدَّرَجاتِ، ذُوالْعَرْشِ يُلقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ»(٢).

كلام خال من التشبيه، لكن ملؤه الأُبّهة والجلال والكبرياء، في حسن النظم وجودة التعبير...

قال ابن رشيق: واستبشع قوم قول الآخر يصف روضاً:

كأنّ شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء

فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً، فإنّ فيه بشاعة ذكر الدماء، ولو قال من العصفر(٣) مثلاً أوما شاكله لكان أوقع في النفس وأقرب الى الانس.

وكذلك صفتهم الخمر في حبابها بسلخ الشجاع(٤) وماجرى هذا المجرى من التشبيه فإنّه وإن كان مصيباً لعين الشبه فإنّه غير طيّب في النفس، ولا مستقر على القلب، ومن ذلك قول أبي عون الكاتب:

تلاعبها كفّ المزاج محبّة لها، وليجري ذات بينهما الأُنس

---

(١) فاطر: ١٠. (٢) غافر: ١٥. (٣) العصفر ـ كقنفذ ـ صبغ أصفر اللون.

(٤) الشجاع ـ مثلث الشين ـ: ضرب من الحيّات. وسلخها: كشط جلدها.

فتزبد من تيه عليها كأنها غريرة خِدر قد تخبّطها المسّ[١]

فلو أنّ في هذا كلّ بديع لكان مقيتاً بشعاً، ومن ذايطيب له أن يشرب شيئاً يشبّه بزبد المصروع وقد تخبّطه الشيطان من المسّ...

قال: وكأنّي أرى بعض من لا يحسن إلّا الاعتراض بلاحجّة، قد نعى عليّ هذا المذهب، وقال: ردّ على امرئ القيس، ولم أفعل، ولكنّي بيّنت أنّ طريق العرب القدماء في كثير من الشعر قد خولفت الى ماهو أليق بالوقت وأشكل بأهله ...[٢]

وقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العوّد[٣]

على أنّه تشبيه لا يلحق، ولا يشقّ غبار صاحبه. ولم يجد فيه المطعن إلّا بذكر السقيم، فإنّه رغب عن تشبيه المحبوبة به، وفضّل عليه قول عدي بن الرقاع العاملي:

وكأنّها وسط النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسم[٤]
وسنانُ أقْصَدَه النعاس فرنّقت في عينه سِنةٌ وليس بنائم[٥]

وأجرى الناس هذا المجرى قول صريع الغواني[٦] على أنّه لم يقع لأحد مثله وهو:

فلطّت بأيديها ثمار نحورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع[٧]

فهذا تشبيه مصيب جداً، الّا أنّهم عابوه بما بيّنت، وإنما أشار الى قول النابغة:

---

(١) الغرير والغريرة: الشابّ والشابة في مطلع شبابهما لا تجربة لهما في الحياة.

(٢) العمدة: ج ١ ص ٣٠١.

(٣) العود: جمع العائدة التي تعود المريض المترقب لها.

(٤) الجآذر: جمع الجوذر، ولد البقرة الوحشيّة.

(٥) وسنان: من غلبه النعاس، أقصده: طعنه فلم يخطئه. رنّق بالمكان: أقام فيه واحتبس به.

(٦) صريع الغواني: مجنونهنّ، كناية عن امرئ القيس.

(٧) لطّ الشيء: ستره. وثمار النحور كنايه عن الثديين.

ويَخْطِطْن بالعيدان في كلّ منزل ويَخْبأْن رمّانَ الثُّديّ النواهِدِ[١]

ومثله قول أبي محجن الثقفي في وصف قَيْنَةٍ:

وترفع الصوت أحيانا وتخفضه كما يطنّ ذُبابُ الروضة الغردُ[٢]

فأيّ قينةٍ تحبّ أن تُشبَّه بالذباب؟ وقد سرق بيت عنترة وقَلَبه فافسده[٣].

* * *

قال ابن رشيق في باب الاعتذار: وأجلّ ما وقع في الاعتذار من مشهورات العرب قصائد النابغة الثلاث، يقول في إحداهنّ:

نبئت أنّ أبا قابوس اوعدني ولا قرار على زأر من الأسد[٤]

ويقول في الثانية:

فلا تتركنّي بالوعيد كأنّني الى الناس مطلى به القار اجرب[٥]

ويقول في الثالثة ـ وهي أجودهن وأبرعهنّ ـ:

فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المُنتأى عنك واسعُ[٦]

قال: ومن ثمّ تعلّق بهذا المعنى جماعة من الشعراء منهم سلم الخاسر يعتذر الى المهدي:

وأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

قال ابن طاهر:

لأنّك لي مثل المكان المحيط بي من الأرض أنّى استنْهَضَتْني المذاهب

قال ابن رشيق: والى هذه الناحية أشار أبوالطيب بقوله:

ولكنك الدنيا اليّ حبيبة فما عنك لي إلّا إليك ذهاب

قال: إلّا أنّه حرف الكلم عن مواضعه.

---

(١) نهد الثدي: كعب وانتبر وأشرف. والثّديّ جمع الثدي.

(٢) غرّد الطائر: رفع صوته.

(٣) العمدة: ج ١ ص ٣٠٢.

(٤) زأر الأسد: صات من صدره.

(٥) القار: القير.

(٦) المنتأى: المبتعد.

قال: واختار العلماء لهذا الشأن قول علي بن جَبَلة:

وما لامرئ حاولته عنك مهرب ... ولو رفعته في السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدي لمكانه ... ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

قال: لأنّه قد أجاد، مع معارضته النابغة، وزاد عليه ذكر الصبح. قال: وأظنّه اقتدى بقول الأصمعي في بيت النابغة: ليس الليل أولى بهذا المثل من النهار...[1].

قال: وأفضل من هذا كلّه قول الله تعالى:

«يامَعْشرَ الْجِنّ والإنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِنْ أقْطَارِ السماواتِ و الأرْض فَانفُذُوا لاَتَنْفُذُونَ إلّا بِسُلْطان»[2].

وقال من اعتذر للنابغة: إنّما قدّم الليل في كلامه لأنّه أهول، ولأنّه أوّل، ولأنّ أكثر أعمالهم إنّما كانت فيه، لشدّة حرّ بلدهم، فصار ذلك عندهم متعارفاً...[3].

وعقد ابن رشيق باباً في أغاليط الشعراء والرواة، ذكر فيه مآخذ علماء الأدب على كثير من أشعار القدماء والمحدثين، فكان من ذلك ما أخذوه على قول زهير يصف ضفادع (شربات):

يخرجن من شربات ماؤها طحلٌ ... على الجذوع يَخَفْنَ الغمر والغرقا[4]

اذ لا تخاف الضفدعة من الغرق مهما كان غمر الماء. ! فقد غلط في هذا التوصيف...

واعتذر عنه بأنّه لم يرد خوف الغرق على الحقيقة، ولكنّها عادة من هرب من الحيوان من الماء، فكأنّه مبالغة في التشبيه، كما قال تعالى:

---

(١) العمدة: ج٢ ص١٧٦ - ١٧٩. (٢) الرحمن: ٣٣. (٣) العمدة: ج٢ ص٢٥١.

(٤) شربات: موضع قرب مكة، طحل الماء: فسد. والجذع: ساق النخلة. الغمر: الماء الكثير، وغمره الماء غمراً: علاه وغطاه.

«وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ»[١].

وقال: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ»[٢].

والقول فيهما محمول على «كاد». هكذا ذكر الحُذّاق من المفسرين. مع انّا نجد الأماكن البعيدة القعر من البحار لا تقربها دابة، خوفاً على نفسها من الهلكة، فكأنّه أراد المبالغة في كثرة ماء هذه الشربات...[٣].

قلت: فعلى هذا كان كلامه وصفاً للماء لا للضفادع، وعلى أيّ حال فإنّ استهداف هكذا أهداف حقيرة وهابطة كانت حصيلة تضايق آفاق الحياة العربيّة حينذاك، وأين ذلك من سعة آفاق مطالب القرآن ومقاصده العليّة في أوصافه وتشبيهاته وتمثيلاته.. وهل تناسبٌ بين قول زهير في هذا البيت، والآيتين الكريمتين...؟!! وإنّما يتفاخم الكلام ويتصاغر، بضخم موضوعه وصغره، وعلو مقصوده وسفله. الأمر الذي نجده فرقاً بيّناً بين مقصود الآيتين ومقصود زهير في البيت، بل بين القرآن كلّه وأشعار العرب الجاهلي كلّها.!

قال الأصمعي: وأخطأ زهير في قوله ـ في ذم الحرب والقتال ـ:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلُّهم كأحمر عاد، ثمّ ترضع فتفطم[٤]

حيث شبّه الغلمان المشائيم بعاقر ناقة صالح، الموصوف بالأحمر، واسمه قدار. لكن نَسَبَهُ الى عاد، وهو خطأ، وإنّما هو ثمود.

واعتذر عنه بأنّ ثمود هي عاد الثانية، كما جاء في قوله تعالى:

«وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولَى»[٥]

فهل قال تعالى هذا إلّا وثمّ عادٌ أُخرى؟ وهي هلكت بالنمل، من ولد قحطان..

---

(١) ابراهيم: ٤٦. (٢) الأحزاب: ١٠. (٣) العمدة: ج٢ ص٢٥١.

(٤) أشام: مبالغة المشؤوم. وأراد بأحمر عاد: أحمر ثمود، وهو عاقر الناقة، واسمه قدار بن سالف يقول: فتولد لكم أبناء في أثناء تلك الحروب كلّ واحد منهم يضاهي في الشؤم عاقر الناقة...

(٥) النجم: ٥٠.

لكن أنصارالأصمعي لايقرّون هذا الجواب، إذ لا يصادق عليه العارفون بالأنساب والتأريخ ووصف «الأُولى» في الآية معناه السابقة التي كانت قبل ثمود، وليس يدلّ على أنّ هناك عادين. والوصف إنّما أتى به للإيضاح لا للاحتراز..[١].

وضمّن ابن رشيق باب أغاليط الشعراء باباً ذكر فيه منازل القمر، وعلّل ذلك بأنّه رأى العرب -وهم أولع الناس بهذه المنازل وأنوائها- قد غلطوا فيها، فقال أحدهم: من الأنجم العزل والرامحة... وقال امرؤ القيس:

إذا ما الثّريّا في السماء تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح المفصل[٢]

فأتى بتعرّض الجوزاء، وهكذا كلّ من عُني بالنجوم من المحدثين واستوفى جميع المنازل مخطئ، لاشك في خلافه، لأنّه إنّما يصف نجوم ليلة سهرها، والنجوم كلّها لا تظهر في ليلة واحدة[٣].

قال الزوزني: يقول: أتيتها عند رؤية نواحي كواكب الثّريا في الأُفق الشرقي... ومنهم من زعم أنّه أراد الجوزاء فغلط وقال الثّريا، لأنّ التعرّض للجوزاء دون الثّريا. وهذا قول محمدبن سلام الجمحي[٤].

لكن اشكال ابن رشيق متوجّه الى أُولئك الشعراء الذين ذكروا مواقع النجوم دلائل على أوقات لقائهم للغواني أو سهرهم الليالي على طول الزمان وفي كلّ ليلة باستمرار. الأمر الذي يخالف مطالع النجوم الفصليّة غير المستديمة...

وإذا كان العرب المعنيّون بمطالع النجوم ومغاربها قد أخطؤوا في تمثلاتهم الشعريّة هكذا أخطاءً فادحة، فماظنك بسائر الشعراء وغيرهم من المحدثين.؟!

---

(١) هامش العمدة: ج ٢ ص٤٢٦.

(٢) التعرّض: الاستقبال وإبداء العرض. والمفصّل: الذي فصل بين خرزه بالذهب أو غيره. يقول: تجاوزت إليها في وقت إبداء الثريّا عرضها في السماء كإبداء الوشاح- وهي الجواهر للزينة- الذي فصل بين جواهره وخرزه بالذهب أو غيره عرضة.

(٣) العمدة: ج ٢ ص ٢٥٢.

(٤) شرح المعلّقات للزوزني: ص١٨.

الأمر الذي تحاشا عنه القرآن الكريم، في حين كثرة تعرّضه لمواقع النجوم... وهذا أيضاً شاهد صدق من آلاف الشواهد على امتياز القرآن عن سائر الكلام وارتفاعه عن نمط كلام العرب الأوائل والأواخر جميعاً.

وذكر ابن الأثير للاعتراض ضروباً ثلاثة:

أحدها: أن تكون فيه فائدة والغالب هو توكيد الكلام وترصينه. وقدورد في القرآن كثيراً، وذلك في كلّ مورد يتعلّق بنوع من خصوصيّته المبالغة في المعنى المقصود. من ذلك قوله تعالى: «فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ.إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ»[1] وذلك اعتراض بين القسم وجوابه. وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف وصفته وهو قوله «لَوْ تَعْلَمُونَ». فذانك اعتراضان كما ترى.

ومثله قوله تعالى: «وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ البَنَاتِ سبْحانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ»[2].

وهكذا غيرهما من آيات كثيرة في القرآن، كلّها من القسم المفيد فائدة التوكيد. والضرب الثاني: مالا فائدة فيه كمالامفسدة فيه أيضاً. من ذلك قول النابغة:

يقول رجال يجهلون خليقتي　　　لعلّ زيادا ـ لاأبا لك ـ غافل[3]

فقوله «لاأبالك» ممّا لا فائدة فيه ولا حسن ولا قبح.

وهكذا قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش　　　ثمانين حولا ـ لاأبالك ـ يسأم

لكن وردت هذه اللفظة في قول أبي همام حسنة:

«عتابك عنّي ـ لا أبالك ـ واقصدي».

فإنّه لمّا كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذمّ.

---

(١) الواقعة: ٧٥ـ ٧٧.　　(٢) النحل: ٥٧.　　(٣) الخليقة: السجيّة.

الضرب الثالث: الاعتراض المفسد وهوالمذموم المخلّ بفهم المقصود فيعقّده تعقيداً، وأمثلة ذلك في باب تقديم ما حقّه التأخير وتأخير ماحقّه التقديم كثيرة، وقد أولع بها الشعراء المتكلّفون، فمن ذلك قول بعضهم:

فقد -والشك- بيّن لي -عناء بوشك فراقهم، صرد يصيح[١]

قال ابن الأثير: فإنّ هذا البيت من رديء الاعتراض ماأذكره لك، وهوالفصل بين قدوالفعل الذي هو «بيّن لي» وذلك قبيح لقوّة اتّصال «قد» بالفعل المدخول عليه، بحيث يعدّ جزءً متّصلا به.

وأيضا فصل بين المبتدأ الذي هوالشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله «بيّن لي». وفصل بين الفعل الذي هو «بيّن» وبين فاعله الذي هو «صرد» بخبر المبتدأ الذي هو عناء، فجاء معنى البيت كماتراه مشوّها ومشوّشاً، كأنّه صورة مشوّهة قد نقلت اعضاؤها بعضها الى مكان بعض[٢]

وجعل أيضا يمثل بأبيات شعريّة من العرب القديم، لعلّناأتي عليها وعلى أمثالها في سائر أبواب البلاغة والبديع في قسم الدلائل على إعجاز القرآن، وهو القسم الثاني من الكتاب إن شاءالله تعالى.

ولعلّني في هذا العرض العريض قد أسهبت وخرجت عن حدّ الاعتدال المتناسب مع وضع الكتاب... غير أن تحمّسات قوميّة، واخرى سفاسف كلاميّة، ربّما كانت تحاول رفع منزلة كلام العرب الأوائل بما يضاهي سبك القرآن ونظمه البديع... فكان هذا وذاك من أخطر الأساليب لوهن موضع إعجاز هذا الكلام الإلهي وخرقه للمعتاد! والعياذ بالله.

هذا مادعاني الى التكثير من شواهد الباب، وإلّا فلا داعي للتعرّض لأشعار لا محتوى لها ولا وزن في عالم الكلام والاعتبار.! والله الهادي.

---

(١) أصل تركيب الكلام: فقد بيّن لي صردٌ يصيح بوشك فراقهم، والشك عناء.

(٢) المثل السائر لابن الأثير: ج٣ ص٤٠-٤٨، وج٢ ص٢٢٧.

أجواء مفعمة بالأدب الرفيع
أحاطت بعهد نزول القرآن

شعراء مخضرمون:

ولعلّنا لم نبالغ إذا قلنا بأنّ العرب الأُول قد حُظُوا من رفعة الأدب وسمو البلاغة وطلاقة اللسان مالم يُحظَوا فيما بعد من أدوار التأريخ، مهما توسّعوا في الاضطلاع بقواعده والإشادة بمبانيه ومبادئه، إنّهم -على بداوتهم- كانوا خلصاء وكانوا يعتمدون قرائحهم الصافية وأذواقهم السليمة الصافية، لا تعمّل فيها ولا تكلّف ممّا صنعه المتأخّرون.

كانت البلاغة حينذاك هي بضاعة العرب الوحيدة وصناعتهم الفريدة، ومن ثمّ كانوا قد أحكموا من مبانيها وأتقنوا من أُصولها وفروعها قريحةً وسليقةً لا دراسةً وتعلّماً، فكانت بالذاتيات الراسخة أشبه منها بالعرضيات الزائلة.

وفي هذا الجوّ المفعم بالأدب الرفيع، نزل القرآن الكريم، فبدلاً من أن يسطو عليه المحيط الغالب: نراه قد تغلّب على البلاد، واستولى على معالمها، وهزم أبطالها، وأباد عساكرها، وتسنّم العرش وسيطر على الآفاق...

ونحن في هذا العرض نقتصر على جانب من هذا الجوالسائد، جانب الشعر والشعراء ممن أدركوا الجاهليّة والإسلام، وكانوا على مستوى عال، أصحاب طلاقة بيان وذلاقة لسان، سواء منهم من آمن ومن بقي على جهله القديم، وهم الأقلّ...

وقد عمدنا الى ألمع شعراء العرب المخضرمين، وفيهم أصحاب المعلّقات

والمذهّبات، والشعراء الفرسان، والحكماء، والوصّافون، والهجّاؤون، ومن شاكلهم ممّن كانت القبائل تهاب موقفهم وتخشى ألسنتهم الحداد، وكانوا على قدرة من تصريف الكلام.

نعم كان للشعر والشاعرية مكانة سامية عندالعرب، كانوا يهتمّون بشعرائهم كما يهتمون بقادتهم وزعمائهم في السلم وفي ميادين القتال. كان الشعراء قادة الفكر وقادة السياسة والحرب، كانوا حماة أعراضهم وحفظة آثارهم ونقلة أخبارهم. وكان شاعر القبيلة لسانها الناطق وكاتبها الرسمي (كالصحفي اليوم) في كلّ مايتعاطونه من تبادل ثقافات وتعرّف حضارات وتدخّلات سياسية وغيرها من شؤون الحياة العامّة. والخلاصة: كان الشاعر يومذاك دعامة الحياة العربيّة في تلك الصحراء الجرداء...

هذا... وقد نزل القرآن مجابهاً بهذا النمط من الأوساط الرفيعة المقام، العالية الشأن، أصحاب حول وقوّة وبيان، فعارضهم فلم يكن منهم سوى استسلام وانقياد أوانهزام وصغار! وإليك من كبرائهم:

١ـ أعشى بني قيس بن ثعلبة:

اسمه ميمون بن قيس بن جندل بن بكربن وائل من ربيعة.

هو أحد الأعلام من شعراء الجاهليّة وفحولهم. والبعض يقدّمونه على سائرهم إذا طرب كما يتقدّم امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رَهب، وزهير إذا رغب[(١)]. ويحتجّ المقدّمون له بكثرة طواله الجياد وتصرّفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر والكلام ممّا ليس لسواه. ولم يكن يمدح قوماً إلّا رفعهم ولم يَهْجُ قوماً إلّا وضعهم، لأنّه من أسيرالناس شعراً وأعظمهم فيه حظّاً[(٢)].

وهو صاحب معلّقة مطلعها:

---

(١) الأغاني: ج٨ ص٧٧.

(٢) العمدة لابن رشيق: ج٢ ص١٤٦.

ما بكاء الكبير في الأطلال　　وسؤالي وما تردّ سؤالي[١]

وله ديوان مخطوط.

وقد سمع الأعشى بمبعث النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقصده بقصيدة يمدحه فيها يريد الإسلام مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا　　وبتّ كما بات السليم مسهّدا[٢]

وماذاك من عشق النساء وإنّما　　تناسيت قبل اليوم صحبة مَهْدَدا[٣]

الى أن يقول ـ موجّهاً خطابه الى ناقته ـ:

وآليت لاآوي لها من كلالة　　ولا من حَفَىً حتى تلاقي محمداً[٤]

متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم　　تُراحِي وتَلْقَى من فواضله ندى[٥]

نبياً يرى مالا ترون وذكرُه　　أغار لعمري في البلاد وأنجدا[٦]

له صدقات ما تغبّ ونائل　　وليس عطاء اليوم مانعه غدا[٧]

أجدك لم تسمع وصاة محمد　　نبيّ الإله حيث أوصى وأشهدا

إذا انت لم ترحل بزاد من التقى　　ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدا[٨]

ندمت على أن لا تكون كمثله　　فترصد للأمر الذي كان أرصدا[٩]

---

(١) الأطلال: جمع طلل ـ بفتحتين ـ بمعنى الموضع المرتفع والشاخص من الآثار.

(٢) الأرمد: الذي يشتكي عينيه من الرمد. والسليم: الملدوغ. والمسهّد: الذي حرم من النوم.

(٣) مهدد: اسم امرأة بفتح الميم على وزان دحرج.

(٤) لاآوي: لااشفق ولا أرحم. ويروى: لاأرثي. وهومعناه. والكلالة: الإعياء. أي حلفت أن لا اشفق على نفسي تعبها حتى... والحفى: تورّم القدم من كثرة المشي، ومشي بلاخف ولانعل.

(٥) اناخ الجمل: أبركه. وتناخي من باب القلب أصله: تناوخ. وتراحي أيضا مقلوب تراوح بمعنى تجد الراحة. والندى: الخير.

(٦) أنجده: أعانه.

(٧) غب: بعدَ.

(٨) تزود: اتخذ زاداً.

(٩) أرصد له: اعدله.

وذاالنصب المنصوب لا تنسكنّه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا[١]
وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

وجعل يعدّد من فضائل الأخلاق ومحاسن السلوك ...

فلمّا كان بمكة أو قريباً منها اعترضه نفر من قريش فيهم أبوسفيان وكان قد حرّضهم على إرضائه بالرجوع، خوفاً من أن يسلم على يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيشيع إسلامه، فينصر رسول الله (صلى الله عليه وآله) على قريش بشعره فحاولوا ردّه أوّلا بكلام فلم ينفعه، ثم جعلوا له مائة من الإبل فأخذها ورجع، قائلاً: لكني منصرف فأتروّى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم. قال ابن هشام: فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد الى رسول الله (صلى الله عليه وآله)[٢]

٢ـ لبيدبن ربيعة العامري:

هو أبوعقيل لبيدبن ربيعة من هوازن قيس. قال الزوزني: كان من الشعراء المعدودين في الجاهلية. ومعلّقته هي الرابعة من المعلّقات السبع. وهو يتفوّق على زملائه أصحاب المعلّقات بإثارة تذكارات الديار القديمة وتحديد المحلّات في أثناء السفر، حتى ليمكن دارس شعره أنّ يعيّن بالاستناد الى بعض قصائده دليل رحلة من قلب بادية العرب الى الخليج الفارسي[٣].

يقال: إنّه عمّر (١٤٥) سنة عاش معظمها ـ(٩٠) سنةـ في الجاهلية. كان من أشراف الشعراء والفرسان المجيدين. وقد ادرك الإسلام وهاجر وحسن إسلامه، ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات في أوائل خلافة معاوية.

وكانت الشاعريّة بادية على محيّاه منذ صباه... ذكروا أنّ النابغة الذبياني

---

(١) النسك: العبادة والطاعة.
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص٢٨ وراجع تأريخ الآداب: ج ١ ص١١٩. (٣) شرح المعلّقات: ص٩٠.

رآه وهو غلام مع أعمامه وفدوا على النعمان بن المنذر، فتوسّم فيه الشاعرية، فسأل عنه فنسبوه، فقال له: يا غلام، إنّ عينيك لعينا شاعر. أفتُقرض[1] من الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا عم، قال: فأنشدني، فأنشده «ألم ترجع الى الدمن الخوالي... الخ». فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر ، زدني، فأنشده: «طلل حولة في الرسيس قديم... الخ». فضرب بيده على جبينه، وقال: اذهب فأنت أشعر من قيس كلّها.

وأكثر شعره في الجاهلية، فقد شغله القرآن عن الشعر بعد الإسلام ذكروا أنّ عمر بعث الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة، يقول له: استنشد من قبلك من شعراء مصرك ماقالوا في الإسلام. فأرسل الى الأغلب الراجز العجلي، فقال له: أنشدني، فقال:

أرجزاً تريد أم قصيداً لقد طلبت هيّنا موجوداً

ثمّ أرسل الى لبيد، فقال: أنشدني ما قلته في الإسلام، فكتب سورة من القرآن في صحيفة ثم أتى بها وقال: أبدلني الله هذا في الإسلام مكان الشعر.

فكتب المغيرة بذلك الى عمر،فنقص من عطاء الأغلب وزاد في عطاء لبيد خمسمائة.

وكان لبيد من أجواد العرب، يقال أنّه آلى على نفسه في الجاهلية أن لاتهبّ صبا إلا أطعم. وكان قد أدامه في الإسلام، كانت له جفنتان يغدوبهما ويروح في كلّ يوم على مسجد قومه فيطعمهم، حتى كان أيام الوليد بن عقبة، فقرب مهبّ الصبا وهو مملق لايستطيع الوفاء بنذره. فبلغ ذلك الوليد، فبعث إليه مائة بكرة من الإبل، وكتب إليه بأبيات مطلعها:

أرى الجزّار يشحذ شفرتيه إذا هبّت رياح أبي عقيل... الخ

فلمّا بلغت أبياته لبيداً، قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشت برهة وما

---

(١) قرض الشعر يقرضه ـ من باب ضرب يضرب ـ: قاله.

أعيي بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبّت رياح أبي عقيل ... دعونا عند هبّتها الوليدا

الى أن تقول:

أبا وهب جزاك الله خيراً ... نحرناها فاطعمنا الثريدا

فعد إنّ الكريم له معاد ... وظنّي ـ لاأبالك ـ أن تعودا

فقال لها لبيد: قد أحسنت، لولا أن استطعمتيه! فقالت: إنّ الملوك لايستحى من مسألتهم. فقال: وأنت يا بنيّة في هذه أشعر.

ومما يستجاد من شعره، قصيدة مطلعها:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل ... وكلّ نعيم لامحالة زائل

وكلّ امرىءٍ يوماً سيعلم سعيه ... إذا كشفت عند الاله المحاصل [1]

قال ابن حجر: وقد ثبت ان النبي (صلى الله عليه وآله) قال: أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد هذه. قال المرزباني في معجم الشعراء: قالها النبي (صلى الله عليه وآله) على المنبر[2].

ويقال: إنّه لم يقل في الإسلام إلّا بيتاً واحداً، هو:

الحمد لله أن لم يأتني أجلي ... حتى اكتسيت من الإسلام سروالا

ولكن استشهد ابن هشام في تفسير كلمة «ندّ» بشعر لبيد:

أحمد الله فلا نِدَّ له ... بيديه الخير ماشاء فعل

قال: وهذا البيت في قصيدة له[3]. ونفي المثل ممّا لايقول به مشرك.

وله ديوان، مطبوع.

أمّا معلقته فمطلعها:

عفت الديّار محلّها فمقامها ... بمنًى تأبّد غولها فرِجامُها[4]

---

(١) المحصل: وعاء للمَصْل وهو من اللّبن ونحوه مايستخرج ماؤه.

(٢) الإصابة: ج٣ ص٣٢٧. (٣) سيرة ابن هشام: ج٢ ص١٨١.

(٤) عفت أي ذهبت آثارها، المحل من الديار: ما حلّ فيه لأيام معدودة. والمقام منها: ما طالت الإقامة ←

وهي تشتمل على تصوير قصصي جميل، وكان في تشبيهاته القصصيّة صادقا في عاطفته، وقد أظهر في وصفه مقدرة نادرة في دقته وإسها به والاحاطة بجميع صورالموصوف [١].

ولبيد لم يزل معادياً للإسلام معانداً، فكان ممّن تأخر في إسلامه، حتّى اضطرت به الظروف، كسائر كبراء قريش.

وهوالذي عارضه عثمان بن مظعون وهو ينشد في مجلس من قريش، وذلك بعد أن تخلّى عثمان من جوار الوليد بن المغيرة كراهة ان يُذِمَّه مشرك . فصادف في منصرفه لبيداً ينشد هذا الشعر: «الا كل شيء ماخلا الله باطل». فقال عثمان: صدقت. ثم قال: «وكلّ نعيم لا محالة زائل». فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لايزول.

قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إنّ هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله! فردّ عليه عثمان حتى شرى أمرهما [٢] فقام إليه الرجل فلطم عينه فخضّرها [٣].

ولـمّا كانت سنة التسع وهي سنة الوفود، وقد افتتح رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكة، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت، أتته وفود العرب مستسلمة من كلّ وجه، لأنّ العرب كانت تربّص بالإسلام أمر قريش، فلمّا دانت له قريش ودوّخها الإسلام وعرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولاالبقاء على عداوته، هرعوا يدخلون في دين الله أفواجاً، يضربون، إليه من كلّ صوب ومكان.

ومن جملة الوفود وفد بني عامر، وفيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس،

به. ومنى: موضع غيرمنى الحرم. تأبّد: توحش. الغول والرجام: جبلان معروفان.

(١) الزوزني: ص ٩٠. (٢) أي اشتد وعظم الجدال. (٣) أي جعل عينه خضراء من شدة اللطمة.

وجبّار بن سلمى. وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.

فقدم عامر، عدو الله، يريد الغدر برسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد قال له قومه: يا عامر، أسلم فإنّ الناس قد أسلموا. قال: لقد كنت آليت أن لا انتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفانا اتبع عقب هذا الفتى من قريش.

فتواطأ عامر مع أربد في قتله (صلى الله عليه وآله) غيلة، لكنّه لم يوفق، فقد أصّر على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يخلو به ليغدر به، لكنّه (صلى الله عليه وآله) أبى إلّا أن يؤمن بالله أوّلا. فأبى عامر وهدّد رسول الله (صلى الله عليه وآله) قائلا: لأملأنّ المدينة عليك خيلاً ورجالاً، وولّى لوجهه.

فلمّا خرجوا من عنده (صلى الله عليه وآله) راجعين الى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر الطاعون في عنقه، فهلك في بيت امرأة من بني سلول.

فجعل يقول: أغدّة كغدّة الإبل، وموتاً في بيت سلولية؟!

وأمّا أربد، فلمّا قدم على قومه، قالوا: ماوراءك يا أربد؟ قال: لا شيء، لقد دعانا الى عبادة لوددت أنّه عندي الآن فأرميه بالنبل. فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فارسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

وكان أربد بن قيس هذا أخاً للبيد بن ربيعة لأُمّه.

ولما بلغ لبيداً ما أصاب أربد من عذاب الله وسخطه، رثاه وبكى عليه في قصائد مطنطنة، وأبيات شعر كثير، يكبر من قدره ويعظّم من شأنه، ممّا يكشف عن خصومته للإسلام الذي اذلّ اعزّه الجاهلية من اهل الشرك والإلحاد [1].

هذا لبيد، مع شدة خصومته مع الإسلام و طول معارضته مع المسلمين في أكثر من عشرين عاماً، ومع قدرته الفائقة في نظم الشعر والقريض والإيفاء

---

(١) راجع سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٠٥ وص ٢١٣-٢١٩.

بكلام فصيح، أنّه لم يستطع بل لم يفكّر يوماً في معارضة القرآن بالبيان.

وأما إسلامه فكان على أثر جدب أصاب مضر، بدعوة النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم. فوفد عليه وفد قيس، وفيهم لبيد، فانشده:

أتيناك يا خير البريّة كلّها لترحمنا ممّا لقينا من الأزل[١]

أتيناك والعذراء تدمي لبانها وقد ذهلت أم الصبي عن الطفل[٢]

فإن تدع بالسقيا و بالعفو ترسل السماء لنا، والأمر يبقى على الأصل[٣]

وألقى لكنيته الشجاع استكانة من الجوع صمتا بالمرء ولا نخل[٤]

وروى ابن هشام بإسناده الى ابن عباس، قال: بايع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من قريش وغيرهم، فأعطاهم يوم الجعرانة من غنائم حنين[٥].

قال ابن اسحاق: وأعطى المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشراف الناس، يتألّف بهم قومهم. فأعطى من بني قيس جماعة منهم: لبيد بن ربيعة[٦].

٣- عبدالله بن الزبعرى:

عبدالله بن الزبعرى بن قيس القرشي السهمي. قال ابن حجر: كان من

---

(١) الأزل- بفتحتين- : القدم ومالا نهاية له. كناية عن التقدير فيما كان تعتقده العرب في مسألة القدر.

(٢) اللبان- بفتح الأول- : الصدر أو خصوص مابين الثديين.

(٣) يبق على الأصل، أي يرجع الى أصلها قبل الجدب.

(٤) الاصابة: ج ٣ ص ٣٢٧. والإستكانة هي: الذلّ، يريد: أنّ الشجاع يتخلّى عن كنيته، لأنّ التكنية تعظيم. وحال يحول: تحوّل وتحرك.

(٥) الجعرانة: موضع قرب مكة. قال ياقوت: ماء بين الطائف ومكة وهي الى مكة أقرب. نزلها النبي (صلى الله عليه وآله) لـمّا قسّم غنائم هوازن، مرجعه من غزاة حنين. وأحرم منها. وله فيها مسجد (معجم البلدان: ج ٢ ص ١٤٢). ثم جمعت الى رسول الله سبايا حنين وأموالها. وأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالسبايا والأموال الى الجعرانة فحبست بها. (أيام العرب في الإسلام جرجي زيدان: ص ١١١) وراجع سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ١٣٠-١٣١.

(٦) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٣٥ و١٣٧ و١٣٨ والإصابة: ج ٣ ص ٣٢٧.

أشعر قريش، وكان شديداً على المسلمين، ومواقفه في الحروب ضدّ الإسلام مشهورة، وكان ذا حنكة ورأي عند قريش. قال المرزباني: كان شاعر قريش[١].

قال ابن الأثير: وكان من أشدّ الناس على رسول الله(صلى الله عليه وآله) في الجاهلية وعلى أصحابه، وكان يناضل عن قريش ويهاجي المسلمين وكان من أشعر قريش[٢]. وله سابقة شعر قديمة، وهو القائل في وقعة الفيل:

تنكّلوا عن بطن مكة إنّها ... كانت قديما لايرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالي حرّمت ... إذ لاعزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستّون ألفالم يؤوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها[٣]

وهو القائل يبكي قتلى المشركين ببدر:

ماذا على بدر وماذا حوله ... من فتية بيض الوجوه كرام

الى آخر أبياته يرثيهم بأسمائهم[٤].

وقال في وقعة أُحد:

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنّما تنطق شيئاً قد فعل
إنّ للخير وللشرّ مدى ... وكلا ذلك وجه وقبل
كم قتلنا من كريم سيّد ... ماجد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
فقتلنا الضعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل[٥]

... الى آخر الابيات. وهي التي تمثّل بها يزيد بن معاوية، حينما أتته

---

(١) الإصابة: ج ٢ ص ٣٠٨. (٢) أُسد الغابة: ج ٣ ص ١٥٩. (٣) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٥٩.
(٤) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ١٦. (٥) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ١٤٣.

رؤوس شهداء الطف وأسارى أهل البيت (عليهم السلام).

وقال يرثي قتلاهم في قصيدة طويلة مطلعها:

الا ذرفت من مقلتيك دموع   وقد بان من حبل الشباب قطوع[١]

وقال في يوم الخندق:

حيّ الديار محا معارف رسمها   طول البلا وتراوح الأحقاب

الى أن يقول:

جيش عيينة قاصد بلوائه   فيه وصخر قائد الأحزاب

لولا الخنادق غادروا من جمعهم   قتلى لطير سغّب وذئاب[٢]

وهكذا لم يدع مناسبة الّا حمل على المسلمين آخذاً بجانب المشركين.

قال ابن اسحاق: لما فتح رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكّة، هرب هبيرة بن أبي وهب، وعبدالله ابن الزبعرى، الى نجران[٣] قال: رمى حسّان بن ثابت، عبدالله بن الزبعرى ـ وهو بنجران ـ ببيت واحد، مازاده عليه:

لا تَعْدَمَنْ رجلا أحلّك بُغضُه   نجران في عيش أحذَّ لئيم[٤]

وفي رسالة بجير الى أخيه كعب يحذّره غضب الرسول (صلى الله عليه وآله) «إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قتل رجالاً بمكة ممّن كانوا يهجونه ويؤذونه، وإن بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب، قد هربوا في كلّ وجه ...»[٥].

قال ابن اسحاق: فلمّا بلغ ذلك ابن الزبعرى، خرج الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأسلم، وقال حين أسلم:

---

(١) المصدر: ص١٤٨.   (٢) المصدر: ص٢٦٩.

(٣) الاصابة: ج ٢ ص٣٠٨.

(٤) يريد: لا يفوتنك عطف من أبغضته أي محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعني: ادرك رحمته إن عدت تائباً ومسلماً.

(٥) سيرة ابن هشام: ج٤ ص١٤٤.

يـا رسـول المـلـيـك إنّ لسـاني — راتـق مـا فـتـقـت إذ أنـا بـور[١]
إذاً اباري الشيطـان فـي سـنـن — الغي ومن مال ميـلـه مـثـبور[٢]
آمـن الـلـحـم والـعظـام لـربّـي — ثم قلبي الشهـيـد أنـت الـنـذيـر
إنّني عـنـك زاجـرٌ ثُـمَّ حـيّـاً — مـن لـؤيّ وكـلّـهـم مـغـرور

وله قصيدة أُخرى أطول منها أيضا قالها حينما أسلم، مطلعها:

مـنـع الـرقـادَ بـلابـلٌ وهمومُ — والـلـيل معـتـلـج الرواق بهيم[٣]
مـمّـا أتـاني أنّ أحمـد لامني — فـيـه فـبـتّ كـأنني محـمـوم
يا خير من حملت على أوصـالها — عَيْـرانَةٌ سُرُحُ الـيـديـن غَشُوم[٤]
إني لمعـتـذر إليـك مـن الـذي — أسديت إذ أنا في الضلال أهيـم[٥]

٤ـ هبيرة بن أبي وهب:

قال ابن إسحاق: وأمّا هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأقام بها حتى مات كافراً، وكانت زوجته أُمّ هاني بنت أبي طالب، واسمها هند. فلمّا بلغه أنّها أسلمت فيمن أسلمن من نساء قريش، قال مغضباً ومتغيّراً:

اشـاقـتـك هـنـدأم أتـاك سؤالها — كـذاك النوى أسبابها وانـفـتالها

الى أن يقول:

فـإن كنت قـد تابعت دين محمد — وعطّفت الأرحـامَ منـك حبالُـها
فكوني على أعلى سـحـيـق بهضـبة — مـلـملةٍ غـبـراء يـبسٍ بـلالُـها[٦]

---

(١) الراتق: الساد. والفتق: التمزيق. والبور: الهالك.

(٢) المباراة: المجاراة. والسنن ـ بالتحريك ـ: وسط الطريق. والمثبور: الهالك.

(٣) البلابل: الوساوس والأحزان. والمعتلج: المضطرب. والبهيم: الذي لاضياء له.

(٤) العيرانة: الناقة النشطة. وسرح اليدين: خفيفتها. والغشوم: التي لا ترد عن وجهها.

(٥) أسديت: صنعت. وأهيم: أذهب في وجهي متحيّراً.

(٦) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٦١ ـ ٦٣. والسحيق: البعيد. والهضبة: الكدية العالية. والململة: المستديرة.

٥ـ فروة بن مسيك المرادي:

كان من وجوه قومه ومن الشعراء الفرسان وأصله من اليمن، وفد سنة تسع أو عشر على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم، رغبة في الإسلام، وقد كانت قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتّى اثخنوهم[١] في يوم يقال له (يوم الردم).

قال ابن إسحاق: وفي ذلك اليوم يقول فروة بن مسيك.

مررن على لفات وهنّ خوص ... ينازعن الأعنّة ينتحينا[٢]
فان نغلب فغلّا بون قِدما ... وإن نغلَب فغير مُغلَّبينا
وما أنْ طبّنا جبن ولكن ... منايانا وطُعمة آخرينا[٣]
كذاك الدهر دولته سجال ... تكّر صروفه حينا فحينا[٤]
فبينا ما نُسَرُّ به ونرضى ... ولو لبست غضارته سنينا[٥]
إذا انقلبت به كرّاتُ دهر ... فألفيت الأُولىٰ غُبطوا طحينا
فمن يغبط بريب الدهر منهم ... يجد ريب الزمان له خؤونا
فلوخلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقي الكرام إذن بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأوّلينا[٧]

وقد تمثّل بهذه الأبيات، شهيد الطّف الأمام أبو عبدالله الحسين بن علي

والغبراء: التي عليها الغبار.

(١) أي أكثروا فيهم القتل والجراحات.

(٢) لفات: من ديار مراد. وخوص: غائرات العيون. والانتحاء: التعرّض.

(٣) طبّنا أي عادتنا وشيمتنا.

(٤) السجال: التداول والمعاودة مرّة بعد أُخرى. (٥) غضارة الشيء: طراوته.

(٦) غبطوا: استحسنت أحوالهم. ويقال: طحنت المنيّة القوم: أهلكتهم.

(٧) سروات القوم: أشرافهم.

(عليهما السلام) عندما تألبت عليه كلاب بني أميّة وبني مروان في وقعة كربلاء...

ولما توجّه فروة الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال:

لمّا رأيت ملوك كندة أعرضت	كالرِّجْل خان الرجلَ عرقُ نَسائها
قرّبت راحلتي أؤمّ محمداً	أرجو فواضلها وحسن ثرائها

وفي رواية أبي عبيدة: حسن ثنائها.

قال ابن إسحاق: فلمّا انتهى الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال له: يا فروة، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرّدم؟ قال: يا رسول الله، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم، لايسوؤه ذلك؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أما أنّ ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلّا خيراً. واستعمله النبيّ (صلى الله عليه وآله) على قبائل مراد وزبيد ومذحج كلّها، وبعث معه خالدبن سعيدبن العاص على الصدقة. وأيضاً قال له النبيّ (صلى الله عليه وآله) ادع الناس وتألّفهم، فإذا رأيت الغفلة فاغتنمها واغز.

وكان من الصحابة الذين سكنوا الكوفة بعد فتح العراق[1].

٦ـ عمرو بن معدي كرب:

من الشعراء الفرسان. قال جرجي زيدان: هم أكثر شعراء الجاهليّة، لأنّ الفروسيّة والحرب من طبائع أهل البادية، وقلّ من الشعراء من لم يركب أولم يغز. وشاعرنا فارس من فرسان اليمن أو هو فارس اليمن[2].

قال ابن حجر: هو فحل في الشجاعة والشعر. قال أبوعمرو بن العلاء: لايفضّل عليه فارس في العرب. وكان شاعراً محسناً، وممّا يستحسن من شعره قصيدته التي أوّلها:

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٢٨. والإصابة: ج ٣ ص ٢٠٥. (٢) تأريخ الآداب: ج ١ ص ١٤٢ و ١٤٧.

أمن ريحانة الداعي السميع   يؤرّقني وأصحابي هجوع

يقول فيها:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه الى ما تستطيع
وصله بالزّماع فكلّ أمر   سَمالك أو سَمَوْت له ولوع[1]

وبعد أن ذاع صيت الإسلام وملأ أرجاء الجزيرة، قصد رسول الله (صلى الله عليه وآله) في اناس من بني زبيد، وكان قد قال لقيس بن مكشوح المرادي، حين انتهى إليهم أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا قيس، إنّك سيّد قومك، وقد ذكر لنا أنّ رجلاً من قريش، يقال له محمد قد خرج بالحجاز، يقول: إنّه نبيّ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيّاً كما يقول، فإنّه لن يخفى عليك، وإذا لَقِيناه اتّبعناه. وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبى قيس ذلك، وسفّه رأيه. فركب عمرو بن معدي كرب حتى قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأسلم وصدّقه وآمن به، فرجع الى قومه فأقام فيهم مسلماً مطيعاً، فلمّا بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرواً وتحظّم عليه[2] وقال: خالفني وترك رأيي!

فقال عمرو في ذلك:

أمرتك يوم ذي صنعاء   أمراً بادياً رشده
أمرتك باتقاء الله و   المعروف تتعده
خرجت من المنى مثل   الحميّر غرّه وقده

... الى آخر الابيات.

وقال فيه أيضاً:

أعاذل عدّتي بدني ورمحي   وكلّ مقلّص سلس القياد

الى ان يقول:

تمنّى أن يلاقيني قُييسٌ   وددت وأينما منّي ودادي

---

(١) الزّماع: المضاء في الأمر والعزم عليه، من أزمع إذا عزم وجزم بالأمر.   (٢) أي اشتدّ عليه.

فمن ذا عاذري من ذي سفاه ... يرود بنفسه منّي المرادي
أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد(١)

وذكر المفيد في الإرشاد: ولمّا عاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) من تبوك، قدم إليه عمرو بن معدي كرب فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): أسلم يا عمرو، يؤمنك الله من الفزع الأكبر. قال: يا محمد، وما الفزع الأكبر، فإنّي لا أفزع. فقال: يا عمرو إنّه ليس كما تظنّ وتحسب، إنّ الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميّت إلّا نشر، ولا حيّ إلّا مات، إلا ماشاء الله. ثمّ يصاح بهم صيحةً أخرى فينشر من مات، ويصغون جميعاً وينشقّ السماء وتهدّ الأرض وتخرّ الجبال هداً، وترمي النار بمثل الجبال شرراً، فلا يبقى ذو روح إلّا انخلع قلبه وذكر ذنبه وشغل بنفسه، إلّا ماشاء الله، فأين أنت يا عمرو من هذا؟!

وعندئذٍ قال عمرو: ألا أنّي أسمع أمراً عظيماً، فآمن بالله ورسوله، وآمن معه من قومه ناس ورجعوا الى قومهم(٢).

يقال: إنّه ارتدّ بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان على قومه حينذاك فروة بن مسيك فقال فيه:

وجدنا ملك فروة شرّ ملك ... حماراً ساف منخره بثفر(٣)
وكنت إذا رأيت أبا عمير ... ترى الحَوَلاء من خبث وغدر(٤)

وكان ذلك -على ماقيل- على عهد أبي بكر، فبعث اليه المهاجر بن أبي أميّة، فأسر عمرواً وأرسله الى أبي بكر، فعاود الإسلام. وحضر القادسية وأبلى فيها. قال قيس بن أبي حازم: شهدت القادسيّة فكان عمرو بن معدي كرب يمرّ

---

(١) المقلّص: الطويل القوائم من الفرس والنوق. راد بنفسه: خدعها وعرضها للهلاك. وهذا البيت ممّا تمثّل به أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بشأن ابن ملجم المرادي لعنه الله لمّا أحسّ منه الغدر.

(٢) كتاب الإرشاد: ص٨٤ ط نجف.

(٣) ساف: شمّ والثفر من البهائم بمنزلة الرحم من الإنسان.

(٤) الحولاء -بضم الحاء وكسرها وفتح الواو-: جلدة ماؤها أخضر تخرج مع الولد.

على الصفوف ويقول: يا معشر المهاجرين كونوا أُسوداً أشدّاء، وكان إذا حمل أخذ الفارس ويرميه على الأرض ويقول: اصنعوا هكذا. وهوالقائل بشأن تلك الوقعة:

والقادسيّة حين زاحم رستم | كنّا الكماة نهزّ كالأسطان[١]
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً | ينوي الجهاد وطاعة الرحمان

وفي سنة ٢١ كانت وقعة نهاوند وفيها انهزم المسلمون، وقاتل عمروبن معدي كرب يومئذ حتى كان الفتح، فاثخنته الجراحة فمات بقرية (روذة) وقد تجاوز المائة. وقيل: إنّه عاش بعد ذلك وشهد صفّين، فكان من المعمّرين الذين تجاوزوا المائة والخمسين. وكان شيخاً عظيم الخلقة، أعظم مايكون من الرجال، أخشن الصوت، إذا التفت التفت بجميع جسده[٢].

٧ـ معاوية بن زهيربن قيس:

كان شاعراً مجيداً، وله قصائد مطوّلة ورنّانة، كان من أحلاف بني مخزوم مشركاً صلباً. وهوالذي مرّ بهبيرة بن أبي وهب، وهم منهزمون يوم بدر، وقد أعيا هبيرة، فقام وألقى عنه درعه وحمله فمضى به.

قال ابن هشام: وأصحّ أشعار أهل بدر ماقاله أبوأسامة معاوية بن زهير:

ولمّا أن رأيت القوم خَفُّوا | وقد شالت نعامتهم لنفر[٣]
وإن تركت سراة القوم صرعى | كأنّ خيارهم إذ باح عتر[٤]

---

(١) رستم بن فرّخزاد: قائد جيوش الفرس. وكماة: جمع كمّي بمعنى الشجاع. والأسطان: آنية الصفر. قال الفيروز آبادي: وكأنّ النون بدل اللام من السطل بمعنى الطست.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٣٠. والإصابة ج ٣ ص ١٩.

(٣) قال السهيلي: العرب تضرب زوال النعامة مثلاً للفرار. تقول: شالت نعامة القوم، إذا فرّوا والنعامة: باطن القدم، ومن مات، شالت نعامته.

(٤) سراة القوم: أشرافهم. وباح: ظهر. والعتر: الصنم الذي يذبح له قربان.

الى اكثر من ثلاثين بيتاً.

وقال أيضاً:

ألا من مبلغ عني رسولاً مغلغلة يثبتها لطيف[١]

ألم تعلم مردّي يوم بدر وقد برقت بجنبيك الكفوف[٢]

وقد تركت سراة القوم صرعى كأن رؤوسهم حدج نقيف[٣]

الى ما يقرب من عشرين بيتا.

قال ابن هشام: تركت قصيدة لأبي أُسامة على اللام، ليس فيها ذكر بدر إلّا في أوّل بيت فيها والثاني، كراهية الإكثار[٤].

٨ـ عامر بن الطفيل العامري:

هو ابن عم لبيد الشاعر، وكان فارس قيس وسيّدهم، وكان عقيماً لا يولد له. وكان شاعراً فخوراً مستكبراً لايرى لغيره ولا لغير قومه ولا لغير أرضه وبلاده من وزن. وقد ذكر جرجي زيدان بعض شعره بهذا الشأن، وله ديوان أقدم على طبعه المستشرقون.

وهو الذي تواطأ مع أربد بن قيس ليغتال رسول الله(صلى الله عليه وآله) فعصمه الله من شرّهما، وخرجا من عنده كافرين وماتا على الكفر لعنهما الله[٥].

٩ـ الأغلب بن عمرو العجلي الراجز:

هو أحد المعمّرين في الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم، وكان في جملة من توجّه الى الكوفة مع سعد، ومات في واقعة نهاوند سنة ٢١.

(١) المغلغلة: الرسالة تغلغل من بلد الى بلد. واللطيف: الرفيق الحاذق.

(٢) برقت: لمعت.

(٣) الحدج: الحنظل. والنقيف: المكسور.

(٤) سيرة ابن هشام: ج٣ ص ٤٠.

(٥) أُسد الغابة لابن الأثير: ج٣ ص ٨٤. وتأريخ الآداب: ج١ ص١٣٨.

و هو أوّل من رجز الأراجيز الطوال. إذ كانت العرب ينشدون الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة فيأتون منه بأبيات يسيرة. ثم جاء الأغلب فكان اوّل من قصد الرجز وأطاله ثمّ سلك الناس طريقته. ومن ثمّ سمّي بالراجز[١].

وذكرنا في ترجمة لبيد: استنشاد المغيرة له وللبيد، فأبى لبيد ولكن الأغلب جاء إليه وقال:

أرجزاً تريد أم قصيداً ... لقد طلبت هيّناً موجودا

فكتب المغيرة بذلك الى عمر فأمره أن ينقص من عطائه خمسمائة يزيدها في عطاء لبيد[٢].

١٠ـ أميّة بن أبي الصلت:

كان شاعرا فحلا من شعراء الجاهلية وأدرك الاسلام كافرا.

فمن شعره:

حَوْل شياطينهم أبابيل رُبّـ ... ـيونَ شدُّوا سنَوّرا مَدْسورا

في قصيدة له. ذكره ابن هشام[٣].

وهوالقائل يوم بدر يرثي من اصيب من قريش في قصيدة مطلعها:

ألا بكيت على الكرا ... م بني الكرام اولي الممادح

كبكا الحمام على فرو ... ع الأيك في الغصن الجوانح[٤]

وقال ـ أيضاً ـ يبكي زمعة بن الأسود وقتلى بني أسد في قصيدة مطلعها:

---

(١) أسدالغابة: ج ١ ص ١٠٥. وتأريخ الآداب: ج ١ ص ١٤٣.

(٢) الإصابة: ج ١ ص ٥٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ١١٩. وابابيل: الفرق. والربّيون: الجماعة. والسنوّر: السلاح الحديدي واللبوس أيضاً. والمدسور: المشدود بالدّسار وهو شيء يشبه الليف تشدّ به الألواح.

(٤) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٣١. والايك: الشجر الملتف، واحدته: أيكة. والجوانح: الموائل، يقال: جنح إذا مال.

عين بكـيّ بـالمسبـلات أبـا الحا رث لا تـذخـري على زمـعـة[(١)]

١١ـ شدّاد بن الأسود بن شعوب الليثي:

كان مـمّـن أسلم ثم ارتـد[(٢)] وهـوالذي قـتـل حنظلـة بـن أبي عامـر غسـيل الملائكة، لمّاراَه علا بسيفه أباسفيان، فأدركه شدّاد فقتله دون أبي سفيان فقال في قتله حنظلة:

لأحمـيـنّ صـاحبي ونـفـسـي بطـعـنة مـثـل شعـاع الشمس[(٣)]

وقال أيضاً يذكريده عند أبي سفيان:

ولولا دفاعي يابن حرب ومشهدي لألفيت يـوم النعف غير مجيب[(٤)]

ولولا مكرّي المهر بالنعف قرقرت صِبـاغ عـليه أوضِراء كـلـيب[(٥)]

ولعلّ ذلك ثَقُلَ على أبي سفيان، فقال وهويذكره في أبيات مطلعها:

ولـو شئت نـجّتني كُمَـيْتٌ طِمِرّةٌ ولم أحمل النعماء لابـن شُعوب[(٦)]

١٢ـ أبومحجن الثقفي:

فـارس شجـاع وكان مستهـتراً مـولعاً بـالشراب وقـد أدرك الإسلام، لـكنّه لم ينـخلـع من سقطـاته، ذكـروا أنّه هـوى امرأة من الأنصـار على عهـد عمـربن الخطاب، يقال لها شـموس، فحاول النظـر إليها فلم يقـدر، فآجر نفسه من بنّاء يبني بيتاً بجانب منزلها، فأشرف عليها من كوّة، فأنشد:

ولقد نظرت الى الشمـوس ودونها حرج من الرحمان غيرقليل ... الخ

(١) سيرة ابن هشام: ج٣ص٣٤. والمسبلات: الدموع. وابوالحارث: كنية زمعة.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٣ص ٣١. (٣) سيرة ابن هشام ج٣ص ٧٩ـ٨١وص ١٣٠.

(٤) النعف: أسفل الجبل، يريد جبل أُحد.

(٥) قرقرت: اسرعت. الصباغ: ما يصبغ به، يريد به الدم. ضراء: تطعّم الكلب بلحم الصيد.

(٦) الطِمرّة: الفرس السريعة الوثب. والنعماء: اليد البيضاء الصالحة.

فاستعدى زوجها الى عمر، فنفاه وبعث معه رجلاً يقال له أبوجهراء كان من أعوان أبي بكريستعمله في حوائجه.

وكان لايزال يجلد في الخمر. وأنّ عمر جلده في الخمر سبع مرات. وهوالذي يقول:

إذا متّ فادفنّي الى جنب كرمة ... تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفننّي في الفلاة فإنّني ... أخاف إذا ما مّت أن لا أذوقها

وكان في منفاه بالبصرة أيضاً يتعاطى الخمر ولا يتورّعها، ومن ثمّ أمر به عمر أن يحمل الى البحر، ولكنّه هرب ولجأ الى معسكر سعدبن أبي وقّاص بالكوفة. ولما كان يوم القادسيّة حمله سعد معه، لكنّه أُتي به يوما وهوسكران من الخمر فأمر به فقيّد وحبسه في بيته. وكان بسعد جراحة، فاستعمل على الخيل خالدبن عرفطة، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنع الناس، واتفق أنّ المسلمين أصابهم جهد، فهاجت حماسة أبي محجن وهويسمع الغوغاء فجعل يتمثّل:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا ... وأُترك مشدوداً عليّ وثاقيا

الى أن يقول:

هلمّ سلاحي لا أبالك انني ... أرى الحرب لاتزداد إلّا تماديا

ثم قال لامرأة سعد ـ واسمها سلمى ـ وكانت في البيت: ويلك خلّيني فلك لله عليّ إن سلمت أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد، وإن قتلت استرحتم منّي. فاحتالت في إطلاق سراحه.

فوثب أبومحجن على فرس سعد بباب البيت وكانت من أجياد الأفراس يقال لها: البلقاء، فأخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس وحمل على الأعداء، فجعل لايحمل في ناحية إلّا هزمهم بإذن الله، فتحيّر الناس من وجود هذا الفارس وجعلوا يقولون: إنّ هذا ملك! وسعد ينظر الى جموع العسكر ويقول في

نفسه: «الضبر ضبر البلقاء[١] والظفر ظفر أبي محجن، وأبومحجن في القيد!» فلمّا انهزم العدوّ ورجع أبومحجن ووضع القيد في رجله، جاءت سلمى الى سعد وأخبرته الخبر.

فقال سعد: لا والله لا أحدّ اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يديه ماأبلاهم، فخلى سبيله فقال أبومحجن عند ذلك: لقد كنت أشربها إذ كان يقام عليّ الحدّ، اطّهّر منها، فأمّا اذا بهرجتني[٢] فوالله لا أشربها أبداً[٣].

١٣ـ الحارث بن هشام المخزومي:

هو أخو أبي جهل لأبويه وابن عمّ خالدبن الوليد وابن عمّ حنتمة أُمّ عمربن الخطاب، وقيل: أخوها، وشهد بدرا كافر فانهزم وعيّر بفراره[*] فاعتذر بقوله:

الله اعلم ما تركت قتالهم ... حتى حبوا مُهري بأشقر مُزبِد[٤]
وعرفت أنّي إن أُقاتل واحداً ... اقتل ولاينكي عدوي مشهدي[٥]
فصددت عنهم والأحبّة فيهم ... طمعا لهم بعقاب يوم مفسد[٦]

قال الأصمعي: لم أسمع اعتذارا في الفرار أحسن من هذا![٧].

وهكذا لمّا بلغهُ شعر أبي سفيان في واقعة أُحد:

---

(١) الضبر ـ بالضاد المعجمة والباء الموحدة ـ: عدوالفرس.

(٢) يقال: بهرج الدم أي أهدره. وبهرج المكان: لم يجعله حمى. كناية عن عدم إقامة الحدّ عليه.

(٣) الإصابة: ج ٤ ص ١٧٤.

(*) يقال أن حسان بن ثابت عيّره ببيتين:

إن كنت كاذبةً بما حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبّة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طِمرّة ولجام

(أُسدالغابة: ج ١ ص ٣٥١).

(٤) حبوا: أعطوا. والمهر: ولدالفرس. والأشقر: كناية عن الدم. والمُزبد: الذي علاه الزبد.

(٥) أي لم يؤلم قتلي عدوّا لي. (٦) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ١٩. (٧) أُسدالغابة ج ١ ص ٣٥١.

ولو شئت نجّتني كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ولم أحمل النعماء لابن شعوب[١]
ومازال مهري مزجر الكلب منهم لدن غدوة حتى دنت لغروب[٢]

فظنّه تعريضاً بفراره يوم بدر، فقال مجيباً:

جزيتهم يوما ببدر كمثله على سابح ذي ميعة وشبيب[٣]
لدى صحن بدرٍ أو أقمت نوائحاً عليك ولم تحفل مصاب حبيب
وإنّك لوعاينت ماكان منهم لأبت بقلب مابقيت نخيب[٤]

وكان الحارث بن هشام من أعيان قريش، وله في كلّ واقعة يد. وكانت قريحته الشعريّة تعمل في خدمة الكفر ومعارضة الإسلام. وله قصائد كثيرة في وقائع دامية كانت بين المشركين وجيوش الاسلام.

منها قصيدته في يوم بدر، مطلعها:

ألا يا لقومي للصّبابة والهَجْر وللْحزن مني والحرارةُ في الصدر[٥]

وقصيدة أُخرى يعرّض بها علي بن أبي طالب(عليه السلام)، مطلعها:

عجبت لقوم تغنّى سفيههم بامرسفاهٍ ذي اعتراض وذي بطل[٦]

وقال يبكي أخاه أباجهل في قتلى بدر:

ألا ياهف نفسي بعد عمرو وهل يغني التلهّف من قتيل[٧]

الى غير هنّ من قصائد وأشعار عارض فيها الإسلام والمسلمين.

واسلم يوم الفتح مرغما، وقد استجار يومئذ بامّ هاني بنت أبي طالب، فذكرت ذلك للنبيّ (صلى الله عليه وآله)فقال: قد أجرنا من أجرت. وأعطاه

---

(١) الكميت من الخيل: ماكان لونه بين الأسود والأحمر ـ والطمرّة ـ بكسرتين وتشديد الراء المفتوحة ـ: الفرس السريعة الوثب.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٣ ص ٨٠. ومزجر الكلب: كناية عن القرب.

(٣) الميعة: الخفة والنشاط.

(٤) سيرة ابن هشام ج٣ ص ٨٢ وأبت: رجعت. والنخيب: الجبان.

(٥) الصبابة: رقة الشوق. (٦) سيرة ابن هشام: ج٣ ص ١٠ و١٢. (٧) ابن هشام: ج٣ ص ٢٩.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) من غنائم حنين كما أعطى المؤلّفة قلوبهم. ومات في طاعون عمواس سنة ١٧، أيام عمر بن الخطاب، فتزوّج عمر بامرأته فاطمة بنت الوليد، أخت خالد بن الوليد[١].

١٤ـ ضرار بن الخطّاب الفهري:

كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المُجودين. وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق. قال ابن بكّار: لم يكن في قريش أشعر منه ومن ابن الزبعرى. وبعضهم يفضّله على ابن الزبعرى. قال ابن بكّار: تقول رواة العشر أنّ ابن الزبعرى كان أشعر قريش، وأمّا ما سقط إلينا من شعره وشعر ضرار بن الخطّاب، فضرار عندي أشعر منه وأقلّ سقطاً[٢].

وكان ضرارُ ضراراً على المسلمين بسيفه وشعره حتى كان يوم الفتح وسقوط قريش فاستسلم مع من استسلم من قريش، فجاء مسترحما ومستعطفا، خائفا ممّا أوعده سعد بن عبادة من استحلال الحرمة بشأن قريش، قال:

يا نبيّ الهدى إليك لجا	حيُّ قريش وأنت خير لجاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القوم	ونودوا بالصيلم الصلعاء[٣]
إن سعد يريد قاصمة الظهر	بأهل الحجون والبطحاء[٤]

ومن شعره يوم بدر، في قصيدة مطلعها:

عجبت لفخر الأوس والحيْن دائر	عليهم غداً والدهر فيه بصائر[٥]

ويقول فيها:

---

(١) أسد الغابة: ج١ ص٣٥٢.

(٢) أُسد الغابة: ج٣ ص٤٠ و١٥٩.

(٣) الصيلم: السيف الصارم. والصلعاء: الجرداء.

(٤) أُسد الغابة: ج٣ ص٤٠.

(٥) الحين ـ بفتح الحاء المهملة ـ: الهلاك والموت.

فإن تـك قتلى غودرت من رجالنا فانّـا رجـالاً بـعدهـم سنـغادر(١)

وقال ـ أيضاً ـ في رثاء أبي جهل، في قصيدة يقول فيها:

فبـلّـغ قـريشـا أن خير نـديّـهـا وأكرم من يمشي بساق على قدم(٢)

ثوى يوم بدر رهنَ خـوصـاء رهنها كريم المساعي غير وغدولابرم(٣)

فـآلـيـت لا تنهـلّ عـيـني بـعـبـرة على هالك بعدالرئيس أبي الحكم(٤)

وقـال ردّاً على شعر كـعب بن مـالك كان يرثي حمزة بن عبـدالمطلب وقتلى أحـد، في قصيدة مطلعها:

أيجـزع كـعــب لأشـيــاعــه ويبـكـي مـن الـزمـن الأعوج(٥)

ولضرار في وقعـة أحـد قصائد عـديدة يتشفى بهـا عن قتلاهـم ببدر ويشـمت الأنصار في لهجة قاسية، منها قوله:

إنّي وجـدّك لولا مَقْـدَمَيْ فرسي إذ جالت الخيل بين الجزع والقاع(٦)

مازال منكم بجنب الجزع من احـد أصواتُ هامٍ تزاقي أمرهـا شاع(٧)

... الى آخرها(٨).

وقوله:

لـمّـا أتـت مـن بني كعب مـزيّـنة والخزرجيّة فيهـا البيض تأتـلق(٩)

وجـرّدوا مشـرفـيّــات مــهـنّـدة وراية كجـنـاح النسر تختـفق(١٠)

(١) سيرة ابن هشام: ج ٣ص ١٣-١٤. (٢) النديّ: المجلس.

(٣) الخوصاء: البئر الضيّقة. والوغد: الدنيء والبرم: البخيل.

(٤) سيرة ابن هشام، ج ٣ص ٢٨. والنهل: سال. (٥) سيرة ابن هشام: ج ٣ص ١٤٧.

(٦) الجزع: منعطف الوادي. والقاع: المنخفض من الأرض.

(٧) الهام: جمع هامة، وهي الطائر الذي يزعم العرب أنّه يخرج من رأس القتيل فيصيح. وتزاقي: تصيح. وشاعي: مقلوب شائع.

(٨) سيرة ابن هشام: ج ٣ص ١٥٢.

(٩) مزيّنة: كتيبة فيها أنواع من السلاح. تأتلق: تلمع وتضيء.

(١٠) المشرفيّات: السيوف المنسوبة الى المشارف من قرى الشام.

فقلت يوم بأيّام ومعركة تنبي لما خلفها ماهُزْ هِزَ الورق[١]

... الخ[٢]

وقوله ـ معرضاً بما أُصيب المسلمون يوم أُحد ـ:

ما بال عينك قد أزرى بها السُّهد كأنّما جال في أجفانه الرمد[٣]

أمن فراق حبيب كنت تألفه قد حال من دونه الأعداء والبعد[٤]

... في أبيات كثيرة.

وله في يوم الخندق قصيدة مطنطنة يقول فيها:

بأيدينا صوارم مرهفاتٌ نقدّ بها المفارق والشئونا[٥]

كأنّ وميضُهنّ معرّياتٍ إذا لاحت بأيدي مصلتينا[٦]

وميضُ عقيقةٍ لمعت بليل ترى فيها العقائق مستبينا[٧]

فلولا خندق كانوا لَدَيه لدمّرنا عليهم أجمعينا

ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا متعوّذينا

... الخ[٨].

ولقدصدق ابن بكّار، أنّ شاعريّة ضرار لقويةٌ.

وله مطايبات مع أبناء جلدته من قريش، قال يوماً لأبي بكر: نحن كنّا لقريش خيراً منكم، ادخلنا هم الجنة، وأوردتموهم النار! يعني أنّه قتل المسلمين فدخلوا الجنة. وانّ المسلمين قتلوا الكفّار فأدخلوهم النار.

واختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم احد، فمرّ بهم ضرار،

---

(١) هزهز: حرّك .

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٣ص ١٥٣.

(٣) السّهد: عدم النوم. وأزرى: قصر. والرمد: وجع العين.

(٤) سيرة ابن هشام: ج ٣ص ١٧٢.

(٥) المرهف: الدقيق . والشأن: موصل قبائل الرأس.

(٦) الوميض: لمعان البرق. وأصلت السيف: جرّده.

(٧) العقيقة: واحدة العقيق، الجوهرة المعروفة. وأيضاً: الوادي وكلّ مسيل ماء شقه السيل.

(٨) سيرة ابن هشام: ج ٣ص ٢٦٦.

فقالوا: هذا شهدها وهو عالم بها فاسألوه عن ذلك. فقال: لا أدري ماأوسكم وما خزرجكم، لكنّي زوّجت منكم يوم أُحد أحد عشر رجلاً من الحورالعين!

ومن الطريف أنّ ابن الأثير يذكرأنّ عمربن الخطاب روى عنه[1].

وروى الذهلي عن السائب بن يزيد، قال: بينا نحن مع عبدالرحمان بن عوف في طريق مكّة إذ قال عبدالرحمان لرياح بن المعترف: غنّنا، فقال له عمربن الخطاب: إن كنت آخذاً، فعليك بشعر ضراربن الخطاب.![2].

١٥ـ الحُطيْئة العبسي:

هو جرول بن أوس من بني عبس، قال أبوالفرج: كان من فحول الشعراء ومقدّميهم وفصحائهم. متين الشعر، شرود القافية، متصرّف في جميع الفنون من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مُجيد في ذلك كلّه.

قال الأصمعي: وماتشاء أن تقول في شعر شاعر أنّه عيب إلّا وجدته إلّا الحُطيْئة فقلّما تجد ذلك في شعره. وقال إسحاق الموصلي: ما أزعم انّ أحداً من الشعراء بعد زهير أشعر من الحُطَيئة[3] ولكنّه كان دنيءالنفس ذاشرٍ وسفهٍ لارأي له، من الشعراء الذين في كلّ وادٍ يهيمون. كانت العرب تخافُ لسانه، كانوا يسترضونه بالمال خوفاً من شرّه، فقد كان يستدر الناس بتهديدهم بالهجو.

ذكروا أنّه نزل المدينة فجمعوا له من كلّ أهل بيت من قريش والأنصار العشرة والعشرين حتى كانت اربعمائة، وظنّوا أنّهم قد أغنوه، وما أن صارت الجمعة إلّا وهو يستقبل الإمام ماثلاً يُناذي من يحملني على نعلين[4]... هكذا كان يفعل مع كلّ قوم ينزل فيهم وإلّا سلقهم بهجوه.

---

(١) أُسدالغابة: ج ٣ ص ٤٠.
(٢) الإصابة: ج ٢ ص ٢٠٩.
(٣) الإصابة: ج ١ ص ٣٧٨.
(٤) وفي رواية: على بغلين. تأريخ الآداب: ج ١ ص ١٦٩.

قال جرجي زيدان: وأكثر هجوه -بعد الإسلام- الذي وصل إلينا، في الزبرقان وبغيض. كان الزبرقان من عمّال عمر بن الخطاب، وقد عرف شدّة وطأة الحُطيئة فأحبّ أن يقرّبه فأنزله في قومه وضمن له مؤونة عياله على أن يستصفي له مدحه. وكان بغيض وإخوته ينافسون الزبرقان، فاغتنموا استهانة (امّ شذرة) أُمّ الزبرقان مرّة بالحُطيئة فدعوه إليهم وأكرموه وبالغوا في إكرامه، فدحهم بالبيت المشهور الذي رفع رؤوسهم به وهو:

قوم هم الأنف، والأذناب غيرهم ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا؟

وكان من هجوه للزبرقان بهذه المناسبة:

والله ما معشر لاموا امرئاً جنباً ... في آل لأْيِ بن شمّاسٍ بأكياس

الى أن يقول:

ملّوا قراه وهرّته كلابهم ... وجرّحوه بأنياب وأضراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانّك أنت الطاعم الكاسي

من يفعل الخير لا يُعدَم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فشكاه الزبرقان الى عمر، فدعا عمر حسانَ بن ثابت، فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم، وسلح عليه، فسجنه. فكتب إليه من السجن:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فأخرجه من السجن وهدّده بقطع لسانه وأُذنيه، فتوسط له عمرو بن العاص فأطلق سراحه وأوصاه أن يكفّ عن الهجو[1].

وبلغ من شغف الحُطيئة بالهجو أنّه هجا والديه وهجا نفسه[2].

وهو من أصحاب المشوبات، ومطلع مشوبته:

نأتك أُمامة إلّا سؤالاً ... وأبصرت منها بعين خيالاً

(١) راجع الإصابة: ج ١ ص ٣٧٩.
(٢) راجع في ذلك تأريخ الآداب: ج ١ ص ١٧٠.

قال ابن الأثير: إنّه أسلم في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله) ثمّ ارتدّ بعده ثمّ أسلم، ولم تكن له صحبة. وإنَّ وفد بني عبس لمّا وفدوا على النبي (صلى الله عليه وآله) كانوا تسعة، واسماؤهم معروفة، وليس الحطيئة منهم. وذلك لأنّ الوفود من القبائل كانوا أعيانها ورؤساءها، والحطيئة مازال مهيناً خسيساً لم يبلغ محلّه أن يكون مع الوفد[١].

قال ابن الأثير: هو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان أسلم في عهد النبي (صلى الله عليه وآله) ثمّ ارتدّ، ثمّ أُسِر وعاد الى الإسلام.

وعن حمّاد الراوية: حُطيئة ـ مصغّرةً ـ لقّب بذلك لأنّه ضرط ضرطة بين قوم، فقيل له: ما هذا؟ قال: هي حطأة[٢]. وهي المدفوع من الأُست، يقال: حطأ إذا ضرط. وحطأبها: حبق. وحطأ بسلحته: رمى بها. قال الفيروزآبادي: حطأ: جعس أي تغوّط. قال الزبيدي: وبذلك سمّي الحطيئة.

والحطيئة: الرجل الدميم القصير. قال الفيروزآبادي: وهو لقب جرول الشاعر، قال الجوهري: لدمامته. وقيل: كان يلعب مع الصبيان فسمع منه صوت فضحكوا، فقال: مالكم إنّما كانت حُطيئة. فلزمته نبزاً.

١٦ـ الخنساء السلميّة[٣]:

اسمها تماضر بنت عمرو بن الشريد من سراة سليم (قيس) من أهل نجد. وقد أجمع رواة الشعر على أنّه لم تقم امراة في العرب قبلها ولابعدها أشعر

---

(١) أسد الغابة: ج ٢ ص ٣٠.

(٢) الإصابة: ج ١ ص ٣٨٧.

(٣) الخنس: تأخر الأنف الى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف. فهو أخنس وهي خنساء. وأصل الخنس في الظباء والبقر وهي كلّها خُنْس. وأنف البقر أخنس، لايكون إلّا هكذا قيل: وبه سمّيت المرأة خنساء، تشبيها بالظباء والبقر الوحش كماجاء في شعر لبيد. (تاج العروس: ج ٤ ص ١٤٣).

منها[1] وقد أنشدت شعرها للنابغة في سوق عكاظ فأعجب به وقال لها: لولا أنّ هذا الأعمى (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لفضّلتك على شعراء هذا الموسم.

وأكثر شعرها في رثاء أخيها صخر، كان قد قتل في وقعة يوم الكلاب كان غزا بني أسد فطعنه أبوثور الأسدي طعنة مرض منها حولا ثمّ مات، وكان حليماً جواداً محبوباً لدى قومه.

ومن شعرها في رثاء أخيها صخر:

أعينيّ جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريّ الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيّدا
طويل النجاد عظيم الرماد ... وساد عشيرته أمرداً

ومن قولها فيه:

وأنّ صخراً لمولانا وسيّدنا ... وأن صخراً إذا نَشْتُو لَنحّار
أشمّ أبلج يأتمّ الهداة به ... كأنّه علم في رأسه نار

قَدِمت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في وفد بني سليم، فذكروا أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يستنشدها ويعجبه شعرها. فكانت تنشده

---

(١) ويدلّك على ذلك شاهداً قصة نقدها في عكاظ على حسان بن ثابت، حين أنشدها قوله:

لنا الجفنات الغُرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابن محرق ... فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضعّفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع. قال: وكيف؟ قالت: قلت «لنا الجفنات» والجفنات مادون العشر، فقللت العدد، ولو قلت «الجفان» لكان أكثر. وقلت «الغرّ» والغرة البياض في الجبهة ولوقلت «البيض» لكان أكثر اتساعاً. وقلت «يلمعن» واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولوقلت «يشرقن» لكان أكثر، لأنّ الإشراق أدوم في اللمعان. وقلت «بالضحى» ولو قلت «بالعشيّة» لكان أبلغ في المديح، لأنّ الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت «أسيافنا» والاسياف دون العشر، ولو قلت «سيوفنا» كان أكثر، وقلت «يقطرن»، فدللت على قلّة القتل، ولوقلت «يجرين» لكان أكثر، لانصباب الدم. وقلت «دماً» والدماء أكثر من الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك! (هامش إعجاز القرآن للرافعي: ص٢٢٥).

وهو (صلى الله عليه وآله) يقول: هيه يا خُناس[١] ويؤمي بيده.

يقال: إنّها حضرت القادسيّة مع أولادها الأربعة، فجعلت تحرّضهم على الثبات في القتال فتقول لهم: يا بَنيّ إنّكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، وإنّكم لبنو رجل واحد وبنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولافضحت خالكم ولاهجنت حسبكم ولا غيّرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعدّالله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا إنّ الدار الباقية خير من الدارالفانية يقول الله عزّوجل: «ياأيّها الّذين آمنوا اصبِروا وصابِرُوا ورابِطُوا واتّقُوا اللهَ لعلّكم تُفلِحون» فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا الى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على اعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظىً على سياقها، وحللت ناراً على أرواقها، فتيمّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغُنم والكرامة في دارالخلد والمقامة!

فخرج بنوها، قابلين نصحها، فتقدّموا وقاتلوا وهم يرتجزون، وأبلوا بلاء حسناً واستشهدوا (رحمهم الله)، فلمّا بلغها الخبر قالت: «الحمدلله الذي شرّفني بقتلهم وأرجومن ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته».

وكان عمربن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة المقتولين[٢].

١٧ـ مالك بن عوف:

كان رئيس المشركين يوم حنين، وهوالذي جمع الجموع، وانقضّ على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، فكانت الهزيمة أوّلاً لجيوش المسلمين ثم

---

(١) خناس كغراب اسم خنساء مخفّفاً. قال الفيروزآبادي: ويقال لها خناس. كماورد في شعر دريد بن الصمّة:

أخناس قدهام الفؤاد بكم ... وأصابه تبل من الحب

(٢) اسدالغابة: ج ٥ ص ٤٤٢. والإصابة: ج ٤ ص ٢٨٨. وتأريخ الآداب: ج ١ ص ١٦٦.

عادت على المشركين، فلحق مالك بالطائف فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لوأتاني لرددت عليه أهله وماله. فبلغ ذلك مالكا فلحق به وأسلم فأعطاه النبي (صلّى الله عليه وآله) كما أعطى المؤلّفة قلوبهم. فانشد مالك يخاطب رسول الله(صلى الله عليه وآله):

ما أن رأيت ولاسمعت بواجد ... في الناس كلّهم كمثل محمد
أوفى فأعطى للجزيل إذا أُجْتُدي[1] ... ومتى تشاء يخبرك عمّا في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهري وضرب كلّ مهنّد[2]
فكأنّه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر في مرصد[3]

وكان قبل إسلامه وتأليفه قلبه شديداً على المسلمين يحرّض العرب عليهم، وهو الشاعر المفلّق.

من ذلك قوله يوم حنين يرتجز بفرسه:

أقدم محاجُ إنّه يوم نُكُر ... مثلي على مثلك يحمى ويكرّ

في أكثر من ثمانية ابيات ومحاجّ اسم فرسه[4].

وقال عند منهزمة الناس من الهوازن وغيرهم:

ولولا كرّتان على محاج ... لضاق على العضاريط الطريق

الى آخر الأبيات[5].

وقال ـ معتذراً فراره يومئذ ـ:

منع الرقاد فما أغمّض ساعةً ... نَعَمٌ بأجزاع الطريق مخضرم[6]

---

(١) الإجتداء ـ بالدال المهملة ـ: سؤال الحاجة، وطلب الجدوى أي الكفاية والغنى.

(٢) عرّدت أنيابها: قويت واشتدّت. والسمهري: الرمح. والمهنّد: السيف.

(٣) الهباءة: غبار يثور عند اشتباك الحرب. والخادر: الأسد في عرينه. والمرصد: المكمن.

(٤) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٨٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٩٨.

(٦) النعم: الإبل. وأجزاع الطريق: منعطفاته. ومخضرم: مقطوع الأُذن علامةً.

في قصيدة طويلة[١].

الأمر الذي يدلّنا على طول باعه في الشعر وإنشاد القريض لولا أن افحمته روعة القرآن!

١٨ـ مالك بن نمط ذوالمشعار:

قال ابن هشام: قدم وفد همدان على رسول الله (صلى الله عليه وآله) منهم مالك بن نمط أبوثور، وهو ذوالمشعار وكان شاعراً مجيدا[٢] ـ ومعه أشراف قومه ـ قال الحسن بن يعقوب الهمداني في كتاب (نسب همدان): إنّهم كانوا مائة وعشرين نفساً[٣] قال ابن هشام فلقوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرجعه من تبوك ، قال: وعليهم مقطّعات الحبرات[٤]، والعمائم المدنيّة برحال المَيْس[٥] على المَهْريّة[٦] والأرحبيّة[٧]. وكان مالك بن نمط ورجل آخر يرتجزان بالقوم، يقول احدهما:

همدان خير سُوقة وأقيال — ليس لها في العالمين أمثال[٨]

محلّها الهضب ومنها الأبطال — لها إطابات بها وآكال[٩]

ويقول الآخر ـ قال ابن الأثير: هوابن نمط ـ[١٠].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ١١٧.

(٢) السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٢٣٠.

(٣) الإصابة: ج ٣ ص ٣٥٧.

(٤) المقطعات: ثياب مخيطة. والحبرات. برود يمنيّة.

(٥) الميس ـ بفتح الميم ـ: خشب تصنع منه الرحال التي تكون على ظهر الإبل.

(٦) المَهرية: الإبل النجيبة، تنسب الى مَهرة، قبيلة باليمن.

(٧) الأرحبية: إبل تنسب إلى أرحب، قبيلة من همدان أوفحل.

(٨) السوقة: مَنْ دون الملوك والرؤساء. والأقيال: الملوك دون الملك الأكبر، واحده قيل.

(٩) الهضب ما ارتفع من الأرض ترتوي من الأمطار أكثر، والواحدة: هضبة. والإطابات: الأموال الطيّبة. والآكال: ما يأخذه الملك من رعيّته وظيفةً له عليهم.

(١٠) أسدالغابة: ج ٤ ص ٢٩٤.

إليـك جـاوزن سـواد الـريـف　　　في هبوات الصيف والخريف[١]

مخطّماتٍ بحبال اللّيف[٢]

فـقام مـالك بـن نمط بين يـدي رسـول الله (صلـى الله عليه وآله) فـقـال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) نصيّة[٣] من همدان، من كلّ حاضر وباد، أتـوك على قلص نواج[٤]، متّصلة بحبـائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومـة لائم، من مخلاف[٥] خـارف، ويام وشـاكر[٦] أهـل السـود والقـود[٧]، أجابـوا دعوة الـرسول، وفارقـوا آلهـات الانصاب[٨]، عـهـدهم لاينـقض مـا أقامـت لـعلع، وماجرى اليعفور بصلع[٩].

فـأكرمهم رسـول الله(صلـى الله عليه وآلـه)وكتـب لهم كـتابا أقطـعهـم فيه ماسألوه وأمّرَ عليهم مالكاً في من أسلم من قومه. وهذا نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هـذا كـتـاب من رسول الله محمد (صلى الله عـليه وآله) لمخلاف خارف وأهل جـناب الهضب وحقاف الـرمل[١٠] مع وافدها ذِي المشعار مـالك بن نمط، ومـن أسلم من قـومه، على أن لهم فراعـهاو وهاطـها[١١]

---

(١) السواد هنا: القرى الكثيرة الشجر والنخل. والريف: الأرض التي تقرب من الأنهار والمياه الغزيرة. والهبوات: جمع هبوة وهي الغبرة.

(٢) مخطّمات: الإبل تجعل لها خطم، وهي الحبال التي تشد على آناف الإبل.

(٣) النصيّة: خيار القوم.

(٤) القلص ككتب: الإبل الفتيّة. الواحد: قلوص كرسول. ونواج: مسرعة.

(٥) المخلاف: بمعنى المدنية، بلغة اليمن.

(٦) خارف، ويام، وشاكر: قبائل يمنيّة.

(٧) السود: الإبل تساود نبات الأرض. والقود: الخيل التي تقاد من غير ركوب.

(٨) آلهات: جمع آلهة. والانصاب: حجارة تذبح عليها القرابين.

(٩) لعلع: جبل. واليعفور: ولد الظبية. وصلع: اسم موضع.

(١٠) الحقاف: جمع حقف وهو مستدير الرمل.

(١١) الفراع: أعالي الارض. والوهاط: المنخفض المطمئن من الأرض.

ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافِيَها[١] لهم بذلك عهدالله وذمام رسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار...».

فقال في ذلك مالك بن نمط:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ... ونحن بأعلا رحرحان وصلدد[٢]

وهنّ بنا خوص طلائح تفتلي ... بركبانها في لاحب متمدّد[٣]

على كلّ فتلاء الذراعين جسرة ... تمرّ بنا مرّ الهِجَفّ الخَفَيْدَدِ[٤]

حلفت بربّ الراقصات الى منى ... صوادر بالركبان من هَضْب قَرْدَدِ[٥]

بأنّ رسول الله فينا مصدَّق ... رسول أتى من عند ذي العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشدّ على أعدائه من محمّد

وأعطى إذا ماطالبُ العرف جاءه ... وأمضى بحدّ المشرفيّ المهنّد[٦]

١٩ـ فروة بن عامر الجذامي:

كان عاملاً للّروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان (قرب عمان عاصمة الأردن) وماحولها من أرض الشام. وكان شاعراً مجيداً عارفاً بفنون الكلام.

ولمّا بلغه خبر النبيّ(صلى الله عليه وآله)وخضوع العرب له، بعث إليه (صلى الله عليه وآله) رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء.

---

(١) العلاف: ثمرالطلح. والعافي: كثرة النبات.

(٢) الفحمة: السواد. والدجى: الظلمة جمع دجية. ورحرحان وصلدد: موضعان.

(٣) الخوص: الغائرة العيون، جمع خوصاء. وطلائح: معيبة. وتفتلي: تشتد في سيرها. واللاحب: الطريق البيّن.

(٤) الجسرة: الناقة القويّة على السير. والهجف: الذكر الضخم من النعام. والخفيدد: بمعنى الهجف.

(٥) الراقصات: الإبل، والرقص ضرب من سيرها فيه حركة. وصوادر: رواجع. والقردد: ما ارتفع من الأرض، بمعنى الهضب.

(٦) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٤٤ـ٢٤٥.

ولمّا سمعت الروم بإسلامه طلبوه حتّى أخذوه فحبسوه عندهم. فكان ممّا قال في محبسه ذلك:

طرقتُ سليمى مَوْهناً أصحابي ... والروم بين الباب والقروان[١]

الى آخرابياته التي نقلها ابن هشام[٢].

وأجمعت الروم على قتله، فصلبوه على ماء لهم يقال لهاعفرى بفلسطين، قال:

ألاهل أتى سلمى بأنّ حليلها ... على ماءعفرى فوق إحى الرواحل

على ناقة لم يضرب الفحل امّها ... مشذّبة أطرافها بالمناجل[٣]

وقال ـأيضاًـ خطاباً الى المسلمين:

بلّغ سراةَ المسلمين بأنّني ... سَلْمٌ لربّي أعْظُمي ومقامي

٢٠ـ كعب بن زهير المزني:

كان كعب من أهل بيت الشعر في الجاهلية والاسلام.قال ابن حجر: وكان زهير وولداه: بجير وكعب، وولدا كعب: عقبة والعوّام، شعراء. قال الحطيئة لكعب: أنتم أهل بيت ينظر إليكم في الشعر، فاذكرني في شعرك، ففعل.

وروي عن الشعبي قال: أنشد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر:

تراك الأرض إمّا متّ حقّا ... وتحيى ما حييت بها ثقيلاً

فقال له النعمان: هذا البيت إن لم تأت بعده ببيت يوضّح معناه، وإلاّ كان الى الهجاء أقرب. فتعسّر على النابغة النظم. فقال له النعمان: قد أجّلتك

---

(١) الموهن: بعد ساعة من الليل. والقروان ـجمع قرو بالكسرـ حويض من خشب تسق فيه الدواب.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٢٣٨. وأُسدالغابة: ج ٤ ص ١٧٨.

(٣) شذّب الشجر: قشّر لحاه. والمنجل: آلة حديديّة يقضب بها الزرع ونحوه.

ثلاثاً، فإن قلت فلك كذا من الإبل العصافير[1] وإلّا فضربة بالسيف بالغة ما بلغت!

فخرج النابغة وهو وَجِلٌ وأتى زهير بن أبي سلمى والد كعب، وكان زميله في الشعر والقريض فنحر له وأكرمه وقصّ عليه الخبر، فجلسا يفكّران لايصفران شيئاً، وكان كعب حينذاك صبيّاً يلعب بالتراب مع الصبيان. فأقبل فرآى كلّا منهما واضعا ذقنه على صدره يفكّر! فقال: ياأبت مالي أراك قد اغتممت؟ فقال: تنحّ! فدعاه النابغة و وضعه على فخذه، وأنشده البيت.

فقال كعب للنابغة: يا عمّ ما يمنعك أن تقول:

وذلك إن فللت الغيّ عنها فتمنع جانبيها أن تميلا

فضمّه أبوه إليه وقال: ابني وربّ الكعبة. وأعجب النابغة، فغدا على النعمان وأنشده، وساق الإبل الى كعب فأبى أن يقبلها منه.

مات أبوه زهير كافراً قبل المبعث، وبقي كعب وأخوه بجير كافرين، حتى فتح الله مكة على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاتفق أنّ كعبا وبجير خرجا في غنم لهما حتى أتيا أبرق وذلك عند منصرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الطائف سنة تسع من الهجرة، فقال بجير لكعب: اثبت في غنمنا حتى آتى هذا الرجل فأسمع مايقول. فجاء بجير رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأسلم، فبلغ ذلك كعبا، فقال:

ألا أبلغا عنّي بجيراً رسالة على أي شيء ويب غيرك دلّكا؟

في أبيات.. يهجوبها رسول الله (صلى الله عليه وآله)![2]

---

(١) العصفور: السيّد والمقصود هنا: النجائب.

(٢) اختلف نقل الأبيات، كذا نقلها ابن هشام: ج ٤ ص ١٤٥.

قوله: «ويب غيرك». ويب بالواو: كلمة مثل ويل لفظاً ومعناً، منصوب على إضمار فعل، وهو دعاء بالهلاك أي ليهلك غيرك، مقصوداً به النبيّ (صلى الله عليه وآله) وقبله: «وخالفت أسباب الهدى واتبعته» فيما سجّله ابن هشام، فراجع.

فبلغت ابياتُه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأهدرَدمه، وقال: من لقى كعباً فليقتله. فكتب بجير إليه يخبره أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قتل رجالا بمكة ممّن كانوا يهجونه ويؤذونه، وإن بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب، قد هربوا في كلّ وجه. فإن كانت لك في نفسك حاجة، فَطِرْ الى رسول الله فإنّه لايقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج الى نجائك من الأرض(١).

ويقال: إنّ بجير أجابه في أبيات شعر أيضاً، منها:

مَنْ مُبْلغ كعباً: فهل لك في التي	تلوم عليها باطلاً وهي أحزم
الى الله ـ لاالعزّى ولااللاّت ـ وحده	فتنجو إذا كان النجاء وتسلم .. الخ

قال ابن إسحاق:

فلمّا بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوّه، فقالو: هومقتول. فلمّا لم يجد بدّاً قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثمّ خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينهما معرفة، فغدا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين صلّى الصبح، فصلّى مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثمّ أشار به الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فقام اليه حتى جلس عنده متنكّرا و وضع يده في يد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورسول الله لايعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قدجاء ليستأمن منك تائبا مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): هوآمن، فحسر كعب عن وجهه، وقال: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فانشد كعب قصيدته التي كان أعدّها قريضاً في رسول الله (صلى الله عليه

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ١٤٤.

وآله) مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم إثرها لم يُفْدَ مكبول(١)
وما سعادُ غداة البين اذ رحلوا ... إلّا أغنُّ غضيض الطرف مكحول(٢)
هيفاءُ مقبلةً عجزاء مدبرةً ... لا يشتكى قصر منها ولا طول(٣)

الى أن يقول:

كلّ ابن أُنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول(٤)
نبئت أنّ رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول(٥)
مهلاً هداك الذي أعطاك ... نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل(٦)
لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم ... أُذنِب ولو كثرت فيّ الأقاويل(٧)
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل(٨)
لظلّ يرعد إلاّ أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل(٩)
حتى وضعت يميني ما أُنازعه ... في كفّ ذي نقمات قيلة القيل(١٠)
فَلَهوَ أخوف عندي إذ أُكلّمه ... وقيل إنّك منسوب ومسؤول(١١)
من ضيغم بضراء الأرض مُخْدَرُهُ ... في بطن عَثَّر غيل دونه غيل(١٢)

---

(١) بانت بمعنى فارقت. المتبول: الذي اسقمه الحب وأضناه. والمتيّم: المستذلّ من شدّة الحبّ. لم يفد: أي لم يفك من الأسر، والمراد: أسرالحب. والمكبول: المقيّد.
(٢) الأغن: الظبي الصغير الذي في صوته غنّه. غضيض الطرف: فاتره. المكحول: المكتحل.
(٣) هيفاء: من الهيف بمعنى ضمور البطن ودقة الخاصرة. عجزاء: كبيرة العجز وهو الردف.
(٤) الآلة الحدباء: النعش الذي يحمل عليه الميّت. (٥) نبئت: أُخبرت. أوعدني: تهدّدني بالقتل.
(٦) النافلة: العطاء الممنوحة فوق التوقّع والانتظار. (٧) الواشي: النمام.
(٨) يريد حضور النبي (صلى الله عليه وآله) وفي ظل عنايته المهابة.
(٩) يرعد: تأخذه الرعدة والرجفة. والتنويل: التأمين.
(١٠) ما أُنازعه: أي اطاوعه. ذونقمات: أي ذوسطوة وغلظة على اعدائه، وقيله: قوله.
(١١) أُخوف: أي أرهبه عن لقائه.
(١٢) الضيغم: الأسد. وضراء الأرض: مشجّرتها. ومخدر الأسد: مخبؤه. وعَثّر: مكان مشهور بكثرة ←

فجعل ينشدها حتى بلغ قوله:

إنَّ الرسول لنور يستضاء به ... مهنّد من سيوف الله مسلول [١]

في فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما اسلموا زولوا [٢]

زالوا فمازال أنكاس ولا كُشُف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل [٣]

فأشار رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى الناس، أن استمعوا الى مايقول...

ولمّا فرغ من إنشاده، حباه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأكرمه، وخلع عليه بردته المعروفة؛ التي كان الخلفاء الأمويّون والعباسيّون، يتداولون لبسها في الأعياد تشريفاً بانتسابها الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فكانت من شعارات الخلافة. يقال: إنّ معاوية اشتراها من ولد كعب بأربعين ألف درهم. وذكر أبوالفداء: أنّها انتقلت من العباسيّين الى التتر. قال جرجي زيدان: لكنّها الآن في جملة المخلّفات النبويّة في السراي القديمة في الآستانة [٤] أمّا القصيدة فطبعت مرّات وشرحها الكثيرون.

ولكعب مدائح أخر بشأنه (صلى الله عليه وآله) قال ابن رشيق: أجمع الناس على تقديم قول كعب بن زهير حين يمتدح رسول الله (صلى الله عليه وآله) منها قوله:

تحمله الناقة الأدماء معتجراً ... بالبرد كالبدر جلّى ليلة الظلم [٥]

السباع. والغيل: الشجر الكثير الملتف. وغيل دونه غيل. أي غابة قربها غابة أو أجمّة بقربها أجمة.

(١) المهنّد: السيف المطبوع في الهند، ويقال: السيوف الهنديّة. والمسلول: المخرج من غمده.

(٢) العصبة: الجماعة. وزولوا: أي تحوّلوا وانتقلوا.

(٣) الإنكاس: جمع نكس -بالكسر- وهو الرجل الضعيف. والكُشُف: جمع أكشف وهو الذي لا تُرسَ له، كناية عن الرجل الشجاع. والميل: جمع أميل وهوالذي لاسيف معه ولا يُحسن الركوب فيميل عن الفرس. والمعازيل: الذين لا سلاح لهم، واحده المعزال بكسر الميم.

(٤) قال الدكتور حسين مؤنس -بهامش تأريخ التمدن: ج١ ص١٣٦-: من المشكوك فيه أن تكون البردة التي كان سلاطين آل عثمان يحتفظون بها هي بردة الرسول (صلى الله عليه وآله).

(٥) الأدماء: السمراء. المعتجر: من لبس المعجر وهو ثوب تلفّه المرأة على رأسها.

وفي عطافَيْه أو أثناء ريطته[١] ... مايعلم الله من دين ومن كرم[٢]

٢١ـ حسّان بن ثابت الخزرجي:

كان من الشعراء الهجّائين، عاصر الجاهليّة والاسلام، واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسّان وملوك الحيرة، وله مع النابغة الذبياني أحاديث. وكان شديد الهجاء حتى قيل: لومزج البحر بشعره لمزجه. ومن شعره في الجاهلية قوله يمدح جبلّة بن الأيهم الغساني:

اولاد جَفْنَة عند قبر ابيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل

يُغشون حتى ماتهرّ كلابهم ... لايسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأُنوف من الطراز الأوّل

واختصّ بعدالاسلام بمدح النبيّ(صلى الله عليه وآله) حتى قيل: إنّه شاعر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن مدحه له قوله:

متى يبدُ في الداجي البهيم جبينه ... يَلُحْ مثلَ مصباح الدجى المتوقّد

فمن كان أو من قد يكون كأحمد؟ ... نظام لحقّ أو نكال لملحد

وكان الذين يهجون رسول الله (صلى الله عليه وآله) من مشركي قريش، أباسفيان وابن الزبعرى وعمروبن العاص وضراربن الخطّاب. فقال قائل لعلي بن أبي طالب: لوتهجُ القوم الذين يهجوننا؟ فقال: إن أذن رسول الله (صلى الله عليه وآله)! فقيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: ليس من عنده يراد ذلك. ثمّ قال: مايمنع الذين نصروا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأسيافهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنالها، يا رسول الله(صلى الله عليه وآله)

---

(١) العطافان: الرداء والإزار. والريطة، بالفتح: الملاءة تشبه الملحفة.

(٢) الإصابة: ج٣ ص٢٩٧. وسيرة ابن هشام: ج٤ ص١٤٤. والعمدة لإبن رشيق: ج١ ص٢٣، وج٢ ص١٣٦.

فجاء حسان الى أبي بكر ـ وهو يعرف أنساب قريش ومساوئ أمهاتهم ـ فتعرّف منه ما هداه الى هجوهم بما أعجزهم وأداخ قريشا، فعرفوا أنّ ذلك من دلالة ابن أبي قحافة. فن ذلك قوله في أبي سفيان:

وأنّ سنام المجد من آل هاشم	بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منهم	كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمّه	ولكن لئيم لا تقام له زند
وأنّ امرءا كانت سُميّة أمّه	وسمراء مغمور إذا بلغ الجهد

فلمّا بلغ ذلك أباسفيان قال: هذا شعر لم يغب عن ابن أبي قحافة.

قال ابن سيرين: انتدب لهجو رسول الله (صلى الله عليه وآله) أربعة (ذكرناهم) وانتدب لهجو المشركين ثلاثة: حسان وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم مثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ويذكرون مثالبهم. أمّا ابن رواحة فكان يعيّرهم بكفرهم وعبادة مالا يسمع ولاينفع، فكان قوله أهون عليهم.

قال الأصمعي: الشعر نكد، يقوى في الشّر ويسهل، فإذا دخل في الخيرَ يَضْعُف فقد كان حسّان من فحول شعراء الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام سقط شعره.

وقيل لحسان: لان شعرك وهرم يا أباحسام (لأنّ حسانا دخل الإسلام وقد تجاوز عمره الستّين) فقال: يا ابن أخي إنّ الإسلام يحجز عن الكذب، وذلك لأنّ الإجادة في الشعر إنّما هي في الإفراط، وهو كذب يمنعه الإسلام.

وكان حسان من أجبن الناس، حتى أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) جعله مع النساء في الآطام[1] يوم الخندق وكانت صفية عمّة النبي (صلى الله عليه وآله) بنت عبدالمطلب في فارع[2] حصن حسان بن ثابت. قالت: وكان حسان معنا فيه

---

(١) جمع الأطم ـ بضمتين ـ بمعنى الحصن.

(٢) الفارع: المكان المرتفع.

مع النساء والصبيان، فمرّ بنا يهودي فجعل يطوف بالحصن حيث خندق النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقلت لحسان: هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى ولا آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، فانزل إليه فاقتله! قال: يغفر الله لك يا بنت عبدالمطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت صفيّة: فلمّا قال ذلك، أخذت عموداً فنزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتّى قتلته ثمّ رجعت الى الحصن، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فقال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبدالمطلب.

قال ابن الأثير: ولم يشهد مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) شيئاً من مشاهده لجبنه.

عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام وكذلك عاش أبوه ثابت وجدّه المنذر وأبو جدّه حرام. ولا يعرف في العرب أربعة تناسلوا في مثل هذا العمر غيرهم[1].

آل عبدالمطلب كلّهم شعراء:

ولو قلنا: إنّ العرب كلّهم شعراء في ذلك العهد لما بالغنا، ولا سيّما قريشاً كانوا أفذاذ العرب وخالصتها، وخصوصاً بني عبدالمطلب، إذ ليس منهم رجالاً ونساءً من لم يقل شعراً، حاشا النبيّ (صلى الله عليه وآله) فما كان ينبغي له الشعر... قاله ابن رشيق[2].

فمن شعر حمزة بن عبدالمطلب يذكر لقاءه أبا جهل وأصحابه في قصيدة منها:

عشيّة صاروا حاشدين وكلّنا   مراجله من غيظ أصحابه تغلي

---

(١) أسد الغابة: ج ٢ ص ٤ - ٧. وتأريخ الآداب: ج ١ ص ١٧١.

(٢) العمدة: ج ١ ص ٣٦.

فلمّا تراءينا أناخوا فعقّلوا | مطايا وعقّلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم: حبل الآله نصيرنا | ومالكم إلّا الضلالة من حبل
فثار أبوجهل هنالك باغياً | فخاب وردّ الله كيد أبي جهل
وما نحن إلّا في ثلاثين راكباً | وهم مائتان بعد واحدة فضل

* * *

وأمّا العباس فكان شاعراً مفلّقاً حسن التهدّي، من ذلك قوله يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله(صلى الله عليه وآله):

ألا هل أتى عرسي مكرّى وموقفي | بوادي حنين والأسنّة تشرع
وقولي إذاما النفس جاشت لها قَدِي | وهام تدهدّى والسواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة | بزوراء تعطي باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة | وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

* * *

ومن شعر الزبيربن عبدالمطلب بعد رفع بنيان الكعبة:

أعزّ به المليك بني لؤيّ | فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنوعدي | ومرّة قد تقدّمها كلاب
فبوّأنا المليك بذاك عزاً | وعندالله يلتمس الثواب[1]

* * *

وأمّا أبوطالب ـ واسمه عبدمناف عند المشهور وقيل عمران ـ فحدّث عن غزارة شعره ولا حرج. كان شاعراً مجيداً، له في مديح الرسول(صلى الله عليه وآله) قصائد وروائع ،منها: قصيدته العصماء تبلغ المائة بيت، قالها عندما خشي دهماء العرب وتألّبهم عليه في حمايته لرسول الله، متعوذاً بحرم مكة وبمكانه منها، مهدّداً أنّه لايُسلم رسولَ الله ولا تاركه لشيء أبداً. وفيها إلماع بتصديقه للدعوة

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢١١.

وإيمانه بصدق رسالة ابن أخيه، قال فيها:

أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن ... علينا بسوء أو ملحّ بباطل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق في الدين مالم نحاول

الى أن يقول:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلّا أمركم في بلابل

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل[١]

الى قوله في وصف الرسول(صلى الله عليه وآله):

وما ترك قوم -لا أبالك- سيّداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل[٢]

وأبيض يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٣]

يلوذبه الهلّاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل[٤]

الى قوله -متنبّئاً بظهور الإسلام وغلبته-:

فابلغ قصيّاً أن سَيُنْشَر أمرنا ... وبشّر قصيّاً بعدنا بالتخاذل

الى أن يقول:

لعمري لقد كُلّفت وجداً بأحمد ... وإخوته دأب المحبّ المواصل[٥]

فلازال في الدنيا جمالا لأهلها ... وزينا لمن والاه ربّ المشاكل

فمن مثله في الناس أيّ مؤمّل ... إذا قاسه الحُكّام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلها ليس عنه بغافل

لقدعلموا أنّ ابننا لامكذّب ... لدينا ولا يُعْنَى بقول الأباطل[٦]

---

(١) البلابل: تشويش الخاطر. نُبْزَى محمداً أي نُسْلَبُه ونُغْلَب عليه. والمناضلة: مراماة السهام.

(٢) الذمار: الحماية والذمام. والذرب: الفاحش اللسان. والمواكل: الذي يكل أُموره الى غيره إذ ليس له جِدّ في الأُمور.

(٣) الثمال: الملجأو المأوى ومن يقوم بأمر غيره.

(٤) أراد بالهلّاك الضلّال. وهو من لطيف التعريض باولئك الذين لم يهتدوا بهديه الرشيد.

(٥) المراد بالإخوة هنا ذو وقرابته الأحداث ممّن آمنوا به وصادقوه.

(٦) لامكذّب: هو المصدّق في قومه وعشيرته الأقربين. وإذا كانت عقيدة أبي طالب فيه ذلك، فهو ممّا ←

فأصبح فينا أحمد في أرومة | تقصّر عنه سورة المتطاول
حدبتُ بنفسي دونه وحميته | ودافعت عنه بالذرا والكلاكل[1]
فأيّده ربّ العباد بنصره | وأظهر دينا حقّه غير باطل

قال ابن هشام ـ بعد ذكر القصيدة بتمامها ـ: هذا ماصحّ لي من هذه القصيدة...[2].

قال السهيلي: فإن قيل: كيف قال أبوطالب: وأبيض يستسق الغمام بوجهه... الخ، ولم يره قط استسق، وانما كانت استسقاءاته (صلى الله عليه وآله) في أسفاره وحضره بعد الهجرة...؟ فالجواب: أنّ اباطالب قد شاهد من ذلك أيضا في حياة عبد المطلب مادلّه على ماقال.

روى أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي النيسابوري[3] أنّ رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم قالت: تتابعت على قريش سنو جدب قد أقحلت الظلف[4] وأرقت العظم، فبينا أنا راقدة للهمّ أو مهدّمة ومعي صنوي[5]، إذا أنا بهاتف صيّت يصرخ بصوت صحل[6] يقول يا معشر قريش، إنّ هذا النبيّ المبعوث منكم، هذا إبّان نجومه، فحيّهلا بالحيا والخصب[7]، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً عظاما أبيض أشمّ العرنين له فخر يكظم عليه...[8] قالت: فأصبحت مذعورة... فاقتصصت رؤياي.

يدلّ صريحاً على تصديقه إيّاه وايمانه برسالته.

(١) السّورة: الشدّة والبطش. والحدب: الحنان والعطف. والذرا: جمع ذروة: هي أعلى ظهر البعير. والكلاكل: جمع كلكل، عظم الصدر.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٩٩.

(٣) صاحب الرسالة الأولى في الإعجاز المتوفى سنة ٣٨٨ تقدّم الكلام عنه.

(٤) أقحل الشيء: أيبسه. الظلف للبعير بمنزلة الحافر للفرس.

(٥) الصنو: الأخ الشقيق.

(٦) صحل صوته: بحّ وخشن.

(٧) الحيا: المطر. الخصب: النبات.

(٨) العرنين: السيّد الشريف، وهو اسم لما صلب من الأنف، وأشمّ العرنين: الرافع رأسه عند المشي.

فوالحرمة والحرم، إن بقي أبطحي إلّا قال: هذا شيبة الحمد (يريدون عبدالمطلب شيخ الأباطح) وتتامّت [١] عنده قريش وانقضّ إليه الناس من كلّ بطن فشنّوا ومسّوا واستلموا وطوفوا ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق الناس يدفّون حوله ما أن يدرك سعيهم مهلة حتى قرّوا بذروة الجبل واستكفوا جنابيه[٢].

فقام عبدالمطلب فاعتضد ابن ابنه محمداً(صلى الله عليه وآله)فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع أو قد كرب [٣]. ثمّ قال:

«اللهمّ سادّ الخلة، وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلّم، ومسؤول غير مبخّل، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك [٤]، يشكون إليك سنتهم، فاسمعن اللهمّ وأمطرن علينا غيثاً مريعاً مغدقاً» فماراموا ـ والبيت ـ حتّى انفجرت السماء بمائها وكظّ الوادي بثجيجه [٥].

قال ابن هشام: وحدّثني من أثق به، قال:

أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) فشكوا ذلك إليه. فصعد رسول الله المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحي [٦] يشكون منه الغرق. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : «اللهمّ حوالينا ولا علينا» [٧]، فانجاب السحاب عن المدينة، فصارحواليها كالإكليل. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لوأدرك أبوطالب هذااليوم لسرّه فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

---

(١) تتامّ القوم: اجتمعوا كلّهم. (٢) استكفوا جنابيه: أي ملؤوا طرفيه.
(٣) أيفع الغلام: ترعرع وناهز البلوغ. (٤) عذرة الدار ـ بكسرالذال ـ : فناؤها.
(٥) الروض الأنف: ج ٢ ص ٢٩. وهامش سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠٠ والثجيج: السيل الغزير.
(٦) الضواحي: جمع ضاحية هي الأرض البراز ليس فيها ما يكنّ من المطر. وضاحية كلّ بلد: خارجه ونواحيه.
(٧) هو من حسن الأدب في الدعاء، لأنّ المطر رحمة ونعمة، فكيف يطلب رفع نعمته وكشف رحمته.

قال (صلى الله عليه وآله): أجل[١].

وممّا يستدلّ على إسلامه وقبوله للدعوة قوله ـ مخاطباً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) ـ:

ودعوتني وعلمتُ أنك صادق ... ولقد صدقتَ فكنتَ قبلُ أمينا

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد ... من خير أديان البريّة دينا

ذكرهما ابن حجر في الإصابة[٢].

وذكر أيضاً قوله من قصيدة:

وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمّد

وذكر ابن هشام ـ في السيرة ـ أبياتا وقصائد كثيرة قالها أبوطالب في مديح رسول الله (صلى الله عليه وآله) والإشادة بموضعه الكريم، منها قوله عندمارأى من قومه ماسرّه جهدهم معه وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهم ومكانه منهم ليشدّ لهم رأيهم وليحدبوا على أمره أكثر، قال فيها:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرّها وصميمها

وإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإنّ محمداً ... هو المصطفى من سرّها وكريمها

... الى آخر ما يقول ...[٣].

* * *

ومن شعر جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين قوله يوم مؤتة ـ وفيه قتل (رحمة الله عليه).

يا حبّذا الجنّة واقترابها ... طيّبة وبارد شرابها

والروم روم قددنا عذابها ... عليّ إذ لاقيتها ضرابها

* * *

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٠٠. (٢) الإصابة: ج ٤ ص ١١٥ - ١١٦. (٣) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٨٨.

ومن شعر عبدالله بن عباس:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى ... وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرني في حاجة لم يجد بها ... سواي ولا مِن نكبة الدهر ناصر
فرجت بما لي همّه من مقامه ... وزايله همّ طروق مسامر
وكان له فضل عليّ بظنّه ... بي الخير أنّي للذي ظنّ شاكر

* * *

ومن شعر مولانا أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب (عليه صلوات المصلّين) وكان مجوّداً ما قاله يوم صفّين يذكر همدان ونصرهم إيّاه:

ولمّا رأيت الخيل ترجم بالقنا ... نواصيّها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنّه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمير ... وكندة في لخم وحيّ جذام
تيمّمت همدان الذين هم هم ... -إذا ناب دهر- جنّتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطار واشرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بوّابا على باب جنّة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومن شعره (عليه السلام) أيضاً يوم صفّين:

لمن راية حمراء يخفق ظلّها ... إذاقلت قدّمها حضين تقدّما
فيوردها في الصّف حتّى يرد بها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما

* * *

ومن شعر الحسن بن علي (عليهما السلام) وقدخرج على أصحابه مختضباً:

نسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... فليت الذي يسودّ منها هو الأصل

* * *

ومن شعر الحسين بن علي (عليهما السلام) وقد عوتب في امرأته:

لعمرك إنّني لأحبّ داراً ... تحلّ بها سكينة والرباب

أُحبها وأبـذل جـلّ مـالي وليس للائمي عندي عـتاب [١]

* * *

وبنات عبدالمطلب كلّهن شاعرات:

فمن شعر صفيّة في قصيدة ترثي بها أباها عبدالمطلب:

أرقت لصوت نـائحـة بليل على رجل بقارعة الصعيد

ففاضت عند ذلكم دموعي على خدّي كمنحدر الفريد [٢]

الى أن تقول:

فلو خلد امرؤ لِقَدِيْم مجدٍ ولكن لا سبيل الى الخلود

* * *

وقالت برّة بنت عبدالمطلب تبكي أباها:

أعينيّ جودا بدمع درر على طيّب الخيم والمعتصر

على ما جد الجدّ وار الزناد جميل المحيّى عظيم الخُطر

الى أن تقول:

أتته المنايا فلم تشوه بصرف الليالي وريب القدر [٣]

* * *

وقالت عاتكة تبكي أباها عبدالمطّلب:

أعيني جوداً ولا تبخلا بدمعكما بعد نوم النيام

أعينيّ واسحنفرا واسكبا وشوبا بكاء كما بِالْتِدام [٤]

الى أن تقول:

تبتّك في باذخ بيته رفيع الذؤابة صعب المرام [٥]

* * *

---

(١) العمدة: ج ١ ص ٣٤-٣٧.

(٢) الفريد: الدّر.

(٣) الشوى: الأطراف. ولم تشوه أي لم تصب الشوى بل اصابت المقتل.

(٤) اسحنفر المطر ونحوه: غزر وكثر صبّه. والإلتدام: ضرب الوجه في النياحة.

(٥) تبتّك: تأصّل من البنك -بضم الباء- وهو أصل الشيء وخالصه.

وقالت امّ حكيم البيضاء ترثي أباها عبدالمطلب:

ألا يا عين جودي واستهلّي ... وبكّي ذاالندى والمكرمات
ألا ياعين ويحك أسعفيني ... بدمع من دموعٍ هاطلات

الى أن تقول:

فبكّيه ولا تسمي بحزن ... وبكّي، ما بقيت، الباكيات

* * *

وقالت أُميمة بنت عبدالمطلب تبكي أباها:

ألا هلك الرّاعي العشيرة ذوالفقد ... وساقي الحجيج والمحامي عن المجد

الى أن تقول:

فقد كان زينا للعشيرة كلّها ... وكان حميداً حيث ماكان من حمد

* * *

وقالت أروى بنت عبدالمطلب تبكي أباها:

بكت عيني وحُقّ لها البكاء ... على سمح سجيّته الحياء

الى أن تقول:

مضى قُدُما بذي رُبَدٍ خشيب ... عليه حين تبصره البهاء[١]

وذكر محمد بن سعيدبن المسيّب أنّ عبدالمطلب أشار برأسه وقد أصْمَت أضْمَت: أن هكذا فابكيني[٢].

---

(١) الربد ـ كصرد ـ: الفرند. والخشيب: الصقيل. ويروى مكان البهاء: الهباء، وهو مايظهر على السيف. الجوهرمن غبار.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٨٣.

الفهارس



فهرس الآيات

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبة

(١٠) سورة يونس

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة ابراهيم

(١٥) سورة الحجر

(١٦) سورة النحل

(١٧) سورة الاسراء

(١٨) سورة الكهف

(١٩) سورة مريم

* * *

(٢٠) سورة طه

(٢١) سورة الأنبياء

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت

(٣٠) سورة الروم

* * *

(٤٥) سورة الجاثية

(٤٧) سورة محمّد

(٤٨) سورة الفتح

(٥٥) سورة الرحمن

(٥٦) سورة الواقعة

(٦٩) سورة الحاقة

(٧٠) سورة المعارج

(٩٣) سورة الضحىٰ

(١٠٤) سورة الهمزة

فهرس الأحاديث

(هـ)

(ي)

فهرس الأعلام

(أ)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأشعار

فهرس الفِرق والمذاهب

(أ)

(خ)

(د)

(س)

فهرس البلدان والأماكن

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

فهرس الجماعات والقبائل

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

* * *

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

فهرس مواضيع الكتاب

القول بالصرفة

شهادت وإفادات

جذبات وجذوات

* * *

قرعات وقمعات

محاجحات ومخاصمات

مفاخرات ومساجلات

سخافات وخرافات



الحمد لله وصلّى الله على محمّد نبيّ الله وعلى آله آل الله

لقد قامت مؤسّسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم المشرّفة بنشاطات واسعة في مجال نشر المعرفة وإحياء التراث الاسلامي، وإليكم سرداً لبعض منشوراتها:

من الكتب التي تمّ طبعها

* أحاديث المهدي مع «البيان في أخبار صاحب الزمان»	من مسند أحمد بن حنبل محمّد الكنجي الشافعي
* الاختصاص	الشيخ المفيد
* إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان (ج١ و٢)	العلّامة الحلّي
* الأمالي	الشيخ المفيد
* الإمام الصادق (ع) (ج١ و٢)	الشيخ محمد حسين المظفّر
* إيضاح الاشتباه	العلّامة الحلّي
* بحوث في الاصول، وتشمل على: أ-الاصول على النهج الحديث ب-الطلب والإرادة ج-الاجتهاد والتقليد	الشيخ محمّد حسين الإصفهاني
* بحوث في الفقه، وتشمل على: أ-صلاة الجماعة ب-صلاة المسافر ج-الإجارة	الشيخ محمّد حسين الإصفهاني
* بداية الحكمة	العلّامة الطباطبائي

الكتاب	المؤلف
* مجمع الفائدة والبرهان (ج١- ١٢) في شرح إرشاد الأذهان	المقدّس الأردبيلي
* المحجّة البيضاء (دورة كاملة)	الفيض الكاشاني
* مختلف الشيعة (ج١-٦)	العلّامة الحلّي
* معادن الحكمة (ج١و٢)	محمّد ابن الفيض الكاشاني
* معالم الدين وملاذ المجتهدين	الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني
* معاني الأخبار	الشيخ الصدوق
* معجم الفروق اللغوية	العسكري والهلالي
* المقنعة	الشيخ المفيد
* المكاسب والبيع	الشيخ محمّد تقي الآملي
* المناقب	الموفّق بن أحمد الخوارزمي
* منتقى الجمان (ج١-٣)	الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني
* المنقذ من التقليد	الحمصي الرازي
* من لا يحضره الفقيه (ج١-٤)	الشيخ الصدوق
* منية المريد في آداب المفيد والمستفيد	الشهيد الثاني
* المهذّب (ج١-٢)	القاضي ابن البرّاج
* المهذّب البارع (١-٥)	ابن فهد الحلّي
* الميزان في تفسير القرآن (ج١-٢٠)	العلّامة الطباطبائي
* نهاية الأفكار	الشيخ محمد تقي البروجردي
* نهاية الحكمة	العلّامة الطباطبائي
* نهاية المرام (ج١و٢) في تتميم «مجمع الفائدة والبرهان»	السيّد محمّد العاملي (صاحب المدارك)
* النهاية ونكتها (ج١-٣)	الشيخ الطوسي والمحقّق الحلّي
* نهج البلاغة	الامام علي عليه السّلام
* وقعة الطف	أبي مخنف